رؤى ثقافية

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٣٧٣/٩/٢٠١٠)

عبد الكريم حسن بكار
رؤى ثقافية/ عبد الكريم حسن بكار.- عمان : دار الأعلام للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
(٢٥٠) ص.
ر.إ. :٣٢٧٣/ ٩/ ٢٠١٠
الواصفات : التفكير المبدع / / الإبداعية/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٤٧٩-٥٥-٨ (ردمك)

دار الأعلام

الأردن - عمان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ - مكتب ٦٠٥
تلفاكس ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: al_aalam@yahoo.com

رؤى ثقافية

الأستاذ الدكتور

عبد الكريم بكار

دار الأعلام

للنشر والتوزيع

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ كان في الأصل عبارة عن مقالات متفرقة نشرت في العديد من المجلات، مثل البيان والعربية والفيصل والمعرفة ومجلة الطالب المسلم في لندن... وقد تم نشر معظمها خلال السنوات الأربع المنصرمة. وهي تتوزع على محاور عدة، منها التربوي والفكري والمعرفي والدعوي والبيئي. وهي على تباينها تهدف جميعاً إلى تنبيه العقل المسلم إلى محاولة الحصول على صياغات جديدة لرؤاة وطروحاته في المسائل التي عرضنا لها. ولم أجد اسماً جامعاً يمكن إطلاقه عليها سوى (رؤى ثقافية) وهو على مرونته واتساعه أليق بها وأكثر مناسبة بطبيعتها.

وإني لم أشأ إدخال أي تغيير عليها لتكون بمثابة تاريخ لذهنية الكاتب وطروحاته الثقافية في حقبة زمنية محددة.

ونظراً لأنها كتبت في أوقات متفاوتة، فإني ألتمس من القارئ العذر لما يمكن أن يكون فيها من تداخل وتكرار، مما يصعب تحاشيه في مثل هذه الحالات، فالكاتب يستخدم أفكاره ونماذجه في سياقات مختلفة ويؤكد على معان ومفاهيم محددة، مما يحوجه إلى التكرار والإعادة في كثير من الأحيان.

ونظراً لإيماني بأن عدداً كبيراً من الإخوة الذين يتابعون كتاباتي لم تسنح لهم الفرصة للاطلاع على هذه المقالات فقد رأيت نشرها مجتمعة، مع العلم بأن بعضها لم يسبق نشره من قبل.

وإني لأسأل الله- جل وعلا- أن ينفع بهذا الكتاب ويجعله في موازين حسناتي يوم الدين؛ إنه سميع مجيب.

أ.د. عبد الكريم بكار

عولمة أم غزو؟ ١

تمنح تقنيات الاتصالات وشبكات المعلومات المتوفرة الآن الأمم المختلفة فرصاً عظيمةً لتبادل الخبرات وتجديد الوعي، وتحرير العقل والنفس من البرمجيات الثقافية العليلة والمتأسِّنة.... ونحن المسلمين لا نخشى من الاتصال بالآخرين؛ فقد زجّ الإسلام بأبنائه في خضم الصراع العالمي، وخرجوا منتصرين عسكرياً وشيدوا حضارة وطيدة الأركان شامخة البنيان؛ بل إنني أقول: إنه كان الأليق بالمسلمين أن يكونوا هم وراء ثورة الاتصالات؛ حتى يتواصلوا فيما بينهم عبر القارات، وحتى ينشروا النور الذي أكرمهم الله به، ولكن..

من الذي يقود العولمة؟

لو كان المفكرون والعلماء هم الذين يقودون العولمة، لأمكن أن نعثر على فرص عظيمة للحوار والنقاش والتلاقح الثقافي... ولو أن الساسة كانوا هم الذين يقودونها؛ لأمكن عقد صفقات دولية كبرى، يعود نفعها على الجميع، ولأمكن للشعوب أن تضغط على حكوماتها من خلال الانتخابات لتعمل ما هو في صالحها...

نعم العولمة تستخدم منتجات العلم، وتتبدى أحياناً في بعض صور النشاط السياسي - كما يظهر ذلك في سلوك أمريكا الدولي مثلاً - لكن لا الفكر ولا النظم السياسية هي التي تتحكم في الإخراج النهائي للعولمة.

إن الذي يقود حركة (العولمة) هو (نظام التجارة) وهو نظام أعمى أصم،

لا يعرف سوى الربح وتكديس الأموال. وهو نظام غلاّب بطبعه، ما نازل نظاماً آخر إلا غلبه، لكن بطشه مستمدّ من ضعفه، فهو أقل النظم الاجتماعية اهتماماً بالرمزيات الوطنية، وأقلها اكتراساً بالقيود الأخلاقية، وأبعدها عن النزعة الإنسانية. المستفيدون من العولمة هم الذين يقومون بترسيخ وجودها، وهم صفوة الأثرياء وأصحاب الشركات المتعددة الجنسية، حيث تتضاعف أرباح القلة على حساب شقاء الكثرة الكاثرة من البشر. وتذكر بعض الإحصاءات أن [٣٥٨] ملياردير اً يملكون ثروة تضاهي ما يملكه ملياران ونصف من البشر، أي ما يقرب من نصف سكان المعمورة، وهـذا الثراء المتـزايد دائـماً يتم بسبب تضخـم (الاقتصادي) وتهميش (السياسي). والذي يدفع الثمن هم الفقراء الذين بدؤوا يفقدون حماية الدولة لهم من مخالب اقتصاد السوق، ويعانون من تراجع الخدمات الرخيصة التي تقدّم إليهم؛ وذلك بسبب التهرب من الضرائب، وبسبب الإمكانات المتسعة لنقل الأموال والأعمال من بلد إلى آخر على ما تقتضيه مصلحة أصحابها. وهكذا ففي العالم اليوم تبخر مستمر للطبقة الوسطى حيث ينضم جمهورها الأعظم إلى طبقة الفقراء والعاطلين عن العمل، وتنضم فئة منها لا تزيد على ٢٠٪ إلى صفوف الطبقة الثرية، ولا يناظرها في مسيرة التدهور المتصاعد سوى (البيئة الطبيعية) التي يتم تدميرها بشكل منتظم من أجل تحقيق أعظم الأرباح، ولو أدى ذلك إلى وجود خراب لا يمكن إصلاحه!

** تفكيك الثقافات المحلية:

يدور حول الأرض اليوم أكثر من خمسمائة قمر صناعي، تبث في كل اتجاه

الصور والأفكار... والنماذج والنظم... لكثير من جوانب الحياة التي يعيشها العالـم الصناعي المتمكن. وهذا الفيض الهائل من رموز الحداثة أربك (الوعي) لدى السواد الأعظم من أبناء الشعوب النامية؛ فمن خلال الدعاية المكثفة صار للناس أحلام جديدة، توجه سلوكاتهم، وتصوغ تطلعاتهم على نحو تعجز إمكاناتهم عن تحقيقها، كما أن (العولمة) أدت إلى تسريع التحولات الهيكلية في أسواق العمل؛ مما جعل الكثير من الشباب يجد نفسه دون تأهيل مناسب لمتطلبات التنمية الحديثة. وبهذا وذاك يتم الآن تفكيك الثقافات المحلية، وضرب الجذور لكثير من المفاهيم والتقاليد الوطنية، وزج مئات الملايين من الناس في وسط هلامي زاهد في القديم، وعاجز عن التعامل مع الجديد!

**مدخل العولمة:

يصور لنا المستفيدون من الأوضاع الجديدة أن العولمة أشبه ما تكون بمصير كوني جاءت به تطورات منطقية محتومة ولذا فليس أمامنا سوى الاستسلام ومحاولة الحصول على جزء من كعكة العولمة. ويتضايق كثير من مثقفينا حين يسمعون غير ذلك، ويغضّون الطرف عن بعض الحقائق الصارخة التي تشير بأصبع الاتهام إلى حركة العولمة برمتها!

إن من الواضح أن العولمة ما هي سوى استثمار مكثَّف لكل أشكال التفوق الغربي، وهذا الاستثمار مجرد من أي معنى إنساني، وهو يستخدم مداخل غير أخلاقية وغير عقلانية أو علمية في حصد المزيد من المكاسب للغرب الظافر، حيث يتم (تنميط العالم) من خلال تدمير (التنوع الثقافي) العالمي بغية تسهيل السيطرة، وإزالة كل الحواجز التي تقف في سبيل هيمنة الشركات الكبرى على توجهات الناس وسلوكاتهم. والوسائل لذلك شهوانية استهلاكية في المقام

الأول فـ(هوليود) وأشباهها فتحت كل أبواب غرف نوم الغرب، وكل أبواب مواخيره ، وكل أبواب مباذله ولهوه، وسوّقت كل الرموز والصور التي يوحيها ذلك باعتباره جزءً من مجهود ضخم لصياغة كونية جديدة، يُهمَّش فيها الفقراء، والضعفاء، ويقادون من خلال رغباتهم إلى الوضعيات التي تخدم صناع العولمة. أما أسرار التقنية – ولاسيما في مستوياتها العليا – فهي مخزونة وراء سبعة أبواب؛ لأنها ليست مما يعرض للبيع أو التصدير!

**هل لنا من موقف؟ :

كانت الشعوب الضعيفة تحمي ثقافتها من بطش الثقافة الغالبة بالعزلة والتقوقع، أما اليوم فإن هذا أضحى غير ممكن؛ فثورة الاتصالات وضعت الناس فيما يشبه الخلاّطة الكبيرة، وجعلت الكل يراقب الجميع لكننا نعتقد أن كل أزمة تمنح فرصة، وليست هناك وضعية يمكن أن نعدها شراً خالصاً. العيش على هامش العصر، لا يختلف في السوء عن الاندماج في ثقافة أجنبية منحرفة، فكلاهما مصدر للتحلل الذاتي. وأود القول: إن أي تحسين لمستوى تعاملنا مع آثار العولمة وتحدياتها، والاستفادة من فرصها، لا بد أن ينطلق من تحسين (ذواتنا)، إذ لا هامش هنا لـ(الفهلوة) والمناورة.

إن (العولمة) ظاهرة شديدة التعقيد والتداخل، وإن التعامل معها ينبغي أن يرتكز على مجموعة من (الحلول المركّبة) وأعتقد أننا بحاجة إلى أن نوزّع جهودنا في هذا الشأن على ثلاثة محاور أساسية، هي :

١- المزيد من الالتزام:

إن العولمة تحمل- على نحو عام- روحاً علمانية مادية، وهي بالإضافة إلى كونها تؤسس لنفسية استهلاكية دنيوية، تهون من شأن المحرّمات الثقافية،

وتنزع الاعتبار عن كثير من القيم والمعايير الأخلاقية.. وهذا يوجب علينا أن نهتمّ بتحسين مستوى الالتزام لدى أشبالنا وشبابنا، كي نساعدهم على البقاء داخل الأطر الإسلامية السمحة، وحتى نحميهم من تيار الشهوات الجارف الذي تغذيه العولمة، وتمكن له في كل الأرجاء، وعلى كل المستويات.

لا يعني الالتزام ترك المحرمات،والقيام بأداء الواجبات فحسب، وإنما يعني إلى جانب ذلك إنعاش القيم التي يفرضها العيش في عصر العولمة، مثل قيمة الشورى والحرية والانفتاح والحوار والتعاون والتضامن الأهلي والنزاهة... حيث إن هذه القيم هي التي تجعل الثقافة أكثر جاذبية من ثقافة أخرى، وهي التي تساعد على الصمود في وجه الثقافة الغربية الغازية. إذا لم نفعل ذلك فسيكون من غير المستغرب أن نرى مجتمعاتنا تذوب بين أيدينا ونحن مدهوشون دون أن نفعل أي شي!

٢- المزيد من التفوق:

إنه ما التقى ضعيف بقويٍّ إلا كان اللقاء- غالباً- في مصلحة القويّ؛ وإذا أخذنا اتفاقية (الجات) نموذجاً للعلاقات التي تؤسس لها العولمة أيقنّا أن العالم كله يتجه إلى الاستغناء عن خدمات الضعفاء والعاديين، فـ(الأتمتة) الآخذة بالتوسع، وخطط ضغط النفقات- من أجل القدرة على المنافسة وإعادة تنظيم الأعمال الكبيرة... كل ذلك سيجعل أرباب العمل يستغنون عن معظم الأعمال التي يقوم بها أشخاص عاديون، وستقتصر الحاجة على نحو من ٣٠٪ من طاقات العمل المتوفرة؛ هذا بالإضافة إلى أن سد الفجوة الحضارية القائمة بيننا وبين الغرب، ليس له من سبيل سوى التفوق في المجال العلمي والتقني من خلال تعليم أفضل، وتدريب أرفع مستوى وأكثر انتشاراً، وبحث علمي أكثر

المستمع الجيد ٢

كلما تقدمت المعرفة، شعر الإنسان أن ما لديه من إمكانات فطرية، لم يعد كافياً للعيش بكفاءة وفاعلية. وفي ظل هذا التدفق الهائل للمعلومات والأفكار والصور... صار ما يمكن أن نحوزه من معرفة أهم مما نرثه عن آبائنا من إمكانات ذهنية متفوقة؛ مما يعطي أهمية إضافية للاهتمام بطرق اكتساب المعلومات والخبرات السائدة في عصرنا. وسنركز هنا الحديث حول منفذ من أهم منافذ المعرفة، وهو السماع بغية إدخال هذه المسألة في منطقة الوعي، وتطوير الاستفادة من حاسة السمع قدر الإمكان.

يصرف الإنسان ما بين ٥٠٪ إلى ٨٠٪ من ساعات يقظته في الاتصال بالآخرين، ويُمضي نحواً من ٤٥٪ منه في (الاستماع). في الثقافات الشفهية تكون (الأذن) هي البوابة الأساسية للمعلومات الواردة إلى الدماغ. واليوم تكتسب (العين) أهمية متزايدة إلى جانب الأذن نظراً لانتشار التعليم والبث المرئي، لكن سيظل المهم في كل وقت هو كيفية الحصول على الاستفادة المثلى من كل ذلك، من خلال تطوير آليات القراءة المثمرة والاستماع الجيد، واستثمار الإمكانات الكبيرة التي تتاح لنا بواسطتهما؛ حيث إن تجديد البعد العقلي وإثراء المخزون الثقافي لدى المرء، يستلزم فيما يستلزمه اتخاذ وضعيات جديدة في التعامل مع (المعرفة) التي تشكل المادة الجوهرية في إعادة تشكيل مفهوماتنا ورؤانا. لأسباب عدة لم تنل مسألة الاستماع والإنصات حقها من الاهتمام، مما

جعل استفادة كثيرين منا مما يسمع محدودة. وربما كان لظهور المستمع بالمظهر السلبي أو المتأثر أكبر الأثر في ذلك الإهمال.

ولعلنا نجلي هنا بعض المبادئ والمفاهيم التي يمكن أن تساعدنا على تحسين الاستماع والاستفادة منه، وذلك من خلال المفردات التالية:

١- ليس من النادر أن يكون ما نسمعه مكروراً أو مملاً أو قليل الفائدة، وفي هذه الحالة فإن معظم الناس، يعرض إعراضاً تاماً عن الاهتمام بما يسمع. أما الحريص على الفائدة، فإنه يسأل نفسه: كيف يمكنني الاستفادة من هذا الحديث؟ يمكن للمرء أن يتعرف من خلال ما يسمع على نمط التفكير لدى المتكلم، كما يمكنه التعرف على بعض القيم الاجتماعية السائدة، واستخلاص مغزى من ذلك، أو تدعيم نسق فكري يتبناه... ومن المألوف أن يجد الواحد منا فكرة عظيمة في سيل من اللغو.

٢- يقولون: إن الله - تعالى- خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين اثنتين حتى يسمع ضعف ما يتكلم، لكن يبدو أن شهية الناس للكلام- كيفما اتفق- لا تقاوم! إن قدرة المرء على أن يسمع أكثر مما يتكلم، دليل على تحليه بقدر من (الحكمة) والروية المهمتين للنضج والاكتمال.

من المهم هنا ألا نحاول مقاطعة المتكلم حتى يكمل الفكرة التي يريد إيصالها إلينا؛ ومن المهم أكثر ألا ندلي بأي تعليق أو إصدار أي حكم قبل الحصول على الصورة الكاملة.

٣- لنحاول أن نستمع ونحن في حالة استبشار وتفاؤل وجاهزية عقلية جيدة، فذلك أدعى إلى إدراك مرامي الكلام، وتحسين القدرة على الربط بين

أجزائه كما أن عملية الاستماع بمجملها تمسي أكثر إمتاعاً.

٤- كثير من الناس يتضايق من سماع الأحاديث ذات المستوى الرفيع بحجة أن أصحابها (يتفلسفون) كما يفعلون تماماً حين يعرضون عن قراءة النصوص الممتازة والراقية. وفي اعتقادي أن (الدماغ) بحاجة إلى مواجهة بعض التحديات من خلال سماع أحاديث أعلى من مستوى استيعابه؛ لأنها وحدها هي التي ستحفزه وتزيد مهاراته في الفهم. وفي الحقيقة نحن لا نفهم إلا ما نعرف، فإذا فهمنا كل ما يقال بيسر، فهذا يعني أننا نعرفه وإذن ما الفائدة التي سنجنيها من ورائه؟

٥-من المهم أن نشرك النظر مع الأذن أثناء الاستماع، فالعينان مغرفتا الكلام، كما أنهما تنظمان التفاعلات الداخلية بين السامع والمتكلم. وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة أن ما تشعه وضعية المتكلم وإشاراته ورسائله غير اللفظية، ربما يتفوق على ما نستفيده من الدلالات المباشرة للكلام الذي نسمعه. ولا ننسى إلى جانب هذا أن نتخذ الوضعية الجسدية الملائمة أثناء الاستماع، فالاتكاء والاستلقاء- مثلاً- يساعدان على النوم وشرود الذهن.

٦- نحن بحاجة إلى أن نسمع بعقل مفتوح، ولا سيما حين نسمع كلاماً يثير المشاعر بسبب ما فيه من مبالغة أو استفزاز، أو دفق روحي عال، وسيكون علينا أن نحاول تفسير ما نسمع تفسيراً موضوعياً، ولا نمضي مع المتحدث بعيداً عما هو طبيعي أو معقول أو مخالف للأصول. لا يعني هذا- بالطبع- ألا نحاول فهم وجهة نظر المتكلم حتى وإن كانت معارضة لما نعتقده. وعلينا أن نتذكر دائماً أن كثيراً مما نسمعه، لا يعدو أن يكون رأياً من الآراء.

٧-إن سرعة دماغ الإنسان في التفكير، تفوق سرعته في الحديث ما بين (٤-١٠) أضعاف، ويمكن استخدام هذا الفارق الكبير في استغلال القدرات العقلية المختلفة أثناء الاستماع في تنظيم ما نسمعه وتلخيصه، ومقارنته مع الأفكار الأخرى، وتفسير ما توحي به لغة الجسد لدى المتكلم. وسيكون كل ذلك أكثر جدوى عند سماع متحدث بطيء التكلم، أو كثير التكرار للأفكار.

٨-قد يكون المتحدث كثير اللحن، أو لا يحسن اختيار ألفاظه، أو لا يحسن تنظيم جمله... وفي هذه الحال فإن السامع قد يعجب بنفسه، ويقع ضحية لعقدة التفوق، وينصرف بالتالي عن محاولة الاستفادة مما يقال. الذي يليق بنا في هذه الحالة هو التركيز على المضمون تركيزاً كلياً؛ فجوهر الفائدة، إنما يكمن فيه.

٩-لنحاول أثناء الاستماع عدم الانسياق خلف الأفكار الجزئية أو الاستطرادات والمعترضات، وعلينا أن نحاول فهم المغزى الأساسي للحديث وربطه بالبنية الرئيسة لأفكارنا ومسلّماتنا ورؤانا. ومن المؤسف أن لدى كثيرين منا نوعاً من الضعف في هذا الجانب!

١٠- مهما كان حرصنا على مواصلة الاستماع إلى آخر كلمة يقولها المتكلم- شديداً، فإننا سنظل بحاجة إلى التمتع باستراحة بعد كل ساعة استماع وإذا كان الحديث شديد التركيز، فسنكون بحاجة إلى الاستراحة بعد كل نصف ساعة. وهذه الاستراحة ليست ضرورية لتنشيط القدرة على الاستيعاب فحسب، وإنما لإتاحة الفرصة لبرمجة المعلومات التي سمعناها، ودمجها ضمن معقولاتنا ونسقنا المعرفي الخاص أيضاً.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

العلم ٣

وظائف متزايدة

تكريم الخالق – جل وعلا – للإنسان يتجلى في جوانب ومجالات عديدة، منها أنه متَّعه بالإرادة الحرة، ومنحه مدى فسيحاً للارتقاء الروحي والفكري، فهو الأقدر من بين المخلوقات على التعلّم من أخطائه، والتحرر من حتميات الوراثة والبيئة والطبيعة. وإذا كان الحيوان يخضع على نحو شبه كلي للبرمجة الغريزية التي تكفل له نوعاً من العيش والحماية، فإن الإنسان بما وهبه الله – تعالى – من إمكانات، قادر على فتح آفاق جديدة في كل ما يتصل به من جوانب الحياة، والارتقاء في معارج النضج والاكتمال. والذي يتيح لكل الإمكانات أن تنبثق، ولكل القابليات أن تتحقق هو (العلم) فهو النور الذي يضيء كل الزوايا المظلمة.

وظائف العلم:

يمكن القول: إن الوظائف الأساسية للعلوم والمعارف ثلاث:

الأولى: مساعدة الإنسان على ترشيد اختياراته على المستويات كافة: العقدية والفكرية والاجتماعية والمادية... حيث إن من طبيعة (المعرفة) تحسين الوعي بمزايا الأشياء المعروضة وعيوبها، مما يمكّن المرء من المقارنة والموازنة، وبالتالي الجنوح لما هو حق وخير. وفي هذا يقول الله – تعالى –: ﴿ وَيَرَى

﴿ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1].

الثانية: مساعدة الناس على اكتساب المهارات وتعلم الصنائع التي تسهل عليهم الحياة، وترتقي بنوعيتها. وواضح أن كل الفنون تشتمل على معلومات ومخططات نظرية؛ فالأشياء ترتسم في الذهن أولاً، ثم تتجسد بعد ذلك في صورة ملموسة. وقد امتنَّ الله - تعالى - بتعليم داود صنعة الدروع التي يلبسها المتحاربون، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[2].

الثالثة: تنظيم رودود الأفعال. والحقيقة أن أكثر من ٨٠٪ من تصرفاتنا اليومية هو عبارة عن ردود أفعال على تحديات ومثيرات مختلفة. وإن الذي ينظِّم تلك الردود هو (العلم). وسنعرف مقدار مساهمة المعرفة في ذلك حين نقارن بين موقف أم طبيبة تجاه مرض طفلها، وموقف أم جاهلة. حين وقع الطوفان لجأ ابن نوح (كنعان) إلى جبل يعتصم به من الماء، لأنه لم يكن يعلم أن اجتياح المياه بتلك الصورة، لم يكن إلا أداة عذاب واستئصال لكل أولئك الذين كانوا خارج السفينة. أما أبوه نوح - عليه السلام - فقد كان يعرف ذلك على نحو تام، ولذا فإنه قال له: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[3].

من الملاحظ أن البشرية تتقدم باستمرار نحو المزيد من الاستخدام للعلوم والمعارف؛ فالتقدم الحضاري يعني دائماً مزيداً من الاستبصار، ومزيداً من الاقتصاد في الجهد، ومزيداً من تحسين مستوى المنتجات مع خفض التكاليف

(١) سورة سبأ: ٦
(٢) سورة الأنبياء ٨٠
(٣) سورة هود ٤٤

وتقليل المخاطر. وقبل أن أُلقي الضوء على هذه المعاني أود أن أوضح أن علينا أن نكون على حذر مما يمكن أن نسميه بزغل العلم، فالمعارف - أياً كانت - لا تملك أية خاصية تحول دون استغلالها استغلالاً سيئاً ضد مصالح البشرية، أو توظيف بعض مدلولاتها ومقولاتها في تشكيل أفكار ومعتقدات فاسدة ومنحرفة، أو تسخيرها لخدمة بعض الأهواء والمصالح الشخصية، أو استيلاد بعض النتائج الخاطئة من بعض مقدماتها الصحيحة...

تزايد وظائف العلم:

على مدى التاريخ كان الإنسان يحسّن من وسائل معيشته وأنماط حياته، وكان العلم يقود حركة التغيير في كل مرحلة. ويلاحظ أن بين الجهد الذهني والجهد البدني علاقة عكسية؛ فكلما قلَّ العلم اضطر الإنسان إلى أن يبذل جهداً أكثر. وكلما ارتقى مستوى المتحصل من المعرفة لديه، انخفضت حاجته إلى استخدام جسمه، وانخفضت درجة معاناته، وما ذلك إلا لأن العلم، كان يساعد دائماً على توفير الأساليب والوسائط التي تمكّن الإنسان من المزيد من السيطرة على بيئته. وكان أكثر ما أنجز من ذلك عبارة عن مد في سلطان الحواس؛ فالهاتف مدَّ في سلطان الأذن واللسان. والتلفاز في سلطان العين والأذن. والبندقية في سلطان اليد. والطائرة في سلطان الرجل.. واكتشاف الإنسان أن حاسة الشم لدى الكلاب أقوى من حاسة الشم لديه بنحو (١٢٠٠) مرة مدَّ في الحقيقة في سلطان الشم، حيث صار يستخدم الكلاب في تتبع الروائح وهكذا.. العلم بإيجاده بيئات وأشياء جديدة، لا يخدم الناس فحسب، وإنما يخدم نفسه أيضاً؛ حيث إن البيئة المتقدمة علمياً تطرح أسئلة جديدة على العلم، وتحفزه على تجديد

مقولاته، وإعادة تنظيم طروحاته، والكشف عن الفجوات في أبنيته.

وهذا ما نجده واضحاً اليوم على مستوى الفكر والاعتقاد في أمريكا وأوروبا- مثلاً- فالتقدم في العلوم والاكتشافات الذي تم في القرن الماضي والنصف الأول من هذا القرن- بالإضافة إلى موقف الكنيسة من العلم والعلماء- ولَّد نظريات تشكك في وجود الله - تعالى-، وتضع الأسس لحياة علمانية محضة، على نحو ما أحدثته نظريات (داروين) و(ماركس)و (نيتشه) و(فرويد)... لكن ما تم اكتشافه في النصف الثاني من هذا القرن- في الفضاء خاصة- صار يجذب على نحو متزايد إلى الاعتقاد بأن الكون، لا يمكن أبداً أن يكون (عشوائياً) فما فيه من تنظيم دقيق يستحيل أن يأتي عن طريق الصدفة. إن معظم الشعوب الغربية، تؤمن بوجود إله، كما تؤمن بالبعث والحساب، لكن الصفوة الصانعة للاتجاهات الفكرية والثقافية هناك، ظلَّت أقرب إلى الإلحاد أو غير مبالية- على الأقل- بقضية الإيمان وتبعاته السلوكية. والمدهش أن العودة إلى الاهتمام بمسائل الإيمان والتدين، هي اليوم في صفوف تلك الصفوة من علماء الفلك والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء؛ وقد تجاوز اهتمام بعضهم مسألة الإيمان بالله - تعالى - إلى مسألة أكثر خصوصية، وهي مسألة (بشرية المسيح) عليه السلام؛ حيث إن في الغرب تياراً من المثقفين بدأ يكتشف زيف القرار الذي أصدره (قسطنطين) والقاضي بأن عيسى -عليه السلام- جزء من الله - تعالى- وأن ذلك القرار كان لأسباب سياسية بحتة.

ويلفت أحد الكتب التي تتحدث عن هذه المسألة في الغرب إلى أن بعض مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية (مثل توماس جفرسون، الذي كتب

الدستور الأمريكي) كانوا لا يؤمنون بألوهية المسيح.

ومع أن علينا أن ننتظر مدة طويلة- ربما نصف قرن- حتى يترسخ هذا الاتجاه في الغرب، ويغير في البنية العامة للحياة هناك، إلا أن ذلك يدل دلالة واضحة على أن لـ(العلم) قدرات كبيرة على أن يعيد كثيراً من الأمور إلى نصابها، لكن المشكل دائماً في الناس الذين يبنون أحكاماً نهائية على معطيات علمية غير مكتملة أو غير ناضجة. وهذا يذكرنا بالمقولة القديمة: " نصف عالم أضر على الناس من جاهل".

أما وظائف العلم الجديدة على مستوى الإنتاج، وتحسين نوعية العيش، فهي في الحقيقة أكثر بكثير من أن يتم إحصاؤها في مقال أو كتاب، فنكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها من خلال الحروف الصغيرة التالية:

١- من الوظائف الجديدة للعلم، أنه أخذ يساعد الناس على نحو متزايد على اختيار السلوك الأرشد المتعلق بحياتهم الشخصية، وتوفير الطرق والأدوات التي تعينهم على أن يكونوا على درجة من (اللياقة) الجسمية والسلوكية، وذلك من خلال مزيد من التحديد للنموذج الأمثل الذي ينبغي أن يتمثل في حياتهم، بالإضافة إلى نشر الوعي بالأشياء التي تعكّر صفو ذلك النموذج. هذا النموذج ينبع من خلال ترسيخ أعراف تحبّذ نوعاً معيناً من السلوك الشخصي، ومن خلال ضرورة مراعاة قواعد محددة؛ فقد كانت (البدانة) أمراً مرغوباً فيه، فهي دليل على النعمة والرفاهية والعافية. أما اليوم فإن (الرشاقة) هي الشكل الذي تحث المعطيات العلمية الجديدة على وجوب الصيرورة إليه. وفي كل يوم تُنشر البحوث المختلفة التي توضح مضار (البدانة)، كما تم إنتاج الآلات الحديثة

التي تساعد الناس على إنقاص الوزن. وهناك أيضاً ألوف البحوث التي توضح أضرار الكحول والمخدرات والدخان على الصحة، إلى جانب وسائل الخلاص منها.

وشيئاً فشيئاً سيكون بإمكان الإنسان أن يحمل في معصمه جهازاً يسجل بصورة آلية دائمة حالة القلب وضغط الدم ونسبة السكر والدهون والأملاح فيه، وما شاكل ذلك، من كل ما يساعد الإنسان على معرفة موقعه من (النموذج) المرسوم، وما يساعده على الاقتراب من ذلك النموذج. وهكذا فالعلم يوفر على نحو مستمر كل ما يحتاج الناس إليه في تحقيق (الرقابة الذاتية)[1] وكما تم من قبل بلورة (مقاييس للذكاء) فإن العمل جار على إنجاز مقاييس ثقافية، يستطيع كل واحد من خلالها أن يجري اختباراً لنفسه، كي يتمكن من تحديد الشريحة الثقافية التي ينتمي إليها؛ وبذلك يكتمل (النموذج) الذي تنبغي محاكاته.

٢- كثير من مشاغل العلم ينصبُّ اليوم على تحرير الإنسان من قيود البيئة التي يعيش فيها؛ حيث إن من أسباب قلق الإنسان وعنائه على مدار التاريخ شعوره بالضعف الشديد حيال أحوال المناخ والموارد، والبعد عن قلب العالم، وضيق المساحة، وما شاكل ذلك. وكان ذلك أكبر مصدر لتحجيم حركة الناس وتقدّمهم، وتعطيل إمكاناتهم .... لكن (العلم) بدأ يقلب الكثير الكثير من المعادلات في هذا الصدد؛ فقد غدا من الواضح أن ما توفره (المعرفة) من إمكانات التنظيم والاستثمار والإدارة والتسويق، والإنتاج الخدمي- أصبح أهم

(١) آفاق المستقبل تأليف (جاك آتالي): ١٣٦.

من الموارد والمعادن والمساحات الواسعة من الأرض. وتعطي دول مثل لبنان وسنغافورة وتايوان- ... نماذج حية على ذلك.. وصار من الشائع في أدبيات التنمية أن القيمة الحقيقية للموارد، لا تكمن في حجمها، وإنما في امتلاك القدرة على حسن إدارتها واستثمارها. ولعل الدولة الأكثر تحرراً من ضرورات البيئة والطبيعة الصعبة، هي اليابان، فضيق المساحة القابلة للسكن وجّه حركة التقدم العلمي نحو إنتاج الأشياء الصغيرة الحجم. ودفع الخوف من العزلة اليابانيين إلى تطوير وسائط اتصال، تمكن من نقل المعلومات والخدمات المالية بسرعة الضوء. ودفعتهم قلة مصادر الطاقة لديهم إلى ابتكار وسائل تقلل من الحاجة إلى الحركة، كالعمل المكتبي في المنازل، وكالتسوق عن طريق شبكات المعلومات. وتواتر الهزات الأرضية، دفعهم إلى تطوير أشياء خفيفة الوزن، سهلة النقل، قليلة التكلفة، سهلة التبديل[1]...وما زال العلم يفاجئنا كل يوم بالمخترعات التي تؤكد سيادة الإنسان على الأرض، وتزايد نفوذه في استغلال خيراتها.

٣- العلم اليوم لا ينمو، ولكن يثور، ومعطياته تتراكم طبقات بعضها فوق بعض، فالحقبة التي نعيش فيها الآن هي حقاً حقبة(ثورة المعلومات) فلا يكاد يعمم نموذج من الحاسبات حتى يطرح في الأسواق نموذج جديد أكثر فاعلية وأقل تكلفة. ويقدر بعض المهتمين بـ(المعلوماتية) أن الناتج الكلي لصناعة المعلومات في عام ألفين قد يصل إلى ألف بليون دولار؛ لتكون بذلك أول صناعة في العالم تحقق رقم التريليون دولار. وإن من العوامل الأساسية التي ساعدت العلم في ثورته هذه أنه ينفرد بميزة ليست لغيره، حيث يمكن

(١) السابق: ٩٠.

استخدام المعلومة الواحدة من قبل أعداد لا نهائية من البشر، مما جعل كثيرين جداً يساهمون في تطوير المعرفة على هذا النحو؛ على حين أن خطوط الإنتاج والأدوات المختلفة، لا يمكن استخدامها في أمكنه متعددة في آن واحد.

التواصل المعلوماتي ذو أبعاد هائلة، وكثير من آثاره الثقافية غير مرئي، ويمكن القول بثقة: إنه ما زال في بداياته. وقد أدى التقدم المذهل في المخترعات والمصنوعات إلى تحطيم كل الحواجز والأسوار التي كانت مفروضة بحكم العزلة الاجتماعية والجغرافية والثقافية. ولأول مرة في التاريخ يتحول العلم من مادة معرفية، يتم تناقلها إلى أداة هدم للخصوصيات الثقافية، وبناء لأفكارٍ وتقاليدٍ ونظم ذات صبغة غير محلية. وهذا أوجد تغييرات حضارية هائلة، تصبُّ في حساب الأمم الغالبة، فمن خلال التواصل الكوني صار بيد كل شخص في العالم مرآة، يرى فيها ذاته تارة، وذوات الآخرين تارة أخرى، وهذا نَمى (المقارنات) لدى الشعوب على نحو غير مسبوق، وسينتج ذلك الكثير من الوعي بالذات، والكثير من التشويش في الرؤية العامة.

ومع أن العلم يتشكّل في أصل طبيعته من استجاباتٍ لتحديات، فإن من وظائفه الجديدة أنه أوجد أمام الشعوب ما لا يُحصى من التّحديات والإشكالات التي تتطلب حلولاً عاجلة؛ فـ(الأتمتة) المبالغ فيها أوجدت نسباً عالية من البطالة في العالم كله؛ وأما الضعفاء والمنقسمون على أنفسهم، فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وهم - إن لم يتداركوا أمورهم - مهددون بالسحق بين مطرقة الذوبان في عالم الأقوياء، وسنديان التهميش الحضاري، والعيش على حواف العصر!

٤- من وظائف العلم الآخذة في التوسع والانتشار إضفاء سمة (الاقتصاد)

على الكثير من الأوضاع والأشياء. ومن الواضح أن معظم ما تم إنتاجه من آلات ومواد جديدة، أدى إلى أمرين مرغوبين: الأول زيادة (الإنتاجية) على نحو مذهل.

والثاني: الاختصار في الجهد العضلي في الماضي، واستهداف الاختصار في الجهد الذهني في الحاضر، وهذان الأمران آخذان في الشيوع باطراد. وهناك شواهد تفوت الحصر على هذه المسألة. ويذكر بعضُ الباحثين في هذا الشأن أن العقد الخامس من هذا القرن شهد للمرة الأولى في تاريخ البشرية زيادة عدد العاملين ذوي الياقات البيضاء، وأولئك الذين يعملون في قطاع الخدمات على عدد العمال ذوي الياقات الزرقاء- باعتبار ذلك رمزاً إلى تدني ما يبذل من جهد عضلي- في مقابل الذين يشتغلون بالقضايا البحثية والإدارية. الذين يشتغلون بالزراعة اليوم في أمريكا أقل من ٢٪ من السكان وبسبب استخدام التطبيقات العلمية في الزراعة فإن هذه النسبة كافية لتوفير الطعام لـ ٩٨ ٪ من سكان أمريكا إضافة ما لم يتم تصديره. وهناك إلى جانب هذه الصور دول كثيرة يشتغل معظم سكانها في الزراعة، وهي في حالة سيئة غذائياً!

إن البحوث الكيميائية والفيزيائية الكثيرة، كشفت النقاب عن الكثير من خصائص المواد المختلفة، مما جعل الأسواق تعج بأكثر من ثلاثة ملايين صنف من المصنوعات، من خلال عمليات استخلاص ومزج لعناصر (الأرض) التي لا تزيد على المئة إلا قليلاً. وقد أمكن من خلال (المواد الجديدة) إيجاد مصنوعات أصغر حجماً وأقل وزنا، كما أمكن إيجاد بدائل محلية كثيرة لأشياء كانت تشحن من أقاصي الأرض، مما وفّر في عمليات التخزين والنقل. ولم

تقتصر معرفة خصائص المواد على ما ذكرناه، وإنما تجاوزته إلى توفير إمكانات واسعة لـ(تدوير) المصنوعات بعد تحويلها إلى مواد خام، وزجها بعد ذلك في دورة صناعية جديدة مما يقلل من استهلاك المعادن الأساسية، ويقلل من الفضلات الصناعية. وأود قبل أن أنهي هذا المقال أن أدلي بملاحظتين:

الأولى: أن أمتنا بحاجة إلى أن تحسّن موقعها في ركب المعارف المتقدمة والبحوث العلمية الرائدة، لأن ذلك قد يمثل أفضل فرصة للدول التي لا تملك رؤوس أموال كبيرة، كما أنه قد يكون المفتاح الذي يفتح مغاليق (التخلف) الذي يعاني منه معظم الشعوب الإسلامية.

الثانية: أن العلم مهما ارتقى فإنه لا يستطيع أكثر من أن يساعدنا على أن نختار، لكن عملية الاختيار نفسها هي من شأننا نحن. العلم يكشف عن مبادئ جزئية، ويوجد آليات، وينظم أُطراً محدودةً للتقدم وإعمار الأرض، لكنه غير قادر على تحديد الاتجاه العام في الحياة، كما أنه غير قادر على تحديد الغايات الكبرى للوجود. إنه يقدم إجابات على (كيف) أما المنهج الرباني الأرشد فإنه يقدم إجابات على (لماذا) وإذا وهي استرشاد البشرية ببصائر (الوحي) فإن العلم يمكن أن يكون عامل تدهور وفناء للبشرية. وإذا أخذنا بهاتين الملاحظتين، فإنه سيكون بالإمكان أن نستضيء بنور العلم دون أن نحترق بناره.

٤ نحو توازن جديد

بين الحث والاستجابة يبرز الاختيار، ويتجسَّد الوعي. والمتغيرات الهائلة التي يشهدها عصرنا، تحثنا على التحرك في اتجاهات شتى، وتتطلب استجابات متواصلة، قد تخلُّ بالكثير من التوازنات النفسية والاجتماعية السائدة. إن حاجات الإنسان الفطرية كثيرة، ولا بد لمن يريد أن يعيش حياة طيبة هانئة من تلبيتها وإشباعها. وقد كان ذلك يتم في الماضي على نحو سلس، حيث كان الناس يصنعون بيئاتهم المحلية بصورة شبه تامة. أما اليوم فإن تشكيل الحياة الشخصية والاجتماعية، أضحى خاضعاً لما لا يُحصى من الوافدات والمؤثرات الأجنبية المتنوعة. وتلك الوافدات، ليست عبارة عن فوائض ثقافية وإنتاجية تعبر القارات بصورة عفوية، بمقدار كونها أدوات لدمج الأفراد والشعوب في أنساق النظام الرأسمالي الغربي بصورة قسرية وخفية، كما أنها أدوات لإدارة الغرائز البشرية، وتوجيهها بشكل منهجي ومبرمج لصالح النظام الاستهلاكي للسوق. وفي ظل سطوة وسائل الدعاية والإعلام صار الإنسان يبدو وكأنه ذو بُعد واحد، هو بُعد الإنسان (المنتج – المستهلك) وهذه الوضعية أخذت تعرِّض المخزون الثقافي المركَّب للتآكل الداخلي، مما يهدد بنسف ما تبقى من معاني الضبط والتوازن والاعتدال، والتي تشكل قوام التماسك الحضاري.

إن الدفق الثقافي الهائل الذي يجتاح العالم الإسلامي اليوم، ليس هو الدافع الوحيد للبحث عن توازنات جديدة، فهناك إلى جانبه عوامل أخرى عديدة، تحفِّزنا على ذلك، منها أن الأفكار السائدة، لا تكون دائماً صحيحة، كما أن الواقع

المعيشي ليس انعكاساً مطابقاً لقيم الأمة ومبادئها، فهناك دائماً مسافات فاصلة بينهما؛ مما يستدعي التصحيح الدائم؛ كما أن (تطاول الأمد) يوهن الحساسيات والترميزات الداخلية للثقافة، فلا تتنبَّه للوافد الأجنبي، ولا سيما حين يغزوها من خلال سلسلة من التغييرات البطيئة والصغيرة، فيتحول المثير إلى مخدِّر، فلا تستنفر أنساقها للمقاومة، وهذا ما نشاهده اليوم على غير صعيد!

إن قدرتنا على إقامة توازنات جديدة، تعني أننا قادرون على تجاوز الخطوط والدوافع الغريزية، وتجاوز جمود الحتميات الجينية التي تحصر التصرفات المبرمجة في حدود ضيقة؛ كما يعني أننا قادرون على الربط بين الآلام والعذابات التي نعاني منها وبين مصادرها وأسبابها.

إن (التقدم) مصطلح محايد، لا يملك أي مدلول أخلاقي، ومن ثمّ فإن علينا أن نكون قادرين على أن نخطو - في بعض الأحيان- خطوة إلى الوراء في سبيل استعادة أخلاق وسلوكات فقدناها في غمرة التحديث والتطوير والاستجابة لدواعي المعاصرة. إن الحكمة تقتضي منا أن نبدي- في بعض المجالات- نوعاً من السلبية والممانعة هرباً من تداعيات غير ملائمة. وهذا ما تفعله بعض بذور الأشجار، فهي عندما تعجز عن الهروب في الفضاء تبتدع (استراتيجية) تتيح لها التحرر من قيود البيئة بـ(التشرنق) في وسط محمي، والإبقاء على المبادلات الخارجية عند أدنى حد ممكن، وهي تتمكن بذلك أن تنتظر قروناً إلى أن تحين ظروف مواتية للإنبات.

إن ما نحتاج فيه إلى استعادة موازنات سابقة، أو استحداث موازنات جديدة- يشمل جوانب عديدة في حياتنا، لعل منها:

١- حركة الإنتاج الهائلة، نقلت مركز السيطرة من الإنسان إلى الأشياء،

فنحن اليوم محاطون بكم هائل من الأشياء والأدوات، ومع أننا نحن الذين نقتنيها، ونرتق بها، إلا أننا في النهاية نصبح مستعبدين لها، ونشعر بنوع من العوز عند فقدها. ولا يقتصر الأمر على ذلك، فالأشياء المستوردة ليست محايدة- كما قد يتوهم- فهي لا تفتأ أن توجد في ثقافتنا مجالها الفكري والروحي الخاص، والذي يدخل في صراع مع الرموز الروحية والنفسية الأصلية في ثقافتنا وشخصيتنا الاجتماعية، وقد كان بعض سلفنا على وعي بهذا، ولذا قالوا: ((استغناؤك عن الشيء خير من اسغتنائك به)). فهل عقلنا عنهم ذلك؟

٢- لكل مجتمع عقيدتان: عقيدة نظرية وعقيدة اجتماعية. العقيدة النظرية تتمثل في مجموعة القيم والمبادئ التي يرى مجتمع ما ضرورة تجسيدها في الواقع.

أما العقيدة الاجتماعية فهي ترجمة لجماع مبادئ المجتمع ومصالحه، ومركز التوازن بينهما.

الناس يندفعون صوب العقيدة الاجتماعية، كما يندفع الماء في المنحدر. وفي ظل الظروف الصعبة، وعندما ينتشر الفساد والانحراف في المجتمع، تترسخ قناعات متزايدة لدى الناس بصعوبة الجمع بين مبادئهم ومصالحهم، ويجدون ضغوطات وإغراءات كثيرة بالانحيازِ إلى الأخيرة، فحين ينتشر (الكذب) مثلاً يشعر الصادق بأن صدقه أضحى عقوبة له؛ وقليل أولئك الذين يتحملون الإضرار بمصالحهم إلى ما لا نهاية ! تحقيق الناس لمصالحهم على غير هدي مبادئهم، لا يتم من غير انحطاط أخلاقهم، ولذا فإن من واجب المؤسسات التربوية والوسائل الإعلامية تسليط الضوء على المسافات الفاصلة بين العقيدة النظرية والعقيدة الاجتماعية في حياة الناس إلى جانب مساعدتهم على إعادة تنظيم خبراتهم الفكرية والشعورية في هذه القضية الهامة. وتلك المسافة الفاصلة

بين العقيدتين هي المسافة الحقيقية التي علينا أن نتجاوزها، لأنها هي المسافة بين الصحة والمرض.

٣- الإحساس بالسعادة والشعور بالرضا، ركنان أساسيان من أركان (الحياة الطيبة). الإحساس بالسعادة مطلق، وينبع من الداخل. وهو غير الشعور باللذة أو النشوة الذي ينطبع دائماً بطابع العابر والمؤقت. يشعر المرء بأنه سعيد على مقدار ما يستطيع من ردم الفجوة بين سلوكه ومعتقداته، وعلى مقدار تقارب طموحاته وإنجازاته...

أما الشعور بالرضا فإنه نسبي، وهو أحد المنتجات الاجتماعية. ويتولد لدى المرء من خلال مقارنة نفسه مع الآخرين. وهو لا يلامس الأعماق، بمقدار ما يعكس الكفاءة الاجتماعية للشخص، وكونه (لائقاً) في نظر نفسه ونظر الآخرين. ونشعر اليوم أن هناك نمواً متزايداً للحرص على الشعور بالرضا، على حساب الاهتمام بالحصول على الشعور بالسعادة. مع أنها هي الأصل والأساس في الحياة الهانئة. وهذا الاندفاع الذي لم يسبق له نظير نحو اللهو والسفر والسياحة وارتياد المطاعم والحرص على المظاهر والشكليات... ما هو إلا تعبير عن هذه الحالة، حيث تتضاءل (الذاتية) ويفرُّ الناس من مواجهة أنفسهم للبحث عن سعادة موهومة، حين يطلبونها في غير مظانها!

هذه الحالة، يمكن أن تدوم طويلاً، كما يمكن أن تتطور إلى ما هو أسوأ، ما لم نسلط عليها أشعة النقد، وندخلها في منطقة الوعي. إن استعادة التوازن في هذا تتم عن طريق تشجيع الطلاقة والتدفق الداخلي، وعن طريق المزيد من التعبد، والشعور بالتألق من خلال الأنشطة الطوعية والمشاركة في إنتاج الفائض الاجتماعي.

٤- الثورة المعلوماتية المتنامية، حجمت مشكلة (المسافات) حين وفرت وسائل نقل المعلومات وحفظها واسترجاعها على نحو مدهش، مما سيكون له أكبر الأثر في التشكيل الثقافي العالمي في القرن القادم. لكن قدرات الناس على التعامل مع المعلومات واستثمارها، لم تتقدم على النحو المكافئ. العقل من غير المعلومات يطرح فروضاً شكلية، ويقدم حلولاً وهمية، لكن علينا أن لا ننسى أن غزارة المعلومات حول قضية ما قد تعوق عمل العقل، وتجعل استخدامه لنماذجه ومحكّاته الخاصة عسيراً؛ حيث إن المعلومات كثيراً ما تتوزع على نماذج ومساقات متعارضة ومتقاطعة. نحن لا ننكر أن الطبيعة التسلسلية لتنظيم المعلومات، قد عززت التفكير الخطي المنطقي لدى الكثير من الناس، لكن ذلك محدود الأثر في تعزيز القدرة على معالجة المسائل المعقدة والكبرى، والتي تحتاج إلى النموّ في التفكير الجدلي والشمولي.

وأعتقد أن عالمنا المعرفي بحاجة اليوم إلى منهجيات جديدة للتعامل مع المعلومات الوفيرة المتدفقة، منهجيات تنميّ لدينا الوعي بترابطات المعلومات وتداعياتها وأساليب التوليد منها، ومدلولاتها الأخلاقية والاجتماعية الجديدة، إلى جانب تدريبنا على دمج حقائق الماضي ونظمه في الحقائق والنظم الجديدة. وبذلك وحده نستطيع أن نملك ناصية المعرفة، وأن نتجاوزها بدل أن نقع أسرى لها؛ فما يرد إلينا من معلومات، ليس مبرّأ من الخطأ دائماً، ولا من المقاصد السيئة والأغراض التجارية...

إن علم العلوم هو العلم الذي يساعدنا على معالجة كل العلوم، ويحسّن وعينا في التعامل معها.

شرط التجديد ٥

فطر الله -جل وعلا- العقل البشري على العمل ضمن مساراتٍ محددةٍ، وإذا تجاوز تلك المسارات، حطّم منطقيته، ولم يجد أخرى تسعفه في الاستمرار في ذلك التجاوز. وهو لا يستطيع أن يعمل إلا ضمن أنماط معينة، يستفيدها من كسبه الثقافي والمعرفي، ومع مرور الأيام يميل العقل إلى التطابق مع الأنماط السائدة، والخضوع لها، ويصبح إنتاجه عبارة عن تدعيم للواقع الموجود وإثرائه عوضاً عن تفكيكه وتغييره.

ليس من السهل على العقل أن يخرج على كل الأنماط السائدة، لكن بإمكانه أن يبتعد عن بعض الأنماط اتكاءً على أنماط أخرى. وعلى كل حال فإن (التجديد) ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحتميات الطبيعة، وإطلاقات التاريخ وسلطان الشائعات. وإن الشرط الأول لكسر رتابة النمطية، هو أن نعرّض عقولنا للتنوع المعرفي، فنحكم (علم الأسس) وندقق النظر في الأصول، ونمتلك إلى جانب ذلك القدرة على الغوص في الفرعيات لكن مع الاحتفاظ بالقدرة على العودة إلى الأسس مرة أخرى، حتى لا نضيع في الفروع، وحتى لا تنقلب الفروع إلى أصول، أو تتولد لدينا فروع من غير أصول.

إن كل التجديدات الكبرى لدى جميع الأمم كانت تخرج عن التفكير النمطي المألوف، كما كانت تنطلق من فلسفة جديدة للأسس والأفكار الكبرى، إنها في جوهرها طريقة النظر إلى المعلومات المتوفرة أكثر من أن تكون اكتساب معارف جديدة.

إن التنوع المعرفي يتيح لنا مجال المقارنة، وإدراك الخصائص العامة، والقواسم المشتركة بين جوانب الحياة المختلفة، وهذا كله يتيح للعقل البشري إمكانات جيدة لتأسيس أنماط جديدة، مما يعني دفع عجلة الحياة إلى الأمام، وقد أظهرت إحدى الدراسات حول بعض المبدعين أنهم يميلون إلى أن يقرؤوا أكثر من خمسين كتاباً في السنة[1]. وهذا يعني أن استمرارهم في القراءة على علاقة بتفوقهم ونبوغهم.

إن مثاقفة التساؤل شرط ثان لإطلاق طاقات التجديد الإبداعية فالاستسلام للمألوف مصدر عظيم للتكرار، وخمود نار الفكر، ولا مخرج من ذلك إلا بمحاولة العثور على أجوبة جديدة، وتعليلات حديثة لكثير من الظواهر التي نتعامل معها.

إن بعض الدراسات يذهب إلى أنه لم يُستثمر من العقل البشري إلا نحو ١٥٪، وإن الاستفادة من باقي إمكاناته الكامنة تحتاج إلى شروط تربوية وثقافية واجتماعية، لا بد من توفيرها، وإلا فما أسهل أن ينصاع العقل لأمر العادة والإلف، ويركن إلى التطابق مع ما هو سائد.

إن فائدة (التجديد) لا تكمن في تسهيل الحياة وإثرائها فحسب، وإنما في كونه أعظم مصدر للتنوع وتحقيق الذات والتميز والشعور بالإنجاز؛ على حين أن (الاستهلاك) يجعل الناس بعضهم أشبه ببعض، وذاك مصدر مهم من مصادر التحلل والسآمة والضجر.

(١) العبقرية والإبداع والقيادة:١٢٢

٦ العقل والثقافة

زوّد الخالق - جل وعلا- بني الإنسان بطاقات ذهنية فطرية هائلة، مهمتها الإدراك والتحليل والتركيب والتقويم والاستفادة من الخبرات المختلفة. وهذه الإمكانات قد تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً ما، لكنها على مستوى الشعوب متقاربة، وموزعة توزيعاً متساوياً. الخبرات والمعارف التي يكتسبها المرء من الحياة تعد بمثابة (الحَبّ) الذي يوضع في (الطاحون). والطاحون هي الإمكانات الذهنية. وقد حلا لبعضهم أن يسمى المكتسبات الثقافية بـ(العقل الثاني) وهي تسمية موفّقة؛ إذ ما الذي يمكن أن تصنعه طاحون لا تجد شيئاً تطحنه؟!

العقل الأول من غير خبرات ومعارف يؤهّل صاحبه لأن يعيش حياة أولية، لا تختلف كثيراً عن الحياة التي تؤمّنها الغرائز لدى الحيوان.

مع تقدم المعرفة وتعقّد ظروف العيش، واحتياج كثير من الأعمال إلى تعاون فريق متكامل أكثر من حاجتها إلى الفرد المبدع- صرنا نشعر بتراجع أهمية الذكاء الفطري، وتعاظم قيمة المعرفة والخبرة والتدريب. لو جئنا بشخص يمتلك قدرات عقلية استثنائية، ولا يمتلكها- في العادة- إلا واحد في الألف من الناس، لكنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فسنجد أن فائدته من نعمة التفوق العقلي ضيئلة للغاية، وقد لا يكون أهلاً في بعض الدول ليعمل راعي غنم- على الطريقة الحديثة- وفي المقابل فإن شخصاً عاديّ الذكاء يستطيع أن ينتج الأفكار

الراقية، ويتعامل مع أدق معطيات التقنية، إذا ما توفر له المعرفة والتدريب على النحو المطلوب.

إن الإبداع ليس ومضة اكتشاف أو لمعة ذهنية مبهرة، وإنما هو القدرة على متابعة البحث والتفكير والعمل في موضوع واحد مدة طويلة. ولا يعني هذا التقليل من قيمة الومضات الذهنية، ولا الإمكانات العقلية المتفوقة، وإنما المقصود أن نفتح أبواب الأمل والطموح أمام السواد الأعظم من الناس لنؤكد أن بإمكان كل واحد منهم أن يقدم لهذه الأمة ولهذا الدين، وللأجيال القادمة أشياء كثيرة، هي بأمس الحاجة إليها.

إن كل ثقافة حتى تكون عامل إبداع ووقود ارتقاء وتقدُّم تحتاج إلى نوع من المراقبة والمراجعة والتمحيص على نحو مستمر، وإلا فمن الممكن أن تتحول إلى أغلال تكبِّل العقل، وتمده بالمدخلات الخاطئة، وتكون بمثابة (قمح) غزاه السوس، فكل ما يُصنع من طحينه فاسد!

إن المنهج الرباني الذي أكرمنا الله به، يشكل إطاراً تتفاعل فيه ثقافة الأمة، وإن من عادة الناس أن يحولوه إلى جزء من ثقافتهم وتقاليدهم، فيفقد بذلك هيمنته على الثقافة، وعلى الحياة، مما يؤدي إلى تمزيق النسيج الداخلي، وتفكيك البنية العميقة لرؤيتنا العامة للحياة والأحياء.

إن المرحلة الراهنة من حياة الأمم تشهد تزاحماً، وصراعاً على كل شيء، وإن (التفوق) هو شرط الفوز في ميادين الغلبة الحضارية، وهو لا يولد إلا من خلال تفاعل نشط بين العقل والثقافة، مع القدرة المستمرة على فحص المقولات الثقافية وتقويم الأحكام العقلية في ضوء المنهج الرباني والخبرة الإنسانية العريضة.

مقدمات الحكم ٧

إن القوانين التي تحكم العلاقات البشرية، ما زالت مكتنفة بالغموض، وما زالت مطبوعة بطابع الاحتمالية. ويبدو أن الطريق أمام نضوج علوم الاقتصاد والنفس والاجتماع والسياسة- ما زال طويلاً جداً. مما ينبغي أن يكون واضحاً أن الآراء والأحكام التي نصدرها حول المسائل والموضوعات الكبرى، تستند دائماً إلى عمليات ذهنية وإحالات معرفية متعددة. وإن صلابة أحكامنا ودقتها، لا يمكن أن تكون أرقى من مجموع المقدمات التي تستند إليها؛ ومن ثم فإن من الواجب ألا نعطي وزناً لخططنا ومشروعاتنا- مهما كانت- لا تتحمله النظريات والفَرَضيات والمعلومات التي بنيناها عليها؛ فدراسات الجدوى للمشروعات الصناعية- مثلاً- ستظل ظنية، وتنطوي على نوع من المخاطرة، لأنها تعتمد على عدد كبير من المعطيات المتعلقة بموقع المشروع والمواد الأولية وأجور العمالة، وإمكانات التسوق، وحجم المنافسة، وأمور أخرى من هذا القبيل... والمعلومات المتعلقة بكل هذه الجوانب معلومات ظنية تقريبية، ولذا فمؤشرات أية دراسة ستكون كذلك، ولا عيب في هذا وإنما العيب في بناء آمال وطموحات مؤكَّدة على معطيات ومقدمات غير مؤكدة. ويقال مثل هذا عن الخطط الدراسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

ومن وجه آخر دقة الإجابة على أي سؤال، سوف تتحدد من خلال إمكان إخضاع المقدمات والأسس التي بنيت عليها الإجابة للتجربة. فالآراء والأفكار

التي لا يمكن التجريب بشأنها، ستظل ظنية، لأنها آنذاك ستخضع لاعتبارات إنسانية وتقديرية وثقافية... وهذه كلها تختلف بين الناس اختلافاً عظيماً، ما دام قائلها لاحظ له في العصمة. نحن لا نستطيع أن نمسك عن القول، وعن التفكير والتخطيط، إلى أن تتوفر لدينا مقدمات يقينية، ولو أحببنا أن نفعل ذلك لتعطلت حركة الحياة، ولكن بإمكاننا أن نتفحص الأسس والمعطيات التي بنيت عليها الآراء والأفكار، وإذا امتلكنا الكفاءة الذهنية والخبرة الجيدة فإننا سنحجِّم الكثير مما تعوّد الناس إطلاقه من الألفاظ الفضفاضة، وعبارات المبالغة، والأقيسة الخاطئة. ولو أننا طالبنا كل صاحب رأي بشرح المقدمات التي بنى عليها رأيه، لا ستطعنا أن نوفر على أنفسنا الكثير من خيبة الأمل التي تجتاحنا عندما نصغي لكل رأي، ونجاري القائل به على ما يهوى. إن علم (أصول الفقه) ما زال علم نخبة وصفوة، ويجب أن يُبسَّط ويُقرَّب ليصبح علماً شعبياً لأنه يشرح للناس كيف يتجنبون استيلاد أحكام قطعية من مقدمات ظنية، كما يمكنه أن ينمي لدينا حاسة وزن الآراء، بشرط أن نملك الشفافية الكافية للغوص على فلسفته العميقة. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٨ الانشداد إلى الأصول

نحن - بحمد الله- الأمة الوحيدة التي حفظ الله - تعالى- لها اتجاهها العام وأصولها الكبرى، بما أذن به من خلود الرسالة، لكن تقلب الأيام والليالي وبُعْد العهد، وطول الأمد، وطروء الحوادث، وامتزاج الثقافات... كل ذلك يؤدي إلى نوع من الغبش في الرؤية، واختلاط العادات والتقاليد بالعبادات، وضعف الإحساس بالهدف.

وكأن من تمام الابتلاء أن تظل الأمة تجاهد من أجل البقاء ضمن المسار الصحيح، وذلك الجهاد ينبغي أن يقوم على سلسلة من الانتفاضات الفكرية والنفسية والمنهجية المستمرة. وقد حصل ذلك في بعض الفترات لكنه لم يكن كافياً، ولا شاملاً للعالم الإسلامي كله.

إن الانتفاضات المطلوبة، ينبغي أن تقوم على ركيزتين أساسيتين:

الأولى هي الانشداد إلى الأصول والالتزام بها في المنشط والمكره، ولو كان ذلك على حساب مصالحنا؛ فإن التمسك بالأصول وإن ظهر أنه غير موات في الأمد القريب، فإنه يمثل طوق النجاة على المدى البعيد.

ولا يعنى هذا- بالطبع- الدعوة إلى الجمود، وعدم قدح زناد الفكر في فهم أفضل للنصوص، وتحسس أعظم لروح الشريعة ومقاصدها، ولكنه يعني الالتزام الصارم بالقطعيات، وعدم الخروج على ما أدى إليه اجتهادنا في الظنيات والخلافيات.

إن العالم اليوم يقع تحت ضغط هائل من نظم (التجارة) وأخلاقها وأدبياتها ومقتضياتها، وهي نظم - بطبعها- غلابة، والمسلمون جزء من هذا العالم؛ وقد ظهرت في حياتنا علل وأمراض كثيرة متصلة بتغير بعض الوسائل، وانقلابها إلى غايات على نحو ما حدث في موقف المسلم من (المال) حيث جعله الله- جل وعلا- وسيلة لقضاء الحاجات وعوناً على توفير الأجواء المساعدة على القيام بأمر الله. أما اليوم فقد صار اقتناء المزيد من المال هدفاً في حد ذاته، وقد أشاع ذلك مفاهيم وأخلاقاً مادية وسلوكات منحرفة، هي في منتهى السوء، وما ذلك إلا لأن التمسك لدينا بالمبادئ والأصول صار ضعيفاً، فانجرفنا في تيارات دنيوية، لا صلة لها بفلسفتنا ورؤيتنا العامة للحياة!

الركيزة الثانية، هي التحام سلوكاتنا وخططنا ومشروعاتنا بالأهداف الكبرى لوجودنا، من نحو السعي إلى رضوان الله - تعالى- وتبليغ الرسالة، ونصب رايات الحق والعدل والإحسان في ربوع بلاد المسلمين، مع تهيئة كل الظروف والوسائل التي تمكّن الفرد المسلم من القيام بكل ذلك.

إن المشكلة التي أُحسُّ بها في هذا الصدد أن حالة الوهن الحضاري التي نعيش فيها، تجعل إدراكنا لأهدافنا يتم بطريقة مبتذلة أو رتيبة، كما أن تراكم الضروريات فوق رؤوس الناس جعلهم ينشغلون بتحقيق إنجازات صغيرة لا ترتبط- في أكثر الأمر- بالأهداف الكبرى التي على المسلم أن يعيش من أجلها.

وعلى كل حال فإن الناس بحاجة إلى تثقيف دائم وتوعية مركزة بالأهداف والأصول الكبرى، من أجل التجاوز للمشاغل والنتف الثقافية التي تشغلهم عن ضبط إيقاع حياتهم بها.

٩ السيطرة على الانفعالات

المواقف والأشياء والتصرفات والصور والذكريات... التي تحرك انفعالاتنا لا تكاد تحصى، ولا تكاد تنقطع في حال اليقظة. والانفعالات منها ما هو إيجابي، مثل الحب والإعجاب والاحترام والاهتمام بالفضائل... ومنها ما هو سلبي، مثل الخوف والبغض والغضب والرغبة في الانتقام... وقد أوجد البارئ -جل وعلا- هذه الانفعالات في النفس البشرية من أجل حمايتها وتوازنها، وبعث الحيوية فيها، فدورها الأساسي إيجابي، لكن إذا تجاوز أي منها حدود (السَّواء) فإنه يتحول إلى عامل سلبي، قد يهدم الشخصية كلها. وهناك ما يشبه الاتفاق على أنه لا ينبغي إصدار أحكام أخلاقية على الانفعالات، حيث إن الإحساس بها مثل الإحساس بالبرد أو الخمول، لكن الذي يتوجه إليه الحكم الأخلاقي، هو (السلوك) أو التعبير عن تلك الأحاسيس والمشاعر.

إن اعتقاد المسلم بأن كل ما يصيبه من مصائب ومكدِّرات بقضاء الله وقدره، واعتقاده بأن ما يدركه من خير ونجاح، ما هو إلا شيء مؤقت وزائل، وأن المصائب يجب أن تقابل بالصبر، والنعم بالشكر، إن كل ذلك يمنح شخصيته درجة عالية من التماسك والتوازن، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، حيث قال الله تعالى-: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[1]. التخلق بأخلاق القرآن يجعل ما بداخل الإنسان أعلى وأقوى من طوارئ الأحداث وانعكاساتها الشعورية المختلفة.

مشكلة الانفعالات أنها حين تتجاوز الحدود الطبيعية، تسبب للمرء عدداً من المشكلات، منها: أن الميل الشديد إلى أمر من الأمور- كالنفور الشديد منه- يشوّش رؤيتنا للخيارات المتعلقة به، والظروف المحيطة به، والمآلات التي قد يفضي إليها؛ وبالتالي القرار الذي علينا أن نتخذه حياله؛ إذ من النادر أن نتمكن من إصدار أحكام عقلية منطقية وموزونة في حالة طغيان الانفعال الإيجابي أو السلبي، فالانحياز آنذاك هو سيد الموقف:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

وإلى جانب هذا فإن الانفعالات القوية، تفسد كثيراً من العلاقات بين الناس، ففي حالة الحب أو الخوف الشديد، يشعر الطرف الآخر بعدم التكافؤ. وفي حالة الغضب، يشعر بأن علاقته مع شخص أحمق كانت غلطاً....

والانفعالات الشديدة - بعد هذا وذاك- أقوى معول يمكن أن يهدم (الإرادة) ويشوّه تجلياتها في السلوك؛ مما يوجب على الواحد منا أن يتعلم بعض الطرق التي تمكّنه من التعامل الجيد مع انفعالاته.

كيف نسيطر على الانفعالات؟

إننا حين نحاول السيطرة على انفعالاتنا، نكون قد شرعنا في استعادة التوازن بين العقلانية والعواطف. ومعنى هذا أن السيطرة على العواطف، لا

(١) سورة الحديد: ٢٢ ٢٣

تعني كبتها، والتخلص منها، وإنما إيقافها عند حدود معينة، بحيث لا تؤثر على المحاكمة العقلية، والموقف العقلاني للشخص. ولعل مما يساعدنا على السيطرة على الانفعال ما يلي:

١-أول خطوة على طريق السيطرة على الانفعال، تتمثل في الاعتراف به، وإدخاله في منطقة الوعي، إذ إننا كثيراً ما نكون غافلين عن انفعالاتنا، وانفعالات غيرنا، فالخوف والإحباط والغضب الشديد، والحب الشديد... يمكن لكل واحد منها أن يلمّ بنا في أي وقت، ويبدأ في التأثير في سلوكنا دون إدراكٍ منا لما يحدث وربما شاهد جليسي علامات الغضب أو الميل المبالغ فيه على حركاتي وأقوالي وأنا غافل عنها تماماً. حين أمتدح كلَّ شيء في حياة شخص، وأحاول أن أدافع عن جميع تصرفاته، وحين أحاول تفسير سلوكاته تفسيراً يخالفني فيه كلّ من حولي فإن كل ذلك دليل على أن ميلي إليه قد خرج عن حد المألوف وبات عليَّ أن أعيد الأمر إلى نصابه. وفي المقابل فإني أشعر في موقف من المواقف بتقلصات في معدتي، أو أجد أن راحتي نديتان، أو أن عضلات فكي منقبضة، أو قمت بتجميع قبضتي، أو بت أقبض على الأشياء، بإحكام، أو أرفع صوتي، وأتوسع في مقاطعة محدِّثي.. فهذا دليل واضح على أن انفعال الغضب، قد تملكني وصار من الضروري عمل أي شيء للحد منه.

٢-لنحاول في حالة طغيان نوع من الانفعال تذكر الصور والمواقف والخصائص المضادة للحالة التي نحن فيها؛ ففي حالة الانزعاج من مصيبة حلَّت بأحدنا، فإن عليه أن يتذكر مقدار ما متعه الله - تعالى- به من السلامة والعافية والسرور في الأيام الماضية، وأن يتذكر أيضاً الأشياء التي بقيت له بعدها. كما أن عليه أن يتذكر المثوبة التي تنتظر الصابرين المحتسبين، والعواقب الحسنة التي

يمكن أن تنتج عنها. وفي حالة الحب الشديد يتذكر المرء سلبيات من يميل إليه، ويكيل له المدائح. وحين تسيطر على المرء مشاعر الإحباط واليأس والإخفاق، فعليه أن يتذكر الأحداث السارة في حياته، والنجاحات التي حققها، وأن يقارن نفسه بما دونه حتى يستشعر الخير الذي هو فيه. في حالة الحقد الشديد على شيء، أو التقزز منه، والاستخفاف به، فإن علينا أن نذكر ما عسى أن يكون له من ميزات وخصائص مشرقة وفضائل؛ وذلك حتى نوجد مشاعر جديدة، تخفف من حدة المشاعر السلبية. ويذكرون في هذا السياق أن عيسى - عليه السلام- مرَّ مع نفر من أصحابه على شاة ميتة، فجعلوا يتحدثون عن قبح منظرها ونتن رائحتها... فقال لهم : لم يذكر أحدكم أن أسنانها شديدة البياض! حين نبحث عن منظورجديد للأشياء فإننا سنؤثر في انفعالاتنا على نحوٍ ما.

٣- سيكون من المفيد - مع بعض أنواع الانفعال - أن نحاول الخروج من فلك الانفعال بتغيير الوضعية، والحيلولة دون انعكاسه على السلوك. في حالة الغضب الشديد- مثلاً- يُطلب من الغضبان أن يصير إلى وضعية تحول بينه وبين الانتقام، وقد ورد في الحديث الشريف :"إذا غضب أحدكم وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع"[١].ومن تغيير الوضعية أيضاً اللجوء إلى السكوت باعتباره نوعاً من إيقاف الغضب عند حدِّه، وفي الحديث :" إذا غضب أحدكم فليسكت"[٢] ، قالها ثلاثاً. كما أن الوضوء والغسل، مما ينصح بهما في حالة الغضب، وقد ورد في الحديث: " إذا غضب أحدكم فليتوضأ "[٣] . ويمكن للغضبان أن يغادر المكان أو يغير مجرى الحديث

(١) أخرجه أحمد وأبو داوود
(٢) أخرجه أحمد
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود

الذي أثار غضبه وهكذا...

٤- المعالجة العقلية ذات أثرٍ جيد في السيطرة على الانفعالات، فبعض ردود أفعالنا الانفعالية، ليس غريزياً، ولكنه عادات أخذناها عن أسرنا وبيئتنا، حيث تعلّم الكثيرون منا - عندما كانوا أطفالاً - أن الثورات الانفعالية، توجه الأنظار إليهم، أو أنها أسلوب مفهوم ومقبول للتعبير عن الغضب وخيبة الأمل. ولعلهم يحملون معهم إلى سنّ الرشد الاعتقاد الضمني بأنهم يحصلون على ما يريدون إذا كانوا حادي المزاج، يصرخون، ويضربون الأرض بأرجلهم... ويعتقد كثيرون أيضاً أن رفع الصوت، والظهور بمظهر المستعطف، سيجعلهم يربحون قضيتهم مع خصومهم؛ وكأن الانفعالات الحادة، صارت وسيلة ابتزاز وقهر للحصول على أشياء غير مشروعة، لكن هؤلاء ينسون أن الاتكال على هذا الأسلوب، يجعل صاحبه، يظهر بمظهر الضعيف والأحمق الذي لا ينبغي أن يُلتفت إليه، كما أنه على المدى البعيد، يفقد قيمته في تغيير آراء الآخرين، وكسب عواطفهم. وقد يتسبب هذا الأسلوب تحقيق بعض المكاسب الآنية، لكن الاستمرار فيه، يترك انطباعات سيئة، لا تخدم مصالح صاحبه. وعلى المجتمع أن يساعد هذه الفئة التي تصطنع الانفعال بحرمانها من قطف ما ترنو إليه من ثمار، وتجاهل انفعالاتها بغية الحد منها.

٥- لنشاور غيرنا في الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه الأمر الذي سبب لنا انفعالاً حاداً إيجابياً كان أم سلبياً، فالكثير من الخطأ في هذه الحالة، يكمن في التصرف المنفرد. وإذا تعود الإنسان أن يشاور غيره، فإنه يربح من غير وجه: فهو قد نجح في تأخير اتخاذ قرار في حالة انفعالية،مما يعني تأخير المواجهة، ومنح النفس فرصة جديدة؛ ثم إن المشاورة تجعلنا نرى الأشياء من زاوية جديدة؛

وذلك يجعل مواقفنا وقراراتنا أكثر حكمة واتزاناً. واعتبار المشاورة بعد هذا وذاك، يعني أننا نعطي الأمور الصعبة ما تستحقه من الوقت والاهتمام، وفي ذلك خير كثير.

٦-عصرنا عصر الضغوط والمطالب المتزايدة، والجملة العصبية لدى كل واحد منا، لها في النهاية طاقة محدودة على التحمل، ولذا فإن المتوقع أن ترتفع وتيرة الانفعالات السلبية لدى معظم الناس، وهذا يفرض علينا أن نتعلم كيف نخفف عن أنفسنا الضغوط. والحقيقة أن ذلك يحتاج إلى نوع من إعادة البرمجة الشخصية، كما يتطلب أن نستخدم ما لدينا من خيال وإرادة في تحسين قدراتنا على المقاومة. ونحن بحاجة إلى جانب هذا أن ندرِّب أنفسنا على (الاسترخاء)، وإلى تخطيط أعمالنا بطريقة أكثر كفاءة، حتى نقلل من المفاجآت غير السارة، كما أننا محتاجون إلى المحافظة على صحتنا الجسدية والترفيه عن أنفسنا في إطار من المشروعية والاعتدال.

أضف إلى هذا أننا نحتاج إلى أن نملك الشجاعة على رفض الالتزام بأعباء لا نستطيع القيام بها، والابتعاد عن الأشخاص الذين تُشعرنا وضعيتهم العامة بالإحباط.

وبعد : فإن فهمنا المتزايد لطبيعة الانفعالات، وطبيعة وظائفها في توازن الشخصية، وفي استقامة الحياة العامة- سوف يجعلنا نتعلم حسن التعبير عن انفعالاتنا، وحسن تجسيدها في سلوكاتنا.

والله ولي التوفيق.

١٠ مسؤوليات الكتابة

في زمان شديد التعقيد، كثير الخيارات، يشعر الناس بأن عليهم أن يتخذوا في حياتهم اليومية عدداً من القرارات المختلفة، وأنهم من أجل ذلك بحاجة إلى دستور أعلى يهتدون به في حركتهم اليومية، وهم دائماً يتطلعون إلى أن يروا فيه ما يجسّد قيمهم ونظامهم الرمزي، وتراكمات الخبرة - بأقصى ما هو ممكن - وما يحقق لهم مصالحهم على نحو عام؛ ولذا فإنهم يتجهون إلى (الكتاب) علّهم يجدون فيه كل ذلك أو شيئاً منه، وهذا يمنح (الكتّاب) على نحو فوري حق الريادة، ويحمّلهم في الوقت نفسه مسؤولية إضافية.

الكاتب الحق ليس بائع أفكار، ولا مسوّق نظريات؛ إنه إنسان غلب الشعور الجمعي فيه على الشعور الفردي الأناني، فهو في الحقيقة يكتب لنفسه أولاً؛ لأن معاناته مشتقة - على نحوٍ ما - من معاناة ما يكتب لهم، وهو يأمل أن يرمّز المعاناة، وينقلها من دائرة الانفعال والشكوى إلى رؤية تعيد التوازن إلى نفسه، وتعبّد دروب الفعل أمامه وأمام جماعته على حد سواء. إن روح الكاتب الحق مسكونة بسذاجة الطفولة، وهذه السذاجة هي مصدر تفاؤله بإمكان نقل الناس من الضياع إلى الرشاد، ومن (اللامعقول) إلى المعقول؛ وهذا يجعله دائماً في مكان بين الواقع والممكن، والحاضر والمستقبل، والمبدأ والمصلحة...

إن الكتابة بما هي شرح للقيم وتوصيف للواقع واقتراح لحلول وتنظيم

للوعي.. تحمل دائماً في أعماقها معنى الرسالة، والتي لا تفتأ تستدعي مسؤولية الأمانة، وعلى الكاتب أن يستحضر ذلك على نحو مستمر.

الكتابة - كأي فعل إنساني - مهددة بالقصور الذاتي، أي بأن تفقد عنصري الصدق والإخلاص على الصعيد الخلقي المقاصدي، وعنصر النضج على الصعيد الفني التقني. وقد أشارت نصوص كثيرة إلى المخاطر التي تتهدد حملة العلم وصنّاع المعرفة على الصعيد الخلقي، وهذه المخاطر تنتمي دائماً إلى حقلي الرغبة والرهبة، على نحو ما أشار إليه النص الكريم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1]. أما على الصعيد الفني التقني فإن مخاطر الانزلاق أشد، نظراً لتداخل عناصر الفعل الثقافي ونسبية كثيرة منها... الليونة الفائقة التي تسربل جسم المعرفة كله، تجعل من الممكن أن يُنزع أي نص من سياقه، ليوظف توظيفاً معاكساً لوظيفته الأصلية، وهذا في حد ذاته، يفتح أبواباً من الجدل والتنويع المعرفي لا حدود لها، كما يجعل إمكانات الغش والتزوير هائلة، وهذا يمثل تحدياً أخلاقياً ومعرفياً لكل من يعاني شؤون القلم!

في زماننا هذا تزداد شروط العيش الكريم قسوة يوماً بعد يوم، كما يتحول الكثير من الأشياء التي كانت تعدُّ ثانوية إلى أشياء ضرورية؛ مما جعل الناس يشعرون أنهم محاطون بالضرورات من كل جهة، وصار كثير من أنشطتهم اليومية عبارة عن استهلاك لإنسانيتهم، وصفع دائم على قناعاتهم الأخلاقية!

(١) سورة المائدة: ٤٤

وعلى الرغم من التواصل الحسي المتزايد بينهم إلا أن عزلةً شعوريةً قاتلةً تفصل بينهم، بل إن الواحد منهم بات معزولاً عن أعماق ذاته، وصار يهيمن على الواحد منهم شعور قوي باستقلال خلاصه الشخصي عن خلاص مجتمعه، مع أن الرؤية الإسلامية، تذهب إلى أنه لا يمكن إحراز تقدم فردي حقيقي في وسط منهار. هنا تأتي الكتابة لتعيد التوازن إلى كل ذلك، ولتحمي الإنسان من الوحش الكامن في داخله؛ ولترأب الصدع الممتد بين الرمز والخبرة والمسلك والمعتقد.

في ظل ثورة إعلامية هائلة ومتنامية، صار التزيين أكثر سهولة، فقد صار من الممكن من خلال الوهج الإعلامي الباهر تحويل أشياء لم تكن تحتل سوى مركز هامشي في نظامنا الرمزي إلى محاور ثقافية قادرة على إيجاد (ميتافيزيقيا) كاملة من الأفكار والمشاعر والأحاسيس والاهتمامات، على نحو ما نجده اليوم في مسائل الطعام والشراب واللباس والزينة والكماليات عامة؛ ومهمة الكتابة أن تحول دون اندفاع الناس أكثر فأكثر في سياق يعلي من حاجات الجسد، على حين يهمل مسائل الروح والمصير والانتماء... وما تلك بالمهمة السهلة!

إن مما يلاحظه الناقد البصير أن خطابنا التربوي والإعلامي، بدأ يفقد طاقته على التعالي، وصار يرضخ لمقتضيات الأمر الواقع أكثر فأكثر، كما صارت مفاصل حركته الداخلية تهتم بالذكاء التقني : (كيف تفعل) أكثر من اهتمامها بالرؤية الأخلاقية الشاملة: (لماذا تفعل) أي صار يعتمد الروح العلمية أكثر من اعتماده على مدلولات (الحكمة). إن المعرفة تعلّمنا كيف نداوي، وكيف نقتل،

وكيف نصنع... لكن الحكمة تعلمنا متى نداوي، ومتى نقتل، ومتى نصنع.. أي تجعل أنشطتنا مشدودة إلى منظومتنا الخلقية. وهذه الوضعية الخطيرة، يمكن أن تجعل ذكاء الناس يتجه نحو منافعهم الشخصية بعيداً عن أي وازعٍ ديني أو قاعدة أخلاقية؛ ستكون أية تنمية جيدة أمراً مستحيلاً في ظل مجتمع لا يحقُّ حقاً، ولا يبطل باطلاً. وعلى قادة الفكر أن يقرعوا أجراس التحذير من العواقب الوخيمة لمثل هذا التوجه.

المشهد الثقافي لدينا تجتاحه اليوم، وهو يتآكل داخلياً بسبب اجترار أفكار ومقولات إصلاحية، مضى عليها أكثر من قرن، وهناك اعتقاد سائد لدى كثير من سدنة الثقافة بإمكانية إيجاد حلول الأزمة الثقافية من داخل الثقافة نفسها، مع أن تجربتنا الحضارية، تفيد ألاَّ حل لأزمة الثقافة- إلا من خلال تحويل الواقع المادي والاجتماعي وتغيير شروطه، وفتح طرق جديدة للممارسة؛ فأزمة العقل كثيراً ما تكون صدى لأزمة الفعل، وحين أغلق باب الاجتهاد، لم يتم إغلاقه بقرار، وإنما كان نتيجة طبيعية لتردي الواقع المعيشي، وضعف حفزه للثقافة على تجديد نفسها، وهذا يعني أن مزيداً من الكتابة لن يصنع شيئاً ما لم يتم تجديد مفاهيمها ومسالكها وأهدافها واهتماماتها. فالكتابة مسؤولة أولاً عن إصلاح شؤونها وتجديد ذاتها قبل أن تكون مسؤولة عن النهوض بالناس وحل مشكلاتهم.

إن المهام التي تنتظر الكتّاب كثيرة ورفيعة، وإن الكاتب، يستطيع أن يتجه بالناس نحو الظلماء والعماء، وبذلك يكون قد خان طبيعة عمله، ويستطيع أن ينير لهم دروب الفعل، ويطلق سراحهم من أسر اللحظة الحاضرة، ليتحسسوا

مصيرهم ومستقبلهم على هدي من عقيدتهم ومسلماتهم الفكرية. وسننجح في هذا المسعى إذا استطعنا أن نمنح من كتاباتنا أقواساً تقطع استمرارية حياة لاهية لاهثة، بغية إيجاد نماذج بشرية جديدة.

حول تجديد الوعي ١١

كلمة الوعي من الكلمات السائرة التي نالت حظاً واسعاً من الانتشار والذيوع. ويطلق علماء النفس هذه الكلمة في أكثر الأحيان على ما يتحصل من الشعور والإدراك والنزوع. وقد كثر الحديث اليوم عن تجليات الوعي؛ فهناك الحديث عن الوعي التاريخي والوعي الاجتماعي والوعي السياسي والوعي الاقتصادي... كما أنه كثر الحديث عن المسائل المتعلقة بوجودنا غير الواعي (اللاوعي). أضف إلى هذا أن هناك الكثير من الكلام حول تجديد الوعي وتنميته وتطويره. وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على وعي (الوعي) بذاته وسعيه إلى تجاوز نفسه من خلال النقد الذاتي وفتح حقول جديدة للفهم والاستيعاب.

وهذه بعض الملاحظات حول ذلك:

١-إن الوعي محصلة عمليات ذهنية وشعورية معقدة فالتفكير وحده لا ينفرد بتشكيل الوعي، فهناك الحدس والخيال والأحاسيس والمشاعر والإرادة، وهناك المبادئ والقيم ومرتكزات الفطرة وحوادث الحياة والنظم الاجتماعية والظروف الخاصة التي تكتنف حياة المرء.وهذا الخليط من مكونات الوعي، يعمل على نحو معقد جداً، ويسهم كل مكوّن بنسبة تختلف من شخص إلى آخر، مما يجعل لكل شخص نوعاً من الوعي، يختلف عن وعي الآخرين.

٢-إن عمل (العقل) يتم في سياق أقرب إلى الاستقرار والاستمرار، إنه

نوع من الإشراق الدائم. أما (الوعي) فيشبه عمله سلسلة من الومضات واللمحات التي تتفاوت شدة وقوة. إنه أشبه بمرجل يغلي، فهو لا يكاد يعرف الاستقرار؛ ولذا فإن المحافظة على توتره وتيقظه، تحتاج إلى رعاية دائمة، وإلا فما أسهل تزييفه وتغييبه!

الإنسان نتاج الثقافة، فهو عند مولده كائن خام، ولا تتبلور إمكاناته إلا في بيئة مادية ووجدانية وثقافية ملائمة، وبعد جهد متواصل. ولهذا فإنه يمكن القول: إن الوعي معطي اجتماعي. ومع أن الوعي يقيم علاقة جدلية بالمجتمع والوجود عامة، إلا أن الصحيح أن الوعي الفردي يظل مسوّراً إلى حد بعيد بمستوى الوعي الاجتماعي السائد، لكن من الثابت أن الكائنات الحية بدءً بالفيروس وانتهاء بالإنسان تسعى بإصرار إلى الاستقلال المتزايد والحرية المتنامية من أجل سمو الذات. وهذا أكبر مصدر من مصادر تجديد الوعي الاجتماعي.

تماسك الوعي ضعيف بسبب طبيعة مكوناته، وبسبب آخر مهم، هو انفتاحه على الواقع بما يحويه من معطيات ثقافية، ومنتجات تقنية واجتماعية تتسم بالتغيير والتطور. ولهذا فإنه مطالب بأن يجدد نفسه إذا ما أراد أن يقوم بعمله- على نحو جيد- في تنظيم الخبرة وإدراك التحديات وطرح الحلول لمواجهتها. والحقيقة المؤسفة أن كثافة المنتجات الثقافية، وسرعة التغيرات الاجتماعية، قد جعلت (الوعي) قاصراً عن ملاحقتها واستيعابها، وبالتالي ترميزها وإرسال الإشارات الملائمة للتعامل معها. ونحن هنا لا نتحدث عن وعي الأفراد، إذ من الطبيعي أن يظل بين الناس من هو عاجز عن ذلك، ولكننا نتحدث عن الوعي المجتمعي الذي يتشكل من حصيلة وعي الأفراد والمؤسسات الاجتماعية المختلفة.

حتى يستجيب الوعي للمتغيرات المتسارعة، فإن عليه أن يحوِّر في بنيته الخاصة، وإدراكه لذاته وما حوله؛وهذا شاق جداً حيث إن عليه آنذاك أن يقوم بدور الحجر والنَّحات معاً.

٣-الوجود غير الواعي هو الوجه الخفي للتجربة الوجودية للإنسان.إنه كيان متكامل، يتمتع بالطلاقة والحرية، ويتغلغل في كل أنشطة حياتنا، وهو قاعدة أعمالنا الغريزية، ومبعث ردود أفعالنا. اللاوعي أو اللاشعور يتجسَّد في حياة الإنسان البدائي الذي لم ينل حقه من النضج الثقافي، كما يتجسّد في سلوك المجتمعات التي فسدت نظمها ومؤسساتها المدنية، وبرز فيها تحكم النزوات والغرائز محدداً نمط الشخصية، ونوعية تطلعاتها.

الإسلام بما هو بنية تمدينية إصلاحية، يطالبنا دائماً بأن يسيطر وعينا على أكبر مساحة ممكنة من مشاعرنا وآمالنا وسلوكاتنا ومواقفنا، وتحويلها إلى ظاهرات، تتجسد فيها الإرادة الخيّرة والعزيمة الصلبة والاختيار الرشيد. وهذه المطالبة تنطلق أساساً من الثقة في إمكانية تنمية الوعي وتحسين قيادته لأنشطتنا كافة. وقد ذم الله - جل وعلا- ألواناً من التصرفات الخاطئة والمشينة التي ما كان لها أن تقع لو أن وعي أصحابها كان يقظاً وقادراً على تأدية وظائفه على النحو المطلوب. ولنتأمل في الآيات الآتية لنكتشف شيئاً من ذلك:

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.[1]

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن

(١) سورة الأنعام: ١٢٣

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1]

- ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

على المسلم أن يستخدم كلّ إمكاناته، وأن يجاهد نفسه من أجل توجيه مشاعره، وصياغة وجوده كله في ضوء تعاليم الشريعة السمحة وآدابها السامية.

ونلمس ذلك في آيات كثيرة منها:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[4].

- ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[5].

٤ - إن الحديث عن تجديد الوعي لم يكن وارداً لولا الثقة في قدرته على إعادة طرح مقولاته ونظمه ونماذجه للمراجعة. مما يعني في النهاية قدرته على تجاوز ذاته وتطويرها. إن إرادة الواحد منا حين تتجه إلى تحقيق شيء، فإنها تحفز الوعي على القيام بوضع مجموع خبراته في خدمتها، لكن إرادة التجديد، ليست هي الخطوة الأولى وإلاّ لهان الخطب، وإنما تتمثل الخطوة الأولى في إدراكنا لأهمية التجديد؛ والتي كثيراً ما يكون الوعي غافلاً عنها، أو معرضاً عن الاستجابة للإشارات التي تنبهه إلى ضرورة الالتفات إليها.

(١) سورة البقرة: ١١، ١٢

(٢) سورة المؤمنون: ٥٥، ٥٦

(٣) سورة فصلت: ٣٣

(٤) سورة العنكبوت: ٦٩

(٥) سورة الإسراء: ٣٦

إن الدواعي التي تحتم علينا متابعة وعينا، والحرص على تجديده كثيرة، نذكر منها الآتي:

أ- مهمة الوعي الكبرى أن يشكل ذاته، ويبني استقلاله بعيداً عن سجن الواقع، وخارج معطيات البرمجة الثقافية المحلية، وخارج النظام الاجتماعي السائد، وذلك بغية الحصول على أفضل إدراك للحقائق الموضوعية المختلفة. وهذا التحديد للمهمة الكبرى للوعي، هو الذي يفرض عليه السعي إلى تجديد نفسه، حيث إن الواقع الموضوعي والتاريخي الذي يسعى الوعي إلى القبض عليه، وتفكيك رموزه، ليس واقعاً مشخصاً مكتملاً، نضع برنامجاً زمنياً لاستيعابه، وإنما هو واقع متجدد باستمرار، وحقائقه موضع تغير دائم. ومن خلال عمليات الاستيعاب والتفسير، يقوم الوعي بتركيب حقائق جديدة، ويحاول اكتشاف القوانين المتحكمة فيها. وهو في كل ذلك، لا يملك أي ضمانات لصحة عمله، فقد يصيب، وقد يخطئ، وقد يقترب من الحقيقة الموضوعية، وقد يبتعد، لكن في كل الأحوال، ومهما تكن النتائج، فإن الوعي خلال عمله ذاك، يغيّر في بنائه الخاص، ويجدد في الآليات التي يستخدمها. ومرة أخرى فإنه لا يشترط في ذلك التجديد أن يسير في طريق النضج دائماً.

مشكلة الوعي دائماً الاندماج في الواقع الموضوعي، أو العيش على هامشه. والنتيجة في الحالتين واحدة، وهي سوء التعامل، والعجز عن الفهم الصحيح. هذه الوضعية تتطلب منا أن نجتهد في محاولة إبقاء الوعي في علاقة جدلية حية مع واقع متجدد، فهو من خلال مزيد من الاستيعاب للواقع وتفسيره، يجدد في تركيبه، ومن خلال تجديده لتركيبه يزيد في قدرته على فهم الواقع وهكذا...

ولست أبالغ إذا قلت : إن كثيراً من الناس ينظر إلى وعيه على أنه شيء نهائي ومكتمل، كما ينظر إلى الحقائق المختلفة على أنها جواهر ثابتة. وليس علينا سوى الإمساك بها وامتلاكها.. وهذا في الواقع هو أكبر عقبة تحول دون قيام الوعي بمهامه، كما أنه أكبر عقبة، تحول دون تجديده.

ب- إن حركة التاريخ تأتينا كل يوم بابتلاءات جديدة، وهي بتعاقب أحداثها المختلفة، تلقي الكثير من الحجب على أصولنا الشرعية ومبادئنا الكبرى، أي تقدم للوعي رموزاً ودلالات تبعده عن استشفاف المنهج الرباني الأقوم في إصلاح الحياة والنهوض بها. ولا يخفى أننا نعيش في عصر روحه مادية، وأوضاعه وأحواله أقرب إلى أن تكون وضعية علمانية، وهذا وحده كافٍ لتغذية وعي المسلم بكل ما يجعل تلمسه لطريقة توظيف المذهبية الإسلامية ضعيفاً. أضف إلى هذا أن التقدم التقني والحضاري أوجد أوضاعاً كثيرة، تتطلب تنظيمات وتأطيرات أكثر وأدق مما كان في الماضي؛ مما يعني أن ما تراكم لدينا من خبرات فقهية وحضارية لم يعد كافياً لتوجيه الوعي الإسلامي في أعماله، وصارالأمر يتطلب فقهاً للواقع أكثر نفاذاً، كما يتطلب تنزيلاً لأحكام الشرع عليه أكثر إحكاماً وبصيرة. وهذا لن يأتي إلا من خلال مزيد من الوعي بقوانين التفكير، وضبط المفاهيم وطرق البحث والاستدلال، ومن خلال فهم أعمق لمقاصد الشريعة، وتحسس أفضل لسنن الله - تعالى - في الخلق.

ج- البث الفضائي وشبكات المعلومات وتدفق الصور والرموز الثقافية على هذا النحو العجيب، أتاح للناس مقارنات غير مسبوقة، فقد صار كل واحد في العالم، يستطيع تلمس موقعه وموقع بلاده بين أمم الأرض، وهذا في الحقيقة

عزز ثقة بعض الناس بثقافتهم، كما ولّد الإحباط لدى أكثر من ثلثي سكان المعمورة.

هذا التداخل الثقافي الكوني إن لم يصحبه إنضاج حسن للوعي الذاتي، وتعزيز لأدوات عمله، فإنه سيتحول من عامل تفتح ونمو للوعي إلى عامل اضطراب وإرباك، وعجز عن استخدام نماذجه الخاصة في إصدار الأحكام الثقافية والحضارية. إن وعينا يعمل ضمن دوائر جغرافية، تبتدئ بدائرة الحياة الشخصية وتنتهي بالمحيط العالمي. ولكل دائرة من هذه الدوائر وقع رمزي وثقافي خاص، ومعارفنا المتعلقة بكل منها، تفرز مشاعر وعواطف خاصة؛ وهذا التواصل الكوني خلط كل إشعاعات تلك الدوائر بعضها مع بعض – وهذا وجه من وجوه العولمة – وصار لزاماً على الوعي أن يتعامل مع معطيات ثقافية منزوعة من سياقاتها الجغرافية والدينية والعرقية... وصار المتلقي أشبه بمن يسمع أمشاجاً من أصوات عشر إذاعات في آن واحد، أو أشبه بطالب يتلقى في حصة دراسية واحدة معلومات في عشر مواد متباعدة، لا يربط بينها أي رابط. وربما كان بالإمكان أن يتحول التواصل الثقافي العالمي إلى أداة استنارة عامة، وأداة لتوسيع قاعدة الفهم، إذا قمنا بتدريب الوعي على إنشاء مترابطات جديدة بين ما يفد إليه، وتدريبه على تحسس الخصوصية الحضارية لأمة الإسلام، وتحسس الأسس والمنطلقات التي قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة. والذي أريد أن أخلص إليه هو أنه سيكون من الخطأ الاعتقاد بارتقاء الوعي وتحسن عمله إذا هو أسلم نفسه للقوى الغاشمة التي تصوغ الرؤى الثقافية لمعظم سكان الأرض.

د- ستظل المشكلة التي تواجهنا جميعاً تتمحور حو استيعابنا لـ (واجب الوقت) أو الاستجابة الصحيحة لمجمل المطالب التي يحتمها القيام بأمر الله - تعالى - والنجاح في تحسين وضعية أمتنا بين الأمم. فهم تلك المطالب ليس بالأمر اليسير، فهي ليست مؤطرة في دائرة ما، وإنما هي مطالب شخصية ومحلية... وعالمية، وعلى المستوى الروحي والعقلي والاجتماعي والمادي.. وهذا التنوع الكبير يجعل الإمساك بها- بالمهم منا تحديداً- واستخراج ترتيب للأولويات بينها أمراً في غاية الصعوبة، كما يجعل الخبرات المتراكمة لدى شعب ما في إطار من الإطارات محدودة الجدوى إذا تم تعميمها، فالفكرة الشفافة والخطة الذكية والأسلوب الفعّال.. لا تستمد مقومات نجاحها من بنيتها الداخلية بمقدار ما تستمدها من السياق الحضاري والسياسي والاجتماعي الذي تعمل فيه، وهو سياق يختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم. في بلدٍ ما يكون حل مشكلة النظام الاجتماعي هو التحدي الأكبر، والنجاح فيه يمثل المدخل الوحيد لمواجهة تحديات أخرى. وفي بلد ثان يكون إصلاح العقيدة وتعميق الفهم للشريعة، هو المدخل، وفي بلد ثالث يكون التخلص من الفقر هو نقطة الانطلاق لما بعد وهكذا.

هنا تأتي مهمة الوعي المشتعل ذكاء، والممتلئ بمحصلات الممارسة في تحديد نقطة البداية، والحقل الأساسي للعمل، وتحديد الشروط التي يتطلبها النجاح في ذلك الحقل. حين يملك الوعي المسلم القدرة على التردد بين إشعاعات الخبرة ومعطيات الواقع، وبين إمكانات الحاضر ومطالب المستقبل، وبين ما هو مذهبي خاص وعالمي عام- فإنه يستطيع بعد توفيق الله - تعالى - قيادة الأمة

إلى بر الأمان، وفتح سبل الريادة أمام أجيالها.

هـ- كثيراً ما يعاني الوعي من بطء متابعته للواقع؛ وهذا البطء يجعل الوعي متخلفاً عما ينبغي أن يكون عليه عقوداً وأحياناً قروناً، مما يجعل كثيراً من جهودنا غير ذي معنى. وهذا التخلف يقع في نطاق الأهداف، كما يقع في نطاق الأساليب والأدوات. في الحقل الأول نجد من الدعاة - مثلاً- من يطيل الشرح في ذكر انحرافات فرق ومذاهب ليس لها تأثير يذكر في حياة الناس اليوم، ويهمل الحديث عن ألوان من الانحراف العقدي الخطير؛ وما ذلك إلا لأن وعيه لم يستطع استيعاب الوضعية الجديدة، وإصدار الأوامر لإحداث استجابات مناسبة لها. حين ندعو الناس إلى المحافظة على نظافة مدينتهم، ويستجيبون لذلك، فما معنى أن نصر على تذكيرهم بهذا الأمر وقد تحقق على نحو أفضل مما كان مأمولاً. حين تستنفد دعوة أو فكرة أغراضها، وتنجح في إيصالنا إلى أهدافنا، فإنه يجب أن نتخلى عنها، كما نتخلى عن الأفكار والأساليب العقيمة والمخفقة، لأن كلاً منهما لم يصبح ذا فائدة.

قد يكون هجر العاصي في حقبة ما وسيلة نافعة في رده إلى الجادة، لكن حين تشيع إطارات الشر وبؤر الفساد، فإن هجره ربما أدى إلى دفعه نحو واحد منها، لنخسره على نحو كامل. ويمكنك أن تقول مثل هذا في استعمال الشدة في الدعوة والتربية والإدارة، فمثل هذا الأسلوب ربما كان ناجعاً في الماضي، أما اليوم فإنه يكاد يكون عقيماً.

إن مسألة تجديد الوعي تحتاج إلى فحص المقولات والأفكار السائدة في المجالات التي يتجلى فيها الوعي، وتسليط أشعة النقد عليها، وفضح الزائف

منها؛ وهذا يتطلب شفافية عالية نحو متطلبات العيش في زماننا هذا، ونحو متطلبات أداء واجبنا الرسالي على النحو المطلوب.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١٢ حول التغير والتغيير[١]

إن انتقال الإنسان والمخلوقات كافة من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، هو السنة العامة التي تحكم الوجود كله؛ لحظة ولادة، ولحظة فورة وقوة ولحظة اتجاه نحو الضعف، ثم الفناء.

يقول الله -جل وعلا-: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[١].

هذا الحراك الوجودي، لا يكون دائماً في الاتجاه نحو الأسوأ، ولا في الاتجاه نحو الأفضل، فهو في المعايير الأخلاقية والمصلحية تطور محايد. وليست كل مرحلة من مراحل الوجود ذات بنية ثابتة وجامدة، وإنما هي بنية متفاعلة حيث تشتمل على العديد من النظم . آلية التطور مزدوجة، حيث ينبثق نظام جديد من نظام قديم، اجتاحه الخلل، وفقد توازنه الخاص.

الانتقال من حال إلى حال، هو الباب العريض الذي يدخل منه كل أولئك الذين يبحثون عن التخلص من ظروف النشأة، والوضعية المتردية التي وجدوا أنفسهم فيها حين فتحوا أعينهم على الدنيا. في تاريخنا الإسلامي رجال عظام ولدوا في أحضان الرق والعبودية. وآخرون ولدوا في حالة من البؤس الشديد... لكن سنة الله- تعالى- في التغير والتطور، كانت دائماً تولّد خلخلة في تلك الأوضاع الرديئة، وتفتح أمام أولئك دروباً للارتقاء، كما تمنحهم فرصاً

(١) سورة الروم :٥٤

لحيازة المجد من كل أطرافه.

القرآن الكريم يعلمنا أن تغيير الذات، هو أساس كل تغيير، بل إن تغييرها، يمكن أن يؤثر في نظم طبيعية واجتماعية، فبالدعاء، والاستغفار والاستقامة، يمكن أن تفيض السماء والأرض بالخيرات، كما يمكن أن يكثر النسل والذرية. وحين تسوء أحوال النفوس، ويفسد الداخل، فإن كل النعم والإمكانات تمسي مهددة بالزوال. وإشارة إلى هذه المعاني يقول الله- جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [1]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [2]. وقص علينا قول نـــوح- عليه السلام- لقومه: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [3].

تجربتنا الإسلامية في الماضي والحاضر، تنطلق من أن النصر الحقيقي الذي افتتحت به الحضارة الإسلامية انطلاقتها كان على مستوى النفوس بتحريرها من حب الدنيا، ومن الطموحات الصغيرة، كما كان على مستوى العقول بتحريكها وتشغيلها، وفك أسرها من أغلال الخرافة والأوهام والتقاليد.

بات الاستعداد لأن نغير الكثير من سلوكاتنا وأوضاعنا أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى؛ فكل شيء اليوم يتدفق، والابتكارات التي كانت في الماضي نتيجة جهد عدد من الأجيال، أضحت اليوم من نتاج جيل واحد. هذا بالإضافة إلى أن من المتوقع أن يؤدي التواصل العالمي، وتضاؤل تأثير المعطيات والاعتبارات

(١) سورة الرعد: ١١
(٢) سورة الأنفال: ٥٣
(٣) سورة نوح: ١٠-١٢

المحلية إلى حدوث أزمات كثيرة على نحو متسارع، كما سيؤدي إلى وجود فرص سانحة وأحياناً خاطفة؛ وبسبب من هذا وذاك فإن المطلوب من الأمم والأفراد على حد سواء امتلاك درجات عالية من الجاهزية للتخلي عن عادات ونظم وأساليب وأدوات، كانت إلى عهد قريب ملائمة للحياة الحضرية؛ والبحث عن بدائل لكل ذلك تكون أكثر فاعلية وأكثر انسجاماً مع المعطيات الجديدة. والمهمة الأولى تتمثل دائماً في ابتكار نموذج للتغيير، ينسجم مع مبادئنا وأهدافنا، ويستوعب طبيعة التحديات المتصاعدة، التي تواجهها الأجيال الناشئة.

الناس غير مستعدين لتغيير أنفسهم وتغيير مألوفاتهم وعاداتهم إلا إذا شعروا بحاجة ماسة إلى التغيير، ولن يكون من المجدي كثيراً صدور قوانين ورفع شعارات تغييرية إلا إذا أدرك الناس وظيفة هذه الشعارات وجدواها في تحسين أحوالهم وتخليصهم من المعاناة اليومية التي تزعجهم. وهنا تبرز أهمية تغيير المجال الإدراكي للناس، وشحذ أذهانهم، لتكون أكثر حساسية تجاه المتطلبات المتجددة للحياة العصرية.

وأخيراً فإنني أعتقد أن فهم متطلبات التغيير، يتوقف- في جزء منه- على فهم وقائع التغيير القهري الذي يحدث في هذا الكون، وذلك من أجل وعي الانسجام بين الإرادة الشرعية التي تتطلب تغييراً مقصوداً، وبين الإرادة الكونية التي تصف تغيراً كونياً لا حيلة لنا تجاهه.

١٣ حول التغير والتغيير [٢]

إن من تمام ابتلاء الله - تعالى- للإنسان أن جعله في سياق من التطور، يستوجب دائماً نوعاً من تفتح الوعي، والمجالدة، ومغالبة الكثير من أشكال التحول التي تنزع إلى ما هو ضار بدنيا المؤمن وآخرته. الإنسان حين يكون خاماً يكون وعيه بواقعه محدوداً، كما أن إدراكه لاتجاهات التطور الذي تتعرض له حياته وبيئته اللصيقة يكون سطحياً.

التقدم العلمي والعقلي ونضج الوعي، أمور تساعد المرء على التعامل مع التفاعلات الجارية وتخمين مآلاتها ومنطق تطورها، وتمكنه من التدخل فيها على وجه من الوجوه، واستثمارها لتحقيق أهدافه الخاصة. وحركة البحث العلمي في معظم مجالات الحياة، تستهدف هذه المسألة على وجه التحديد.

وهذه بعض الملاحظات حول هذه القضية المهمة:

١- في ظل النظام العالمي الجديد، وانفراد الغرب بالتصرف في الشؤون الدولية، سوف يتصاعد إحساس المسلمين بالسيطرة الأجنبية وبالمرارة، وسوف يعبِّرون عن ذلك بتعبيرات كثيرة، وهذا سوف يدفع الغرب إلى المزيد من الضغط علينا، والناتج لكل ذلك أن يحمل كثيرون منا نفسية الحقد والكراهية والأخذ بالثأر.. ومع أنه لا يجوز لنا أن نتجاهل موقف الآخرين منا، أو نغضّ الطرف عنه، إلا أنه من المهم دائماً ألا ننسى أن هذه الأمة مكلفة بصفة دائمة، وحتى قيام الساعة بتبليغ رسالة الإسلام للعالمين مهما

كانت درجة عدائهم لنا. وهذا يقتضي أن نتشبع بروح الدعوة، وأن تفيض قلوبنا بالشفقة والرحمة والحرص على هداية الناس، فالدعوة ليست واجب الأمة فحسب، وإنما هي رسالتها الحضارية للبشرية، وهي أداتها في التميز بين الأمم، وهي أحد مسوغات وجودها، كما قال -سبحانه-: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1].

إذا غاب عنا هذا الحس وهذا الفهم، فإننا سنحكم على أنفسنا بالدونية وبالتهميش، ونتحول إلى أناس لا يحسنون سوى الشكوى.

٢- شهدت السنوات العشر الماضية تبدلات نوعية عديدة، فالتأزم الاقتصادي بات شيئاً مقيماً في العالم - ولا سيما في العالم الإسلامي- وتحسنه فيما يبدو سيظل في مستوى أدنى مما يكفي لتلبية الحاجات الأساسية لمعظم المسلمين.

في الوقت نفسه ارتفعت وتيرة الرغبة في الاستهلاك، وتحول كثير مما كان يعد كمالياً إلى أشياء أساسية. الفجوة بين ما يقال للأطفال في المدارس وبين وقائع السلوك اليومي آخذة في الاتساع. والتشرب والتمثل للقيم والمبادئ السامية أقل مما كان عليه في السابق. ومؤدى ذلك وأمور أخرى من هذا القبيل هو التحلل في الشخصية على الرغم من بروز بعض سمات التدين لدى بعض الناس. والرزانة التي كان يتميز بها الإنسان الشرقي عامة، باتت في أوهى حالاتها، وحل محلها انقيادٌ قوي للرغبة، وخضوع أشد للمصلحة الخاصة...

بات من المهم اليوم أن نتكاتف جميعاً لنقف في وجه الانحراف والفساد بكل صوره، وصرف المزيد من الاهتمام للتربية الأخلاقية، وتنمية حساسيات جديدة نحو النزاهة والنبل والاستقامة، والالتزام بأخلاقيات المهنة، مما حثت

(١) سورة آل عمران : ١١٠

عليه الشريعة الغرّاء، ومما تعارف عليه متميزو الأمم في كل مجال.

٣- في عصور إقبال الإسلام كان الخطاب الإسلامي بكل أدواته، يوازن على نحو مدهش بين الرؤية الشرعية للحياة والأحياء وبين الملمح الإنساني أو النظرة الإنسانية، أو بين الفتوى والتقوى، حيث تلتقي أدق التفاصيل في مسائل الولاء والبراء والحلال والحرام مع التوجيهات العامة باحترام كرامة الإنسان وحقوقه ومشاعره وطموحاته. وكان ذلك يتم من خلال بنية حضارية متقدمة، حيث يتم الانفتاح على الإنسان من خلال العلاقة بالخالق - سبحانه- والانفتاح على الدنيا من خلال الانفتاح على الآخرة؛ أي أن الرؤية الإنسانية تقف على أرض شرعية وتتأطر بإطار ديني؛ فكل أشكال الإحسان للإنسان وكل أشكال تقديره والاعتراف به وحفزه... تتم من أفق التعبد لله تعالى.

وأشعر اليوم أن خطابنا أخذ يفقد توازنه، حيث أخذت النظرة الإنسانية تتمدد شيئاً فشيئاً، على حساب الرؤية الشرعية المنضبطة، بل إن جزءً من النظرة الإنسانية يتم تعميمه اليوم، واعتماده محوراً للخطاب الإنساني حيث تسود الدعوة إلى تكوين نموذج الإنسان المتسامح المتساهل بشأن المحرمات الثقافية، الذي يقبل التعددية غير المشروطة، الإنسان الذي يتمتع بما يكفي من ذوق ولباقة لتعامل حضاري راقٍ، الإنسان البطل الناجح المستقل الكفء الذكي الإيجابي قناص الفرص، الذي يعرف سبيل خلاصه الشخصي... وقلما تتم الإشادة اليوم بالإنسان التقي الناسك المتعبد الورع الرحيم.. بل إن هذه السمات قد تذكر في سياق التعريض بغفلة الشخص وتخلفه عن فهم روح العصر!

وقد صار لزاماً على كل واحد من رواد الثقافة أن يبذل جهداً مقدراً في سبيل استعادة التوازن المفقود في هذه المسألة من خلال العودة إلى أدبياتنا الأصيلة في

صورتها الكلية المتكاملة، والجامعة بين الإطار الشرعي والملمح الإنساني اللذين يشكلان في النهاية معالم الخطاب الذي يتم من خلاله استنهاض الإنسان المسلم، وتوجيهه والدفاع عن حقوقه ومكتسباته.

٤- هاجس الخوف من التهميش يهيمن على كثير من المسلمين وعلى كل المستويات، ولذلك فهناك سعي إلى أن نوجد بيننا وبين الدول المتقدمة نسباً ما ظانين أن ذلك يدنينا من أن نكون جزءً من الحركة الحضارية الحديثة. وبعد انهيار المعسكر الاشتراكي بات النموذج الغربي هو الذي يستهوي كل الخطط التنموية، ولكن بطريقة اختزالية وسطحية. إذ قلما تجد دولة نامية تفاخر بأنها تملك جامعة مرموقة أو مركز أبحاث معتبراً على مستوى عالمي أو تملك وضعية قانونية أو حقوقية، تقدم من خلالها قدوة ونموذجاً لما يسمى بـ (الدول الصناعية) لكننا نجد من يفاخر أن عنده أعلى ناطحة سحاب أو أكبر حديقة حيوان، أو أطول نفق... وهذا كله نابع من الاعتقاد بأننا بالتقدم الاقتصادي نستطيع أن نؤسس لاستقلالنا الحضاري، لكن الصحيح أن اعتماد أسلوب الغرب في التنمية لا يقلل من هيمنته علينا، وإنما يجعلنا أكثر فأكثر في مجال سيطرته، لا سيما أن ما يمنحنا الخصوصية والتميز عن الآخرين، لا يلقى من العناية ما يجعله يؤدي وظائفه على النحو المطلوب.

إن ترشيد التطور في هذا المجال، يقتضي أن نبحث عن الطريق الخاص بنا، وهو طريق لا يمر عبر المدن الكبرى في الغرب، وإنما يمر عبر المدن والعواصم الإسلامية؛ كما أنه طريق لا يمر عبر الشكليات والبنى الاقتصادية المجردة من المضامين الثقافية، وإنما يمر عبر تشكيل رؤية حضارية، تُعلي من شأن الإنسان وحقوقه وحاجاته، وتجعل التنمية الاقتصادية شيئاً يخدمه، ويساهم في تنميته،

وهذا لن يتم إلا إذا أعطينا الأولوية للمبدأ على المصلحة، وللجوهر على المظهر، وللنمو الروحي على النمو المادي.

٥- كان التلاحم الأهلي في العالم الإسلامي، يمثل نموذجاً يحتذى، فقد كان الناس يشعرون بالقرب بعضهم من بعض وروح المعاونة والمساعدة في معظم الأحوال، هي السائدة، والخصوصيات محدودة... وقد وفّر هذا اللون من التمازج دعماً اجتماعياً مشتركاً ومتبادلاً على درجة عالية جداً؛ ولذا فقد كان الخوف من مغبات الجوائح والخوف من المستقبل، والخوف على الأولاد بعد الوفاة... في أدنى درجاته.

هذا التضامن الأهلي الذي كان يشع أقداراً من الدفء والطمأنينة والشعور بالثقة، بات اليوم مهدداً من خلال أمرين جوهريين: اتساع المدن والعمران؛ مما جعل أبناء الأسرة الواحدة - فضلاً عن القبيلة والعشيرة- موزعين على أحياء وأماكن متباعدة، وهذا جعل معرفتهم بأحوال بعضهم ضعيفة، وصاروا لا يلتقون إلا في المناسبات، وحين يتم اللقاء يكون عابراً وشكلياً. الأمر الثاني هو: تخصيص العمل، حيث إن تعقد النظم الحياتية كافة، أدى إلى صعوبة استيعاب الإنسان لها؛ مما أوجب على كل واحد أن يتخصص في شيء ينمي مهاراته في إطاره. وعلى سبيل المثال فقد كان الأقرباء والجيران والأصدقاء، يتعاونون في تشييد ٩٠٪ من أجزاء المنزل، لكنهم اليوم، قد لا يستطيعون ذلك في أكثر من ٢٠٪. أما في المدن حيث الأبراج وناطحات السحاب، فلا يستطيعون أن يتعاونوا في أي شيء!

هذا كله ضخّم- من غير قصد- دوائر الخصوصية، وصار الزمان موحشاً؛ مما جعل المرء، يشعر بالاغتراب في وطنه وبين أهله!

إننا بحاجة إلى أن نستعيد ما يتم تدميره بفعل التغير للحياة من حولنا، وذلك عن طريق إرساء أخلاقيات وتقاليد جديدة، وإنشاء تنظيمات تكسر ظاهرة (الملفات) والدوائر المقفلة شديدة التخصص، فلا يترك أي شأن اجتماعي أو اقتصادي أو أخلاقي بعيداً عن المشاركة والرقابة العامة. وعلى سبيل المثال فإن مسؤولية تقدم الطفل في الدراسة، لا يصح إلقاؤها على كاهل المدرسة، بل لا بد للأمهات – على نحو أخص – من المساهمة في ذلك. الشركة أو المؤسسة التي يعمل فيها الشخص يجب أن تترك صدى في حياته الاجتماعية من خلال مساعدتها له على تأثيث المنزل أو دفع تكاليف حفلة الزواج.

على الجيران أن يسهموا – كما كانوا – في رعاية أطفال جيرانهم أو في بناء المسكن أو في إصلاح شيء تالف.

المقصود أن نجد طريقة للتخلص من المفرزات السيئة للتطور العشوائي، ونحاول تفادي تدمير التلاحم والتضامن الذي أظل المجتمعات الإسلامية عبر قرون كثيرة خلت. وهذا لن يكون إلا إذا أعرضنا عن سبيل التقدم الغربي ذي الإحساس الغليظ بهذه المسائل، وشققنا لأنفسنا طريقنا الخاص بنا.

١٤ حول التغير والتغيير[٣]

الناس في كل زمان ومكان، يبذلون جهوداً مقدرة في حل مشكلاتهم واستثمار الفرص المتاحة؛ لكن المشكلة التي تواجههم في كل مرة، تكمن في استشرافهم لمعالم المنهج الذي يسيرون عليه في ذلك. كثرة العناصر والحيثيات التي تتدخل في ولادة الظاهرة الواحدة، تجعل ما يصلح من الأساليب والأدوات في موضع لا يصلح في موضع آخر. نعم هناك دائماً خطوط عريضة في كل شيء، وهناك ثوابت ومرجعيات، يصعب تجاوزها، لكن هناك أيضاً تفاصيل وأدوات خاصة، تتسم بفاعلية كبيرة في إحداث التغيير وتوجيهه. ولا أظن أن الناس سيشهدون أي نهاية للبحث عن المنهج المناسب، حيث إن التقدم الحضاري ذاته يولّد مشكلات جديدة ومناهج جديدة أيضاً لحلها، لذا فإن أحداً لا يستطيع أن يقول الكلمة الأخيرة في هذا الشأن. وعلى هذا فإن أفضل ما يمكن عمله هو محاولة رسم بعض الأطر، وإبداء بعض الملاحظات، وعلى كل واحد منا أن يختار من مجموع ما يقال في هذه السبيل ما يراه مناسباً لمعالجة مسائله ومشكلاته الخاصة.

١ - الرفق في الإصلاح:

إذا قلت للناس: إنني سأغير ما أنتم عليه، فإنك بذلك تستفزهم وتستعديهم، لكن إذا قلت: إن ما نحن فيه يحتاج إلى شيء من التحسين، فربما تجد بعض التجاوب منهم- المصلحون العظام في كل أمم الأرض يتخذون من الإيجابيات الموجودة في مجتمعهم نقطة بداية لإصلاح السلبيات. وهم دائماً يحذرون من أن

تؤدي إصلاحاتهم إلى إثارة النعرات المذهبية أو الطائفية أو العنصرية أو القبلية، أو تحميل الناس ما لا يطيقون من أعباء التغيير وتبعاته.

إن أسلوب التغيير أشبه بعمل من يحاول اقتلاع شجرة ليغرسها في موضع آخر، فهو يحفز حول جذورها مع الحرص الشديد على سلامة تلك الجذور، ولذا فإننا ونحن نغير في أوضاعنا، يجب أن نراعي حداً من إجماع الرأي ووحدة الهدف، بل إن هذا المعنى يجب أن يشكل هدفاً ثابتاً نسعى إلى المحافظة على تحقيقه في كل حين.

من العسير جداً أن يتم التغيير على الصعيد القيمي والفكري- خاصة - في أجواء متوترة ومتشنجة، حيث ينصرف الناس آنذاك إلى الدفاع عن معتقداتهم ومسلماتهم الثقافية، مهما تكن غير صحيحة، وتكون القابلية للاستيعاب والتغيير في أدنى درجاتها. ويمكن أن يفسّر قبول النبي -ﷺ- بشروط قريش المجحفة في صلح الحديبية بحرصه على أن تضع الحرب أوزارها مدة طويلة يزول خلالها التوتر بين المسلمين وأهل مكة، فتنفتح سبل قبول الدعوة الجديدة.

٢- إدراك العلاقات الجدلية:

لا بد لنجاح التغيير من أن نتجاوز الرؤية السطحية والتجزيئية للأشياء إلى تكوين رؤية جديدة، تقوم على إدراك الوحدة العميقة لحياة البشر، وإدراك العلاقات الجدلية التي تكوّن تلك الوحدة؛ حيث يتهيأ لنا آنذاك أن نرى الشيء مؤثراً ومتأثراً، وآخذاً ومعطياً، وسبباً ومسبباً في آن واحد. الأزمة الأخلاقية قد تكون نتيجة شروط بيئية واقتصادية سيئة، تحمل الناس على الرشوة والغش والتذلل، أو تحد من طموحاتهم، وتؤطر تحركاتهم... وفي الوقت نفسه قد نرى الأزمة الأخلاقية وهي تدفع باتجاه التأزم الاقتصادي، وتفسد النظام الاجتماعي. نجاح شخص ما في أعماله، قد يكون بسبب رأس مال خلفه له أبوه، وقد يكون

بسبب خبرته المتميزة في مجال عمله، وقد يكون بسبب نوعية العمل الذي يمارسه وحاجة الناس إليه في مرحلة من المراحل... ذلك النجاح نفسه نراه وهو يسبب مشكلة مادية أو خلقية لأشخاص آخرين، وقد نراه وهو يغري صاحبه بنجاح آخر، كما نراه وهو يدفعه نحو الغرور والكبر، أو نراه وهو يؤسس لحالة رخاء، تنفع أقواماً وتضر آخرين. حين نرى الكل من خلال أجزائه، ونرى الأجزاء من خلال مجموعها، ونرى كل جزء في ضوء رؤيتنا للأجزاء الأخرى، نكون قد امتلكنا الرؤية المتكاملة وعرفنا مفاصل حركة التغيير.

٣- التكيف المتوازن:

التغير المستمر في البيئة المحيطة والتحديات وشروط الإنجاز.. تفرض علينا استمرار ملاءمات جديدة، هي ما نسميه بـ (الكيف) وليس التكيف شيئاً سوى التعديلات التي نقوم بها كي نظل متوافقين مع التعديلات التي تطرأ على بيئتنا- بالمعنى الواسع- حتى لا نفقد زمام السيطرة عليها. التكيف المتوازن هو الذي يبقي على الذات الثقافية واضحة حية متماسكة، ويفتح أمامها في الوقت نفسه سبل استيعاب المتغيرات الجديدة، إلى جانب نوع من العمل ضمن أطرها ومعطياتها، مع الاحتفاظ بالقدرة على تعديلها.

حين يموت الكائن الحي، فهذا يعني أنه طرأ اختلال على توازنه الحيوي لم يستطع تحمله أو التكيف معه. وهكذا فإن تجاهل التحديات الجديدة المتسارعة وعدم إحداث الاستجابات الملائمة لها، سيعني نوعاً من توقف النمو، ثم الضمور والتآكل. وبإمكان المرء أن يرى اليوم شعوباً إفريقية وآسيوية عدة سائرة في هذه السبيل، حيث لم تستطع استيعاب منطق العصر والتعامل الإيجابي المنتج مع معطياته.

ومن وجه آخر كثيراً ما نرى في مختلف بقاع المعمورة شعوباً ودولاً فهمت

التكيف على أنه استسلام للقوى العاتية، وتناغم معها ظانة أنها بذلك تمسي عصرية ومتقدمة! وهي في سبيل ذلك تقوم دون إبطاء بتأويل معتقداتها وتاريخها ومجمل موروثها الثقافي على هدي رموز الفكر الغربي الظافر.

التكيف الصحيح لا يكون بالتنازل عن الثوابت حتى نصبح ذيلاً للآخرين، وإنما يكون باستيعاب المعطيات الجديدة، ثم توظيف أصولنا الحضارية توظيفاً فاعلاً، يصون تلك الأصول، ويعززها، كما أنه ينقل الأمة من موقع المتفرج، على تحولات العصر، إلى موقع المحور من خلال المشاركة الجادة في إنتاج الحضارة وتوجيه مسارها.

التكيف المتوازن ينطوي دائماً على نوع من التجاوز: تجاوز لبعض المفاهيم والآليات القديمة التي ليس لها سوى قيمة وفعالية زمنية، وتجاوز لما تمليه المتغيرات الجديدة من استسلام للقوى الغاشمة والغرائز البهيمة.

٤- الشفافية نحو متطلبات التغيير:

إن ما يحدث في الحياة العامة، ليس كله سبباً، كما أن بعضه يتمتع بقوة كونية هائلة، ومن ثم فإنه ليس هناك من سبيل لتجاهله وغض الطرف عنه. وفي كلتا الحالتين فإن علينا أن نغير بعض مفاهيمنا وعاداتنا الشخصية وأعرافنا العامة، حتى نكون في الموقع الصحيح.

الثورة المعلوماتية وضيق الفجوة بين الأفكار النظرية وتطبيقاتها وغزو المنتجات التقنية لكل شبر في الأرض، والمنافسة العالمية المفتوحة والرهيبة على كل شيء... كل هذا يوجب علينا أن ننقل وضعيات عديدة من التنافس إلى التعاون، ومن الولع بالإنجازات الفردية إلى تأهيل النفس للعمل ضمن فريق، ومن الاحتكار والاستغلال إلى تأسيس الشركات المساهمة، ومن الطبقية والعنصرية إلى الأخوة والتسامح والعدالة والمساواة..

إذا لم نعمل في هذا الاتجاه فإن خيرات التقدم العلمي، ستتحول إلى عوامل تخلف في مجتمعاتنا، حيث نحاول أن نجعل المعطيات العلمية والتقنية الأشد حداثة، تتفاعل مع أطر أخلاقية وتنظيمية بالية ومنحرفة ومعوقة، وبذلك يكون تحضرنا شكلياً. ربما كان أكثر المجالات حاجة إلى التطوير هو المجال التربوي على الصعيد الأخلاقي وعلى الصعيد العلمي الفكري معاً.ونشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى بوجود فجوة كبيرة بين النظم التربوية ومخرجاتها وبين متطلبات التغيير الاجتماعية. وسبب هذه الفجوة هو الإيقاع السريع لمجتمع المعلومات مقارنة بالإيقاع البطيء الذي يتسم به تجدد النظم التربوية والتي ترتبط بقوانين التغير الاجتماعي المتسم دائماً بالتلكؤ.

ومهما يكن الأمر فإن الأوضاع العالمية الجديدة والتنافس في سوق العمل والبطالة المتزايدة.. إن كل ذلك بات يتطلب من الآباء والأبناء تأهيلاً علمياً جديداً وأداء متميزاً؛ إذ إن العيش بكرامة أضحى يتطلب خريجاً من الدرجة الأولى. وقد صار لزاماً على كل واحد منا أن يعد نفسه لاكتساب القدرة على التعلم الذاتي ومواصلة إخصاب مواهبه، وتوسيع مداركه وصقل مهاراته، بالإضافة إلى القدرة على تحليل المعلومات الواردة، واستخلاص المغازي والدروس منها؛ من أجل توسيع قاعدة الفهم لديه.

٥- المشروع الشخصي:

لا نستطيع أن نوجد مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده؛ ولذا فإن المجتمعات القوية والمنتجة لم تقم إلا على نجاحات وانتصارات كثيرة ومتميزة، حققها كثيرون من أبنائها في حياتهم الشخصية الخاصة. المشروع هو اجتماع الهدف والطاقة والإمكانية والبعد الزمني في خطة منطقية واحدة. ومن غير المشروع الشخصي، لا نستطيع تحسس أهدافنا الخاصة، ولا أن نستغل أوقاتنا على الوجه

المطلوب، كما أننا لا نستغل طاقاتنا وإمكاناتنا الاستغلال الأمثل.

المشروع الحضاري التزام شخصي بشيء يكرس له المرء عمره كله أو جزءً منه، وهو أوسع تنوعاً مما نتصور؛ فقد يكون مناصرة لفكرة أو نشراً لدعوة أو إتقاناً لعلم أو كشفاً عن قضية غامضة أو رعاية لجمعية أو تفرغاً لتربية ولد أو دعماً لمؤسسة خيرية.. المهم دائماً أن يكون مشروعنا الحضاري الشخصي شيئاً يستحق العناء، وأن يكون على صلة بمشروعنا الأساسي، وهو الفوز برضوان الله -تعالى- والنجاح في الابتلاء العام الذي كتب علينا. ويجب إلى جانب هذا أن نبرمج حياتنا، ونرسم أهدافنا من أفق حاجات مجتمعنا المسلم، أي أن يساهم مشروعنا الحضاري الشخصي في تحقيق أولوية اجتماعية، أو سد ثغرة ملحة وخطيرة.

إننا نطمح إلى أن تتكون في المستقبل روابط ومؤسسات، تجمع بين أصحاب المشروعات الخاصة المتشابهة، من أجل تكوين هيكل من المعرفة والخبرة، يستفيدون منه، ومن أجل إيجاد أطر فنية متخصصة، تتيح لهم التعاون في إنجاز مشروعاتهم.

والله ولينا.

١٥ أسس في منهجية التفكير

لم يبتعد عن الصواب أولئك الذين وصفوا عصرنا بأنه عصر انفجار المعلومات أو عصر الثورة المعلوماتية؛ فالمعلومات والأرقام تتدفق من كل حدب وصوب بشكل فاق كل تصور. ويبدو لأول وهلة أن هذه الوضعية سوف تعزز من قدراتنا على التفكير المنهجي الذي يضع الأمور في نصابها الصحيح ، إلا أن الملاحظ أن تأثير هذا الفيض من المعلومات في بناء منهجية فكرية قويمة أقل بكثير مما يؤمَّل؛ إذ إن لدى العقل البشري قدرة هائلة على تصنيف المعلومات المختلفة وتوجيهها وتوظيفها في أشكال وصور تلائم تركيبه الخاص، وتخدم أهواءه أيضاً!

وربما استُغلت المعلومات الكثيفة في قضية من القضايا لممارسة نوع من الهيمنة على المتلقي، وربما كان لها نوع من الإغراء والجاذبية الخاصة، فنستسلم لها، ولمن يوجهها نحو أهداف معينة.

إن علينا ألا ننسى أن كثافة المعلومات في أمر ما قد تكون مضللة ومربكة، حيث تؤدي غزارتها في كثير من الأحيان إلى نوع من البلبلة والتعارض بين معطياتها العامة؛ مما يؤدي إلى نوع من اهتزاز الثقة بها جميعاً. وإن مما يدفع إلى الحذر مرة أخرى أننا لا نعرف في كثير من الأحيان المعلومات التي تم حجبها مما يتعلق بقضية معيَّنة، كما أننا لا نعلم مدى الأهواء والتزيدات التي تحكمت في طريقة سردها. هذا كله بالإضافة إلى اعتبارات أخرى- يدعونا إلى التركيز على

بناء منهجية فكرية وعقلية صحيحة تمكّننا من إدراك الأمور على وجهها، ومن وزن المعلومات وغربلتها والاستفادة منها بطريقة مثمرة.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أننا نهوّن من شأن المعلومات، أو ندعو إلى الاكتفاء بالإمكانات العقلية عنها، فهذا غير وارد إطلاقاً، لكن المراد هو لفت النظر إلى احتفاظ البنية الفكرية الجيدة بمكانتها المرموقة على الرغم من طوفان المعلومات الهادر.

إن من يملك معلومة كمن يمتلك قطعة ذهبية لكن من يملك منهجاً صحيحاً فهو كمن يملك مفتاح منجم من الذهب!

إننا نجد في القرآن الكريم والسنة المطهرة كثيراً من النصوص التي تساعدنا على تأسيس منهجية فكرية راقية لكن المشكلة أن حالة (الوهن) التي نمر بها تجعل انتفاعنا بمبادئنا وأصولنا محدوداً، كما أن إدراك تلك الأصول بطريقة رتيبة أو مبتذلة يخفّض من فاعليتها وزخمها في تحريك الحياة الفكرية وترشيدها!

وسأسوق هنا بعض الأسس والمنطلقات التي تمثل ركائز في البناء الفكري السليم مع إيماني العميق بضرورة الاستمرار في اكتشاف المزيد، والتوسع الدائم في إيجاد التطبيقات الملائمة لكل ما نجتليه.

١ - التثبت:

نعني بالتثبت تنظيم ردود الفعل والسيطرة عليها تجاه الأحداث والأخبار المختلفة التي تبلغ الواحد منا؛ وقد دلتنا الخبرة التاريخية على أن كثيراً من التزيد والوهم والمبالغة والتفسيرات الخاصة والخاطئة- إنما يقع في الروايات الشفوية التي يتناقلها الناس؛ بالإضافة إلى ما تدفع إليه الأهواء، وتقتضيه المصالح الذاتية، ومن ثم فإن الموقف الصحيح يتمثل في الأناة و التريث أولاً،

ومحاولة الاطلاع على الحقيقة ومعرفتها بشكل دقيق قبل إصدار الحكم. وفي هذا يقول -جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[1].

٢-جهاد الأهواء:

إبعاد عملية التفكير عن تأثيرات الأهواء والرغبات الخاصة أمر بالغ الصعوبة؛ حيث إن التركيب اللغوي على درجة بالغة من المرونة، وهذا يتيح لنا خيارات دلالية كثيرة، كما أن الأعراف الاجتماعية ذات أوساط متغيرة؛ مما يخفف من صرامتها في النهاية، وهذا كله يسمح للأهواء أن تختلط بالاجتهادات الخاصة، ويجعل كشفها عسيراً.

وحين ينشأ المرء في بيئة تأصلت فيها عادات عقلية ونفسية، تميل نحو الحياد في إصدار الأحكام، وتأنف من التحيز فإن ذلك ربما يكون أكبر مساعد له على التجرد من الميول الذاتية، ولا سيما في المواقف الصارخة. ومع هذا فإن المسلم مطالب دوماً بأن يحاول إيجاد نوع من الرقابة الشخصية على أحكامه التي يصدرها، واجتهاداته التي ينتمي إليها، قياماً بأمر الله الذي نهانا في مواضع عديدة من الكتاب العزيز عن الاستسلام للأهواء والرغبات، حين قال -سبحانه-: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[2]. وقال -سبحانه- ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[3].

إن الأمر لا يقتصر في الحقيقة عند حدود محاربة المرء لهواه، وإنما يتعداه

(١) سورة الحجرات: ٦

(٢) سورة البقرة: ١٢٠

(٣) سورة الأنعام: ٥٦

إلى ممارسة نوع من الضغط الأدبي على أولئك الذين يخضعون لأهوائهم بشكل سافر؛ حتى لا تنتشر في المجتمع أنماط ونماذج فكرية ونفسية مريضة.

٣- الإنصاف:

الخير المحض نادر، والشر المحض نادر، والحق القطعي والباطل القطعي يكونان غالباً في الأصول الكبرى، أي في المسائل الخارجة عن دائرة الاجتهاد، وهي مهما تكن كثيرة فإنها في النهاية محدودة. أما في المسائل والمواقف والأحداث التي يحكمها الاجتهاد فهي لا متناهية، ونحن نفرّق بين خطأ صدر عن مجتهد مخلص مؤهل، وبين خطأ سببه الجهل المفرط أو الرعونة النفسية؛ فالأول مأجور على ما بذله من جهد ونَصَب في محاولة الوصول إلى الحق، وعلى الثاني وزر.

وحتى لا نقع في الحيف ونحن نقوّم الأشخاص والمواقف فإن علينا أن نمتلك النظرة التفصيلية بعيداً عن التعميم وإطلاق الأحكام الكبرى، وقد علّمنا القرآن الكريم ذلك في مواضع عديدة، منها قوله سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1]

وقال -سبحانه-: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[2] وعلينا فضلاً عن ذلك ألا نُغفل الظروف المحيطة، وألا نقطع الأحداث عن سياقها التاريخي؛ فالنصر في معركة صغيرة- كبدر- يكون ذا أهمية بالغة بالنظر إلى كونه نقطة تحول خطيرة في حياة الدولة الإسلامية الوليدة. والقيام بقتل إنسان دفاعاً عن نفس أو مال

(١) سورة آل عمران :١١٣

(٢) سورة آل عمران :٧٥

يختلف اختلافاً جذرياً في كل اعتبار عن قتل سببُه نزوة من النزوات، وهكذا...

إن المشكلة أن كثيراً من الناس مصاب بعمى الألوان؛ فهو لا يبصر إلا الأبيض والأسود، مع أن بينهما ألواناً كثيرة يختلط فيها البياض والسواد على درجات كثيرة.

ويعلّمنا الإسلام مرة أخرى أسلوباً عظيماً في الإنصاف يتمثل في أن نعامل الناس وفق مقاييس ومعايير نحب أن يعاملونا بها.

وفي هذا يقول ﷺ :"... فمن أحبَّ أن يزحزح عن النار، ويُدخل الجنة فتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتَى إليه"[1].

٤- لكل شيء ثمن:

في عصرنا الذي نعيش فيه توازنات معقدة للغاية، وعلى كافة الأصعدة، وهذه التوازنات تؤدي باستمرار إلى ملء الفراغات وسد الثغرات، كما تدفع بكل شيء مجاني إلى أن يكون بثمن؛ وهذا يعني أنه صار من العسير أن نحصد كل الميزات لمشروع أو خطة دون أن ندفع مقابلها ثمناً معيناً، قد يكون ثقافياً، وقد يكون اجتماعياً، وقد يكون اقتصادياً!!

في عصر التواصل الكوني صار من الصعب تفادي آثار التغيرات العالمية التي تحدث في قلب العالم، أو على أطراف المعمورة؛ فعالم الأثرياء لا يستطيع أن يكون بمنجاة من شيء من معاناة عالم الفقراء، كما أنه ليس باستطاعة الشعوب المتخلفة أن تعزل نفسها عن إفرازات ثقافات العالم المتقدم وهكذا...

حاولت بعض الشعوب أن تنفتح على الخبرات والمنتجات العالمية ظناً منها

(١) صحيح مسلم: ٣ :١٤٧٣

أن ذلك يحملها إلى عالم الرقي والرخاء، فاكتشفت أن ذلك عسير الحدوث، لكن الذي حدث هو انهيار بنياتها القديمة دون أن تتمكن من تشييد بنيات حديثة مناسبة؛ فانكشفت ثقافياً، وتأزمت اقتصادياً!!

وفي المقابل فإن بعض الشعوب اختبأت خلف أبواب موصدة من العادات والتقاليد والخصوصيات ظناً منها أن ذلك يعصمها من طوفان الثقافة المادية المعاصرة، فكانت النتيجة أن ابتعدت عن عصرها وسادها شعور بالضعف والغربة، ثم ما فتئت أن انهارت السدود، وذهب الصالح والطالح!

بعض الشعوب المسلمة في جنوب شرق آسيا شهدت نمواً اقتصادياً سريعاً، وتحسَّنت حالتها الاقتصادية، لكن ذلك لم يكن دون ثمن أيضاً حيث حدثت هجرة واسعة من الريف إلى المدن للعمل في المصانع، وحدث نوع من التفكك الاجتماعي بسبب انتقال الشباب إلى بيئات واسعة انعدمت فيها الرقابة الاجتماعية...

وركَّز بعض المصلحين على التنظير للقضايا العقلية والفكرية؛ فأحدث ذلك في أوساطهم نوعاً من الترهل الروحي والسلوكي، كما أن آخرين عنوا بالجانب الروحي، وأهملوا الفكر والنظر العقلي، فكانت النتيجة الاغتراب عن العصر والارتباك في التعامل مع أحداثه، وفهم متطلباته، وهكذا...

وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريق الوحيد المتاح أمامنا وأمام غيرنا هو أن نعمد إلى القيام بحسابات وموازنات خاصة لكل اتجاه أو موقف أو خطة، وذلك ممكن مهما تكن الخيارات صعبة، والمهم آنذاك هو أن نمتلك الحكمة والخبرة الكافيتين لإدراك حقيقة الثمن الذي سيتم دفعه نتيجة الثمار التي سوف نجنيها، وذلك حتى نقلصه إلى أقصى حد ممكن.

٥- لكل قاعدة شواذ:

تميل القوانين المتعلّقة بمظاهر الطبيعة إلى الصرامة والدقة، وذلك من رحمة الله - تعالى- بعباده حين سخّر لهم هذا الكون على وجه يسهل معه فهمه والتعامل معه...

أما على الصعيد الإنساني فإن الأمر مختلف حيث تكون القوانين التي تحكم قضاياه غير صارمة، مهما حاولنا أن نكون دقيقين في صياغتها، ونظراً لكثرة العوامل المكوِّنة للظاهرة الإنسانية فإن الباحثين في مجالاتها يجدون صعوبات متزايدة كلما غذّوا السير في رحابها، ومن ثم فإن القواعد في المجالات التربوية والنفسية والاجتماعية تكون معبِّرة عن اتجاهات وانطباعات أكثر من أن تكون محدِّدة لماهيات معيّنة.

بناء على هذا فإننا نعلم يقيناً أنه ليس كل من نشأ في بيت يتشاجر فيه الأبوان سيكون في المستقبل معقَّداً أو يائساً، أو نزاعاً إلى الانتقام. ونحن نعلم أيضاً أنه لا توجد بلدة، جميع أهلها من النوابغ أو البلهاء، كما أنهم لا يكونون جميعاً من الكرماء أو الأشحّاء، والسبب في هذا أن العوامل الكثيرة التي تتحكم في تكوين الظاهرة الاجتماعية كثيرة جداً، وهي موزّعة على مجالات مرئية وغير مرئية، بعضها بيئي، وبعضها وراثي، بعضها أساسي، وبعضها هامشي؛ ونِسَبُ مساهمة كل عامل في تكوينها متفاوتة بين شخص وآخر، مما يجعل التنبؤ بردود أفعال شخص بعينه على التحديات المختلفة- أمراً غير مقروء دائماً.

إن من المؤسف حقاً أن لدينا أعداداً ضخمة من الناس- ربما كانوا يشكلون الأكثرية- يميلون إلى إطلاق الأحكام العامة على كل شيء من حولنا، ومع أن لكل قاعدة شواذ تخرج عنها، ونسبة الشذوذ قد تكون في بعض الأحيان عالية،

وهذا التعميم مخالف لطبيعة الظواهر الإنسانية التي تتأبى على الحدود الصارمة.

وهؤلاء الناس أنفسهم يكررون الخطأ نفسه لكن بصورة أخرى، وذلك حين يسقطون القاعدة بالمثال الشاذ الفرد؛ فإذا قلنا: إن الحروب الطاحنة تترك وراءها فساداً أخلاقياً نظراً لسوء الظروف التي تخلّفها وراءها، فإن هذا يعني أن الوضعية العامة تكون كذلك، ولا يعني شمولها لكل فرد؛ لكن يأتي من يقول: إن قاعدتكم غير صحيحة بدليل أن فلاناً من الناس فَقَد أهلَه ومالَه في الحرب، ولم يتغير سلوكه، بل هو الآن أحسن حالاً!!

إن غياب (اللغة الكمية) عن استعمالاتنا اليومية أو ضعفها هو الذي يتيح لبعض الناس إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ، وهو الذي يدفعنا إلى التعميم في مسائل تأباه طبيعتها، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً الارتباط المطرد بين الرقي الحضاري وتوفر الإحصاءات العامة والأرقام الكثيرة التي تعطي الأشياء مساحتها الطبيعية، كما تعطي الشذوات حجمها الحقيقي.

٦- الوصول إلى محكّات نهائية:

إن تشابك جوانب حياتنا المعاصرة وتعقُّد قضاياه جعل الإمساك بطرف الخيط لكثير من المشكلات أمراً بالغ الصعوبة، ونجد هذا واضحاً كلما دخلنا في نقاش حول قضية تربوية أو اجتماعية أو أخلاقية، حيث تختلف العوامل المؤثرة فيها، فإذا صرنا إلى طرح شيء من الحلول اتسعت دائرة الخلاف بشكل مخيف حتى إننا لا نستطيع أن نتفق على شيء أبداً!.

ولا ريب أن من الحيويّ جداً أن نوجد في مجتمعاتنا قدراً من مساحات الاتفاق وقدراً مناسباً من المسلّمات الفكرية والثقافية، حتى يمكن تصفية وغربلة كثير من المقولات وألوان الجدل، ليتحمل كلٌّ مسؤوليته تجاه ما ينبغي

عليه عمله.

ونعني بالمحكّات النهائية: المقولات التي تحدد تحديداً دقيقاً طبيعة قضية ما وارتباطاتها وتداعياتها، كما تحدد ما ينبغي البدء به من معالجات، والعناصر التي ينبغي التركيز عليها أكثر خلال تلك المعالجات. ولنضرب مثالاً توضيحياً لما نقول.

إذا انتهى بنا النقاش إلى أن لدينا تخلفاً صناعياً، وانتهينا إلى ضرورة الخلاص من هذه الحالة وجب القول: من أين تكون البداية؟ قد يقول قائل: البداية تكون في توسيع التعليم المهني، ولإقامة مراكز البحث العلمي الرائدة من أجل نشر الصناعات وتحسين جودتها وخفض كلفتها وإذا سلّمنا بصحة هذه البداية وجب القول إن مراكز البحث والتوسع في التعليم المهني يحتاج كل منهما إلى أموال طائلة، فمن أين تأتي الأموال؟

قد يقول قائل: تأتي من الضرائب واستثمارات الدولة. وهنا قد يقول قائل إن المتوفر لدى الدولة من أموال ينفق- مثلاً- على افتتاح مدارس ابتدائية للأطفال الجدد، ولا ريب أن لهذا أولوية مطلقة. ثم إن الضرائب التي ستحصل عليها الدولة ستكون ضئيلة ما لم يكن الناتج القومي وفيراً، وإن التوسع في فرض الضرائب سوف يصدُّ الأموال الداخلية والخارجية عن الانخراط في دورة الإنتاج، مما يعني الدوران في حلقة مفرغة! يمكن أن يقال بعد هذا إن توفير المال اللازم للتوسع في البحث العلمي قد يأتي عن طريق تخفيض الاستهلاك وشيء من التدبير وفرض القيود على السلع الكمالية إلى أن يتكوّن رأس مال وطني مناسب، وهذا قد يكون صحيحاً، لكن هذا يتطلب مناخاً ثقافياً واجتماعياً معيّناً حتى لا يشعر الناس بالحرمان، وحتى لا ندخل في نفق مظلم كذاك الذي دخلته

بعض الدول ذات الاقتصاد الموجَّه في يوم من الأيام.

وهنا يمكن القول: إن الحل النهائي هو أن يتغير الإنسان لدينا من خلال تغيير النسق القيمي لديه، ومن خلال توفر القدوات الخيرة، ومن خلال الوعي الجيد بمطالب المستقبل.

ويكون المحك الأخير آنذاك هو أن حل المشكلة الصناعية يتطلب أعمالاً جليلة على الصعيد الثقافي والأخلاقي.

لا يشترط - بالطبع- أن يكون ما قلناه صحيحاً في هذه الإحالات والتداعيات وإنما قصدنا إلى أن من الضروري تأسيس العقلية المنهجية، وذلك لا يكون إلا إذا امتلكنا الخيال، وتحلينا بفضيلة الصبر على متابعة المشكلة حتى مراحلها الأخيرة؛ وقليل منا من يفعل ذلك!

إن هناك أسساً عديدة يمكن أن نذكرها، من نحو: (النظر إلى الأمام)، و(إدراك العلاقات الجدلية)، و (فهم طبائع الأشياء ومنطقها)، و (الرؤية متعددة الأبعاد) وغير ذلك مما قد تضيق عنه هذه المساحة، لكن الذي لا بد من قوله هو أن من المؤسف حقاً أن عالمنا الإسلامي ما زال عازفاً عن الاهتمام بقضايا الفكر على صعيد المناهج الدراسية، مع أنني أزعم أن التقدم الفكري شرط أساس لإحراز التقدم على جميع الأصعدة الأخرى حتى الروحية منها !

ومن هنا فإن من الضرورة بمكان أن نقرر على طلاب المدارس الثانوية مادة في منهجية التفكير يشرح لهم فيها بعض المبادئ الأساسية فيها، ثم تُرقَّى موضوعات المقرر؛ ليدرس مرة أخرى في المرحلة الجامعية بغية تسديد الفكر، وغرس بعض مبادئ المنطق والموضوعية والرشد العقلي. وقد سبقتنا دول عديدة إلى هذا، وعندها ألوف المدرسين الذين يدرسون مقررات تتناول قضايا تتعلق بتعليم التفكير وطرقه وركائزه وآلياته.

١٦ أهمية التربية

جمع الله- جل وعلا- للإنسان بين التكريم والابتلاء، ومنَّ عليه بتسخير الكون له. وهذا التسخير كثيراً ما يتجلى في صور وقابليات وإمكانات متاحة، وعلى الإنسان بعد ذلك أن يقوم بواجبه في استثمار الإمكانات وصقل القابليات، وإلا كان مآله النكوص على عقبيه وخسران كثير من التكريم الذي وهبه الله - تعالى - إياه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾[1] فالتربية هي الأداة التي استخدمها بنو البشر لوضع الطفل في بداية طريق النمو والإفادة من الإمكانات االثقافية والاجتماعية المتوفرة. ولعلنا نستجلي أهمية التربية في حياة الأفراد والمجتمعات من خلال المفردات التالية:

١- لا يولد الإنسان إنساناً، حيث لا يملك شيئاً، من مقومات الإنسانية: اللغة والفكر والمشاعر والأخلاق.. ولا ينتقل إليه شيء من ذلك إلا بالوراثة من أبويه وعليه أن يكتسب كل ذلك من خلال التربية الأسرية والاجتماعية. ويظهر هذا جلياً حين نقارن بين إنسان الغابة الذي لا يحسن أكثر من جني الثمار، وبين إنسان يعمل في مركز أبحاث، أو يقود طائرة حديثة!

إن عدم إنجاز طبيعته هو سر عظمته، حيث يعني ذلك مطاوعة بلا حدود. مع التقدم الحضاري المتسارع صارت الهوة بين الإمكانات الفطرية لدى الطفل وبين ما ينبغي أن يكون عليه عند النضج - واسعة للغاية؛ ولذا فإن طفولة

(١) سورة التين: ٤-٦

الإنسان صارت اليوم تستغرق نحواً من ٣٠٪ من عمره؛ فهو حتى يجد العمل المناسب، ويفهم الحياة حوله على نحو جيد بحاجة إلى أن يتعلم ويتدرب، ويكتسب المهارات إلى قرابة سن الثامنة والعشرين أو الثلاثين. وهذا كله يأتي عن طريق التربية، بمعنى أن وظيفة التربية في اكتمال الإنسان تزداد أهمية واتساعاً. والتقصير فيها، صار ضرره أعظم مما كان في الماضي.

٢- إن التربية هي التي تقوم بتكوين الوعي لدى الناشيء، وهي التي تغرس في نفسه ضرورة التطلع إلى المثل العليا والأهداف الكبرى؛ حيث يستلّ المربي من مجموع ما تفيض به ثقافة الأمة، ومما هو متوفر من معرفة - ما يعتقد أنه أساسي في تكوين من يشرف على تربيته.

والمشكل أن التربية لدينا لم تحقق نجاحاً واضحاً في جعل الناشئة يدركون الأهداف الكبرى على نحو صحيح؛ فالملاحظ أن الناس يستشعرون الهدف من هذه الحياة على نحو رتيب أو مبتذل ، وهذا في حد ذاته، يجعل درجة التفاعل معه والحماسة لتحقيقه ضعيفة. وهذا ما نلاحظه اليوم، حيث يضمر كل مسلم في نفسه أن هدفه الأسمى هو رضوان الله - تعالى- لكن انعدام الفاعلية الشعورية والذهنية في إدراكه، أدى إلى ضعف السعي إلى تحقيقه والارتفاع إلى مستواه لدى السواد الأعظم من المسلمين. أما الإلحاديون والماديون ومن على شاكلتهم فقد أضاعوا الأهداف الكبرى جملة؛ وقد عبّر عن هذا (آنشتاين) حين قال: « إن حضارتنا تمتلك معدات كاملة، لكن الأهداف الكبرى غامضة »!.

إنها لمأساة أن تنتشر المعرفة، وتتدفق المعلومات من كل اتجاه، ومع ذلك يزداد ضعف تكوين الشخصية لدى الجيل الجديد، ويقل الحكماء وذوو البصائر النافذة! والسبب في هذا أن كثيراً من أنشطتنا التربوية قد ابتعدت عن تلك

الأهداف الكبرى، مما أفقدها المنطقية والتجانس. ولذا فإن التربية الفاضلة، ليست تلك التي تنثر أمام الناس مجموعة من الفضائل والحكم والنصائح، وإنما تلك التي تمتلك خيطاً من نور، ينتظم جميع مقولاتها، ويدفع بها إلى بؤرة شعور الفرد وأعماق بنيته الفكرية وأعماق وعيه، وهذا لن يكون ما لم يسدّ نوع من التناغم بين جميع الأجهزة التربوية والإعلامية والتثقيفية.

٣- مهما تقدمت المعرفة، فإنه سيظل في معارفنا بعض الفجوات، فالعلم يثير من الأسئلة على مقدار ما يمنحنا من اليقين. وتبرز أهمية التربية العقلية في أنها تنمي لدينا ملكات إدراكية، وتؤسس مكونات ثقافية، تمكننا من إصدار أحكام سديدة على الرغم من نقص المقدمات والمعلومات. الإنسان الذي لم يتلق تربية جيدة، قد لا يستفيد حتى من المعلومات اليقينية، ويفسر الأشياء تفسيراً خاطئاً ويسهل خداعه، وفي هذا يقول علي - رضي الله عنه - : « رأي الشيخ ولا رؤية الصبي». فالشيخ يُصدر رأيه في أمر ما مع نقص المعلومات لديه مستخدماً لخبرته. أما الصبي فإن عقله لما يراه، وتفسيره له يكون في أغلب الأحيان فجاً نظراً لجهله بطبائع الأشياء ومجريات الأحداث.

تتوسل التربية إلى بناء التفكير المنطقي بغرس عدد من الأفكار الأساسية، كتلك المتعلقة بسنن الله - تعالى - في الخلق وتلك المتعلقة بطبائع الأشياء ومنطقها، إلى جانب فقه طبيعة الارتباط بين الأسباب والمسببات وعلاقة الشاذ بالمطرد، والتفريق بين المعطيات اليقينية والظنية.

إذا ربينا الشاب مدة عشرين سنة، ثم وجدناه يصدر أحكاماً جزافية، بعيدة عن المعقول، معزولة عن الخبرة، فهذا يعني أن التربية الفكرية- أخفقت في

الوصول إلى هدف من أهم أهدافها.

إن ما يقدم للعقل البشري من تغذية علمية وتربية منطقية وإطلاق للخيال، أهم من إمكاناته الفطرية الأساسية، وماذا يمكن لراعي غنم أميّ يملك إمكانات عقلية فذّة أن يصنع بها؟

٤- عن طريق التربية... والتربية وحدها، يمكن للإنسان أن يتأهل للعيش في المجتمع، والواحد منا لا يشعر في العادة بعظمة الفوائد التي تعود عليه بسبب نشوئه في المحاضن الاجتماعية المختلفة، وتلك الفوائد في الحقيقة أجلّ من أن توصف؛ فالمرء المتوحش نشأ أصلاً في بيئة متوحشة، والإنسان المهذَّب الرقيق اللماح اكتسب ذلك من مجتمع يقدِّر هذه الصفات، ويربي عليها.

غالبا ما يؤكد رجال التعليم والفكر على ضرورة منح الاستقلالية للأطفال والفتيان، إلا أن كبار السن، يدركون المخاطر التي يتعرض لها الناشيء بسبب اختلافه عن السياق الاجتماعي السائد؛ مما يدفعهم دفعاً إلى الضغط على أطفالهم، كي يقلدوهم، ويكونوا نسخاً مكررة عنهم. لا شك لدينا في أن الإصرار على التماثل الشديد، قد يدفع بالمجتمع إلى التحلل الذاتي، كما أن التنوع الثقافي الشديد، قد يدمر الكيان الاجتماعي تدميراً تاماً؛ مما يعني أن نجاح التربية في مهمتها، يتوقف على وجود معايير واضحة تمنحنا القدرة على اكتشاف القدر المطلوب من التماثل والتنوع في المجتمعات الإسلامية.

على المستوى المنهجي العام لدينا محاور وأطر عامة واضحة في هذا الشأن، وهي تتمثل على نحو أساسي في عقيدة التوحيد، وما سماه الأصوليون بـ(الكليات الخمس)، وهي حفظ الدين وحفظ النفس والعقل والمال

والعرض، وما يدور في فلك هذه الكليات من أحكام وأدبيات.

ويضاف إلى هذا (المباحاتُ) التي تمثل الهيكل الأساسي للتنوع الاجتماعي بشتى صوره. وأعتقد أن التربويين المسلمين بحاجة إلى تعميق الفهم والخبرة بهذه الأصول والمحاور؛ حتى يستطيعوا القيام بواجبهم في تهيئة الناشئة للتفاعل مع هذه المحاور، والتحرك داخل الأطر التي ترسمها، ومع هذا فلا يمكن أن نستغني عن الخبرات والدراسات التي تضع النقاط على الحروف حول الاستخدام الأمثل لكل ذلك.

إن التربية عبارة عن صياغة اجتماعية للفرد، وعلينا أن نحسن المهارات التي تمكننا منها على الوجه الأمثل؛ والله مولانا.

مسؤوليات المعلم ١٧

لا نختلف اليوم في أن المهمة الأساسية للمدارس، هي تثقيف العقول، ومحاولة إغناء الطلاب بالمعلومات المختلفة، ومساعدتهم على استيعاب المناهج والمواد المقررة، لكن هذا ليس المطلوب، ولا كل الواجب؛ فكثرة المشكلات التي تواجه الشباب، وكثرة حاجات العيش في زماننا الصعب، جعلت عمل المعلم اليوم مزيجاً من مهام الأب والشارح والقائد ومدير المشروع والناقد والمستشار. وسوف نشير إشارات سريعة إلى ما نعتقد أن علينا – معاشر المعلمين – أن نقوم به، ونجعله موضع اهتمام وعنايتنا، وذلك من خلال الحروف الصغيرة التالية:

١ – تنمية الاتجاهات الخلقية:

إن الأسر والمدارس تعمل على جهاز واحد، هو الأطفال، وإن الخطوط العميقة في شخصية الطفل تتشكل في السنوات الست الأولى من عمره؛ مما يعني أن مهمة الأسرة التربوية شديدة الحساسية. ثم يأتي دور المدرسة لترعى البذور وتزكيها، ولتعزز الأنماط السلوكية التي تطبّع بها الطفل في بيته؛ حتى يشب الطالب عن الطوق، وتنال شخصيته كل أبعادها النهائية. وما لم يقم المعلمون بواجبهم، فإن الانتكاس يظل أمراً وارداً. ولا ينبغي أن ننسى أن كثيراً من الأسر لا تقوم بواجبها تجاه غرس القيم الإسلامية في نفوس أبنائها، كما أن كثيراً منها ليست مؤهلة للقيام بذلك، بل إن بعضها يؤسس أخلاقاً سيئة، فيأتي

الطفل إلى المدرسة، وهو في حالة مَرَضية، تحتاج إلى معالجة. في خضم (العولمة) واختلاط القيم والمفاهيم والآراء، صار من الحيوي أن يقوم المعلمون بشرح الكثير من المفاهيم المتعلقة بالحلال والحرام، والصواب والخطأ، والأخلاق الحميدة والأخلاق الذميمة، وتثبيت الاتجاهات الخيرة، وكل ما يساعد على صقل الشخصية. إن عصرنا هذا هو عصر القلق النفسي، والتحلل الخلقي، والجفاء الاجتماعي؛ وإن على المدرسة أن تعرف واجبها في صياغة جيل يحمل مناعة ضد هذه الأوبئة.

٢-تجسير العلاقة بين الأجيال:

نحن أمة ذات تراث ضخم، وتجربة حضارية ثرية، والوعي الجيد بها قد يكون أول ما يشترط لاستيعاب العصر، والعيش فيه بكفاءة وفاعلية. والتطور الهائل في كل شيء أوجد هوة واسعة بين الأجيال الحاضرة، وبين تراثها، كما أنه أدى إلى إيجاد اختلاف واسع بين كل آليات الفهم والتحليل التي سادت في الماضي، وهذه السائدة اليوم. ومهمة المدرس أن يقوم بعملية ترجمة واسعة وأمينة لكل المعطيات الحضارية والتراثية، وتقديمها للطلاب بلغة معاصرة، وبذلك يكون قد جسَّر العلاقة بين الماضي والحاضر. وليست هذه المهمة من المهام السهلة، فنحن لا نملك معايير صارمة، ولا أدوات دقيقة لفهم الماضي، كما أن التعبير عنه بصورة منصفة ومتوازنة هو مشكلة أخرى، لكن علينا على كل حال أن نقدم للأجيال الحاضرة من مذخورنا الحضاري ما يعمق انتماءها لهذا الدين ولهذه الأمة، وأن نقدم المغازي الحضارية التي تساعدها عن فهم هذا العصر، وتملّكها الحساسية الكافية نحو ما ينبغي عليها أن تفعله.

٣-تحرير العقل من أغلاله:

العادات العقلية ظروف شرطية للكفاية الفكرية، فهي تحدد للعقل التخوم والمدارات التي سيعمل فيها، كما أنها تحول دون شروده وبحثه في مسائل لا تلائم الواقع. وعلى الرغم من ذلك فإن العادة عندما تصبح نسقاً مطرداً رتيباً، فإنها تغلق الباب في وجه التفكير، وتصده إلى درجة الشعور بأن الحاجة إلى التفكير معدومة، أو غير ممكنة[1].

من الواضح أن نوعية الثقافة، وأشكال المقولات التي (تقولب) عقلية المرء، هي التي تحدد آفاق فكره، كما تحدد منهجية امتصاصه للمعارف، وطبيعة تحليله لها، والاستفادة منها. ولذا فإن كل ثقافة لا تخضع للتمحيص والمراجعة على نحو مستمر، يمكن أن تتحول إلى أغلال تكبل العقل، وتحوّله من أداة تحرر وارتقاء إلى أداة تكرّس الأخطاء وتنتجها! على سبيل المثال حين يعتقد أهل بلد في شخصٍ ما (الولاية) فإن طبيعة ذلك الاعتقاد تولد عدداً من من عادات التفكر لديهم، فإذا قال بعض الناس: إن ذلك الشخص ليس بولي ساد توقع بأن أذىً ما سيحل بذلك الجاحد. وإذا أكل ذلك (الولي) في بيت قوم، وأصابهم خير، فهو ببركة أكله عندهم. وإذا قال أحد الناس: إنه شاهده يعمل عملاً مخالفاً للشريعة، فإن الناس يكذّبونه، أو يقولون: إنه واهم في رؤيته، أو إن ذلك العمل ليس مخالفاً للشريعة، وقد يقول بعضهم: إنه عَمِله حتى يخفف من وتيرة اعتقاد الناس بصلاحه..!! وهكذا يكون اعتقاد أهل ذلك البلد بولاية ذلك الشخص قد حدّد لديهم أفق التفكير والتعليل والتعامل مع المعلومات الواردة. ومع

(١) قاموس (جون ديوي) للتربية :١٤٢

مرور الأيام يعمم (العقل) هذا الأسلوب ليستخدمه في حالات كثيرة أخرى، مما يؤدي إلى ترسيخ عادات فكرية ونفسية ذرائعية وخرافية!

إن مهمة المعلم أن يحرر عقول الطلاب من كل المقولات والطروحات والأنماط والعادات المنبثقة من أدبيات العنصرية والإقليمية والقبلية، ويقوم إلى جانب ذلك بتأسيس العقلية المنهجية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم، مستعيناً بالخبرات التي خلّفها كفاح البشرية ضد استعباد الثقافات المحدودة للعقول، وضد أشكال التحيز والرؤى المشوهة والأحكام المبتسرة. وما أعظم العتاد الثقافي والفكري الذي يحتاجه هذا العمل الكبير؟!

٤ - مساعدة الطلاب على تحديد أهدافهم:

منذ سن الثامنة يبدأ الطفل بالتساؤل عن العمل الذي سيرتبط به في المستقبل، ومنذ ذلك الحين تبدأ مسؤولية المعلمين في مساعدة الطلاب على التطلع وإلى الارتباط بأهداف تناسب طاقاتهم ومواهبهم؛ وهي إلى جانب ذلك ممكنة وذات معنى.

من المهم في معالجة هذا الموضوع مع الطلاب أن يتم في إطار إشعارهم بالمسؤولية تجاه أنفسهم وأمتهم؛ إذ إن (الشخصية) لا تنبثق إلا من خلال الشعور بالمسؤولية. والأهداف التي يسعى الناشئة إلى تحقيقها، قد تصبح مصدراً للأنانية والتوتر الاجتماعي، ما لم تعبر عن الرؤية الاجتماعية لما ينبغي أن يتم إنجازه في المستقبل؛ فإذا كان المجتمع يشكو من نقص في المشتغلين بالبحث العلمي - مثلاً- أو في المهن اليدوية... وجب تركيز البحث والتوجيه والحوار مع الطلاب على ما يصبو إلى إحداث التوازن فيه.

ومن وجه آخر فإن تحقيق أي هدف، سيتم في جو التجربة المعيشة للمجتمع، وعلى خلفية ثقافية وتاريخية محددة، ومن المهم للمعلم أن يكون على استيعاب حسن لذلك، حتى يكون تحديد أهداف الأفراد مؤطراً بمطالب المجتمع الذي سيعيشون فيه، وبتجاربه وحاجاته.

٥- إعانة الطلاب على الوضوح الفكري:

هذه من المسائل التي تواجه كل معلم؛ فالغموض وسوء الفهم والخبرة المشوَّهة من ملازمات الجنس البشري، وكما قيل فإن الذي لا يفهم أبداً، هو على الأقل في حمىً من سوء الفهم!

إن النظام الرمزي لدى الطلاب- ولا سيما الصغار منهم - غير مكتمل، ولا واضح، كما أن وسائطهم المعرفية غير ناضجة، ولذا فإن ما يستخدمه المعلمون من عبارات في شرح القضايا الكبرى، لا يؤدي وظيفته التفهيمية على الوجه المطلوب، فالفتى يدمج كل ما يسمعه في أُطر فكرية ومعرفية فجة، مما يجهض فاعلية كثير من المدلولات الرمزية، ويحول دون وصول كثير من المعاني الراقية التي يجب أن تصل إليه.

حتى يتمكن المعلم من إيصال أكبر عدد ممكن من المعاني الواضحة إلى أذهان الطلاب، فإن عليه أن يعتمد طريقة الحوار، وأن يفسح صدره لسماع مناقشات الطلاب، وما قد يعرضونه من صور سوء الفهم، وعلينا إلى جانب هذا أن نأتي بالنماذج والأمثلة القريبة من خبرة الطالب. وللإحصاءات والأرقام إيحاءات ودلالات ذات قيمة عالية في توضيح الأفكار.

من المفيد في هذا السياق تعويد الطلاب مناقشة المسائل عن طريق التحليل

والتركيب، كأن يقال لهم: ما العوامل التي أدت إلى تأخر العالم الإسلامي صناعياً، أو ما الأسباب التي أدت إلى انتشار ظاهرة التدخين، أو ظاهرة قلة الانتحار بين المسلمين... وكأن يقال لهم: إذا حدث انخفاض في مستوى التعليم في بلد ما، إلى جانب نسبة عالية من الفقر وشح الموارد، فما الحالة الاجتماعية التي يمكن أن تنشأ عن ذلك؟

إن هناك مسؤوليات أخرى أمام المعلمين، مثل إثارة الفضول لدى الطلاب، وتكميل المناهج الدراسية، و جعل أنفسهم قدوات ونماذج فاضلة لطلابهم، لكن لا تسمح لنا هذه المساحة باستعراضها.

وأعتقد أن المعلم سينجح في القيام بما ذكرناه إذا امتلك فضيلتي الوعي والاهتمام، وإذا ارتقى إلى أفق ما يتوقعه طلابه منه. والله المستعان.

الشخصية العلمية ١٨

إن كل الأمم التي تحتل مراكز متقدمة في العالم اليوم، استطاعت على نحوٍ ما أن تخطو خطوات واسعة على طريق تكوين أبنائها تكويناً علمياً جيداً من خلال بناء الشخصية العلمية لديهم، وذلك ببعث الروح العلمية، وتأسيس العقلية العلمية المنهجية، حيث إن التقدم الصناعي والاجتماعي والاقتصادي، يحتاج إلى ذلك حاجة ماسّة؛ وإن أمتنا لن تستطيع أن تتجاوز الفجوة الحضارية الموجودة بينها وبين الأمم الأخرى، إلا إذا تمكنت من نشر الشغف بالعلم، وإيثاره، وارتكاب المخاطر من أجله، إلى جانب تمليك الناشئة أصول المنهج العلمي.

توطِّن الروح العلمية ركيزة مهمة من ركائز المجتمع العلمي والشخصية العلمية. وقياس ذلك سهل، فإذا أردنا معرفة ذلك فلننظر ماذا يعمل الناس إذا كانوا في إجازة، أو في مطار أو محطة قطار. ولننظر إلى نوعية أحاديث السمر والمجالس، فإذا كانت تتمحور حول ما ينبغي تدبره من شؤون دينهم ودنياهم، فمعنى ذلك أن هناك نوعاً من الامتلاك والتطلع إلى المعرفة. أما إذا كانت تدور حول تملك الأشياء، وحسد الناس... فهذا يعني أن المجتمع استهلاكي قبل أي شيء آخر.

إن من أهم ما تتطلبه الروح العلمية (النزاهة) ونعني بالنزاهة هنا الفصل بين الأهواء والمصالح وبين الحقيقة العلمية والقناعة المعرفية؛ فلا تكون الثانية في

خدمة الأولى؛ فالحقيقة يجب أن تظل حرة ومستعلية على الاستغلال والمتاجرة.

من نزاهة العالم أن يغير آراءه إذا وجد أن الحق مع غيره، بقطع النظر عما سيقوله الناس حينئذ. ومما يذكرونه في هذا السياق أن الإمام الشافعي، تناظر مع أبي عبيد القاسم بن سلام، فكان الشافعي يقول: إن القرء هو الحيض، وأبو عبيد يقول: إنه الطهر. فلم يزل كل منهما يقرر قوله، ويحتج له، حتى تفرقا وقد انتحل كل منهما مذهب صاحبه، وتأثر ما أورده من الحجج والشواهد!

إن تكوين الشخصية العلمية، لا يكتمل من غير امتلاك العالم لروح النقد. ولا يعني النقد التجريح، ولا التركيز على المعائب، وإنما يعني القدرة على إدراك الخصائص والميزات الإيجابية للشيء موضع النظر، إلى جانب إدراك نواقصه وسلبياته وفق أصول فكرية وثقافية معترف بها، إن النقد يعني القدرة على النظر إلى الأمر من وجوه وزوايا مختلفة، وبعيون الموالي والمعادي قبل إصدار الحكم.

ولا يتم هذا إلا من خلال أمرين:

الأول: هو خصوبة الخيال. وقبل كل شيء فإن من الممكن للخيال الواسع أن يكون ثلمة في الشخصية العلمية، من خلال ضعف رؤية الأشياء على ما هي عليه، أو من خلال النزوع إلى أفكار وآراء وهمية، إلا أن هذا عبارة عن عَرَض جانبي لفضيلة عظيمة.

إن الخيال يحملنا إلى عوالم لا تقع في مجال الخبرة البشرية، فبعضها يقع على حافة المستحيل، وبعضها على حافة الممكن، لكن نوعاً من الإدراك لها جميعاً حيوي لتحقيق قفزات علمية، وضمان مهم لاستمرار التقدم العلمي. يقول أحد الفلاسفة: «لولا الخيال لكان الإنسان بهيمة». وهذا القول على درجة عالية من

الشفافية فقد كان حتف كثير من الأعمال الجليلة بسبب جدب في الخيال؛ مما أوصد الأبواب في وجهها. إن الخيال يعلمنا أن ما هو محتمل قد يكون أهم من الراهن القائم فعلاً، ومعرفة ما هو كائن قد تفقد قيمتها إلا إذا ارتبطت بالإمكانات المحتملة.

الثاني: من مستلزمات النقد هو الثقافة الموسوعية المرتبطة بتخصص، فالمتخصص بالطب يحتاج إلى معرفة جيدة بعلوم الأحياء والكيمياء والنبات والسلوك.. والمتخصص بالتاريخ بحاجة إلى معرفة حسنة بعلوم النفس، والاجتماع والجغرافيا والاقتصاد... وهكذا.

إن الروح النقدية رقيقة وهشَّة، وهي بحاجة دائمة إلى تقوية وتدعيم مستمرين من خلال التحصيل العلمي. ولا يفهم مدى تعقد الواقع إلا من عرف كثيراً، وجرَّب كثيراً، وقضى على فرص الخطأ.

إن العقل المشتعل ذكاء من غير مساندة علمية ممتازة، يطرح فروضاً زائفة، وينتج معرفة شكلية.

إن تكوين الشخصية العلمية يتطلب أول ما يتطلب (الجو العلمي) المشحون بالأرواح المتوثبة والعقول المفتوحة والبحوث العلمية الراقية والإمكانات المساعدة. إنه الجو الذي تسوده تقاليد بحثية وعلمية راسخة، تجعل كل من يعيش فيه يتنفس الجدية والدأب والنزاهة والطموح والتضحية؛ وبغير هذا فإن المؤسسات العلمية لا تكون أكثر من أبنية لها كل الشكليات المتوفرة في مؤسسات العالم المتقدم، ولكن ليس فيها إلا القليل من مضامينها والقليل من إنتاجها ومساهماتها.

إن المهمة الكبرى لكل مربٍّ أن يحوِّل المعلومات إلى (معرفة) وهذا يكون من خلال تمليك الناشيء أصولاً وقواعد ومنظومات كبرى، وكلما جاءت معلومة أو جزئية تم دمجها فيها مع الربط المنطقي والعلمي الواضح. إن المعلومات لا تصبح ملكاً لنا إلا إذا أعملنا فيها ملكاتنا العقلية، ولذا فإن كل أشكال التعليم يجب أن يتلقاها المتعلم في إطارات من الفهم والتعليل والتحليل والربط والنقد، وبهذا كله تتشكل خطوةً خطوةً العقليةُ المنهجية والروح العلمية. هذا الأسلوب في التعليم هو الذي يحوِّل العلم من عبء، على الذاكرة إلى أداة تفتُّح وإنضاج للشخصية، ومصدر لبعث النشاط الفكري والهمة العلمية.

من أركان الشخصية العلمية (العقل المنهجي) وأخصُّ خصائص العقل المنهجي هو إدراك أشكال العلاقة التي تربط بين الأسباب والمسببات، حيث تخضع كل الظواهر والأحداث لعدد من العوامل والأسباب الداخلية والخارجية، المباشرة وغيرالمباشرة، وعلينا عند دراستها محاولة الوقوف عليها واجتراحها. إن مما ينمي قوانين السببية في عقولنا أن نحاول دائماً استعراض الأفكار والمقولات والطروحات المتعارضة، لنرى خصائص كل منها وانسجامه الذاتي، ومدى ما يمكن أن يكون لكل منها من نتائج، مع محاولة فهم الجذور والدوافع التي دفعت بها إلى الوجود. إن أكثر من ٩٠٪ من الأفكار والأساليب والنظم بينها نوع من التعارض والتناقض على مستوى من المستويات، وإنها جميعاً قابلة لنوع من التقويم والتمحيص؛ مما يتيح لنا فرصاً عظيمة كي ننمي المنهجية والسببية في عقولنا.

إن الإسلام حرَّم كل ما يمكن أن يعطل قانون السببية في العقل من نحو

السحر والكهانة والكذب، وأشكال الخرافة وسد المنافذ التي تؤدي إلى ذلك من نحو المبالغة والتشاؤم والتطير.. ويبدو أن أهم علة حرمت من أجلها الخمر ليس الإضرار بالدماغ، وإنما الإضرار بقانون السببية فيه.

إن علينا أن نعترف أن أكثر مؤسساتنا التعليمية لم تستطع أن تجعل من نفسها بيئات لتكوين الشخصية العلمية، كما أنها لم تفلح في إيقاد شعلة الشوق إلى العلم والاستمتاع بتحصيله؛ فالطابع العام طابع تلقيني تجاري، فالدراسة للشهادة، والشهادة للوظيفة، والوظيفة للتمتع بالحياة! ونستطيع القول: إننا فقدنا إخلاص السلف ودأبهم، ولم نستطع - في أكثر الأمر- أن ننظم الحياة العلمية، كما نظمها الغرب، كما لم نستطع إيجاد الباحث المفكر المبدع. فهل نحن محاصرون بين ماضٍ خسرناه، وحاضر لم ندركه؟!

١٩ حول تنمية الشخصية

يختلف علماء النفس وعلماء الاجتماع اختلافاً واسعاً في تعريف «الشخصية »حتى ذكر بعضهم لها نحواً من أربعين تعريفاً.

وكلمة (شخصية) كلمة محدثة لم تكن مستخدمة لدى القدماء. ويحدد بعضهم الشخصية بأنها: « تنظيم عقلي ثابت، وبناء نسق ينطوي إما على مجموعة من العوامل الدافعية الداخلية، أو على نمط من الاستجابات الخارجية»[١] ولعل من أوضح تعريفاتها ما ذكره أحد الباحثين من أنها :« مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تظهر في العلاقات الاجتماعية لفرد بعينه، وتميزه عن غيره»[٢].

لماذا نهتم بتنمية الشخصية؟

إن الإنسان يحتل في الرؤية الإسلامية مركز الكون، حيث إن كل ما حوله مسخَّر له. وإن الطبيعة البشرية تحمل في تكوينها الأعمق أشواقاً خاصة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي- إلى أشياء عديدة غير مادية، ولا يمكن للمادة أن تلبيها. وإن حكماء العالم وعلماءه لا يختلفون في أنه ينبغي أن نعيش في عالم يكون الإنسان فيه مقياساً لكل شيء، على العكس من الواقع العالمي المنكوس الذي بات الإنسان فيه غريباً معزولاً عن أعماق ذاته، ويحيا مقهوراً من

(١) دراسات في المجتمع اوالثقافة والشخصية : تأليف د . علي جلبي - بيروت - دار النهضة العربية ص٢٨١ .

(٢) القيادة والتغيير تأليف بشير الجابري جدة - دار حافظ ط أولى عام ١٤١٤ ص ٢٢٦

أجل كمال الوسط المادي الذي يعيش فيه!

إن النمو (الفسيولوجي) للإنسان إلى جانب مواد عديدة أخرى - يظل غير قابل للاستمرار. أما النمو الروحي والعقلي فإنه غير مسوَّر بتحديدات في المجال أو الإيقاع[1]؛ مما يعني أن خلاص الإنسانية الأكبر سيكون في السموّ بالإنسان، وتحسين ذاته، وإدارتها على نحو أفضل، وليس في تنمية الموارد المحدودة، والمهددة بالنفاد الكامل.

إن تنمية الشخصية لا تحتاج إلى مال ولا إمكانات ولا فكر معقّد، وإنما إلى الإرادة الصلبة والعزيمة القوية، ومن ثم فإن بإمكان الفقراء والمحدودين وأهل الظروف الصعبة أن يصبحوا من خلال الجهد والاهتمام الملائم أفضل ممن أوتوا بسطة في المال والجاه، لكن أبرز سماتهم الإهمال لحياتهم الروحية والعقلية والاجتماعية!.

إن أمة الإسلام تواجه اليوم ضغوطات خارجية هائلة على المستوى المعنوي والمادي، وهي إلى جانب ذلك تعيش ظروفاً معيشية صعبة. وإن أدبياتنا تعلمنا أن أفضل طريقة لمواجهة الخارج هي تدعيم الداخل وإصلاح الذات، واكتساب عادات جديدة جيدة، والسعي إلى مزيد من التضحية والتعاون والانفتاح والالتزام ونكران الذات والاقتصاد، والمحافظة على رأس المال الوطني، إلى أن تمر العاصفة، وينتهي الظرف الاستثنائي وفي هذا يقول - جل وعلا -: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[2]

(١) حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي بقلم مجموعة من الخبراء. ترجمة د. عبد السلام رضوان - الكويت - سلسلة عالم المعرفة عام ١٤١٠ ص:٤٢٣

(١) سورة آل عمران: ١٢٠

إن الأمم المنتصرة والمتمكنة في الأرض، أمم حققت نصراً داخلياً أولاً، وحقق كل واحد من أبنائها نصراً على صعيده الشخصي في جوانب عديدة من حياته.

شروط التنمية الشخصية:

إن التنمية الجادة للشخصية عبارة عن مقاومة الإنسان لرغباته وعاداته وأهوائه، وعبارة عن صقل لجوانب ذاته المختلفة. وهذا كله يتطلب وجود دوافع وحوافز عديدة، حتى يتمكن المرء من القيام بكل ذلك. ولا تسمح لنا المساحة المتاحة بأن نفيض في توضيح تلك الشروط، فلنذكرها على سبيل الإجمال، ومنها:

١- وجود هدف أعلى يسمو فوق المصالح والغايات الدنيوية والمادية. ولا أظن أن المسلم يواجه مشكلة في تحديد الهدف الأكبر لوجوده، إلا أن الغرق في تفاصيل الحياة الكثيرة، يجعل إحساسنا بهدفنا الأكبر رتيباً أو ضعيفاً، مما يجعل إثارة الهدف للحماسة، وتوليد للطاقة التغييرية لا تصل إلى المستوى المجدي لتنمية الذات.

٢-وجود قناعة بضرورة التغيير، حيث إن كثيراً من الناس يظنُّ أن ما هو فيه جيد ومقبول، أو أنه على كل حال ليس الأسوأ. وبعضهم يعتقد أن ظروفه سيئة، وإمكاناته محدودة، ولذلك فإن ما هو فيه لا يمكن تغييره! والحقيقة أن المرء حين يتطلع إلى أن يتفوق على ذاته، فإنه سوف يجد أن إمكانات التحسين أمامه مفتوحة ، مهما كانت ظروفه صعبة وغير مشجعة.

٣- الشعور بالمسؤولية شرط مهم لتحسين الذات، وحين يشعر المرء

بجسامة الأمانة المنوطة به، تنفتح أمامه آفاق لا حدود لها للمبادرة للقيام بشيء ما. إنه يرنو دائماً إلى اللحظة التي سيقف فيها بين يدي الله - جل وعلا- ويسأله عما كان منه...

إن علينا أن نوقن أن بزوغ الشخصية الفذة، لا يتم إلا من خلال شعور قوي بالمسؤولية، وإن التقزم الذي نشاهده اليوم في كثير من الناس ما هو إلا وليد تبلد الإحساس بالمسؤولية عن أي شيء!!

٤-الإرادة الصُلبة شرط كل تغيير، وشرط كل ثبات واستقامة، وفي هذا السياق فإن الرياضي، يعطينا نموذجاً طيباً في إرادة الاستمرار، فالتدريب يُكسب المرء لياقة وقوة في العضلات؛ وحتى لا يفقد الرياضي لياقته، أو تترهل عضلاته، فإن عليه مواصلة التدريب. وهكذا فإن تنمية الشخصية ليست سوى الاستمرار في اكتساب عادات جديدة، والتخلص من عادات سيئة. وليس من اليسير الوفاء بالالتزامات كافة في المنشط والمكره، حتى الالتزام الجزئي فإنه يحتاج إلى إرادة لا تلين!

مبادئ في تنمية الشخصية:

إن من الممكن القول: إن ما يجب تنميته في شخصية المرء ينقسم إلى قسمين: قسم خاص بتنمية الخصائص الفردية، وقسم يتناول تنمية العلاقات الاجتماعية مع الآخرين، وجعلها تسير في المسار الصحيح. وسنذكر بعض المبادئ في كل منهما على سبيل لفت الانتباه، لا على سبيل الحصر، وباختصار شديد.

أ- تنمية الشخصية على الصعيد الفردي:

١- التمحور حول مبدأ:

إذا أراد المرء أن يعيش وفق مبادئه، وأراد إلى جانب ذلك أن يحقق مصالحه إلى الحد الأقصى، فإنه بذلك يحاول الجمع بين نقيضين! إنه في كثير من الأحيان لا بد من التضحية بأحدهما، حتى يستقيم له أمر الآخر.

وقد أثبتت المبادئ أنها قادرة على أن تكرر الانتصار المرة تلو المرة، وإن الذي يخسر مبادئه يخسر ذاته، ومن يخسر ذاته، لا يصح أن يقال: إنه كسب بعد ذلك أي شيء!

بعض الناس يتمحور حول سمعته، وبعضهم حول عمله أو زوجه أو أسرته... ومن ثم فإنه يمكن لنا أن نفسّر كل أنشطته في ضوء تمحوره ذاك.

إن المبدأ أشبه شيء بالنظّارة، إذا وضعناها على أعيننا، فإن كل شيء يتلون بها. إذا رأى صاحب المبدأ الناس يتنازعون على اقتناص الفرص دون المبالاة بحرام أو حلال، فإنه ينظر إليهم نظرة استغراب لأن مبدأه يعلّمه أن المكاسب غير المشروعة ما هي إلا مصائب، تأجل الإحساس بلأوائها!

إن التمسك بالمبادئ قد يؤدي إلى بعض الخسائر في المدى القريب، لكنه سفينة نوح على المدى البعيد[1]!

٢- المحافظة على الصورة الكلية:

المنهج الإسلامي في بناء الشخصية يقوم على الشمول والتكامل، حيث يطلب تدعيم كل أبعاد الشخصية. والملاحظ أن لدى الإنسان قابلية عجيبة

(١) انظر حول ميزات التمحور حول مبدأ العادات السبع تأليف استيفن كوفي) ترجمة هشام عبد الله- بيروت - المؤسسة العربية للدراسات . ط أولى عام ١٩٩٥ . ص:١٢١.

للانجذاب نحو محور من المحاور، وترك باقيها غفلاً دون أدنى اهتمام.

ليس من النادر أن نرى من يصرف كل اهتمامه إلى الرياضة دون أن يقرأ كتاباً واحداً في الشهر أو في السنة، ومن يشتغل بالقضايا الفكرية دون أن يصرف أي جهد للعناية ببعده الروحي أو البدني وهكذا...

حتى لا نفقد الصورة الكلية للوضعية التي ينبغي أن نكون عليها، يجب أن نقوم بأمرين:

أ- أن ننظر دائماً إلى خارج ذواتنا من أجل المقارنة، ومن أجل أن نستشرف ما نحن عليه عن كثب، إذ إن الرؤية تتشوّه عندما نعزل ذواتنا وأوضاعنا عن السياق الاجتماعي العام.

ب- أن ننظر دائماً إلى أهدافنا الكلية، ومدى خدمة بنائنا لأنفسنا في تحقيق تلك الأهداف.

٣-لنقطع على أنفسنا عهوداً صغيرة، ولنحاول الالتزام بها:

إن الأعمال الطيبة حين تتراكم تجعل من الإنسان رجلاً عظيماً، وإن قطرات الماء تشكل في النهاية بحراً، كما تشكل ذرات الرمل جبلاً.

وقد وجدنا من خلال التجربة أن أفضل السبل الشخصية هو أن يلتزم المرء بعادات وسلوكات محددة صغيرة، كأن يقطع المرء على نفسه أن يقرأ في اليوم جزءً من القرآن، أو يمشي نصف ساعة مهما كانت الظروف والأجواء، وكأن يستيقظ مرة في الأسبوع قبل الفجر وهكذا... ليكن الالتزام ضمن الطاقة، وفي نطاق الظروف المتاحة، لكن إذا التزم المرء بشيء فليكن التزامه صارماً. وفي

الحديث: «وكان أحبَّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»[1].

٤- لنعمل ما هو ممكن الآن، ولا ننتظر تحسن الظروف:

علينا أن نفترض أننا لم نصل إلى القاع بعد، وأن الأسوأ ربما يكون في الطريق! كما أن علينا أن نعتقد أن التحسن الذي قد يطرأ على أحوالنا، لا ندري متى سيكون حتى نعمل في أجوائه.

إن التفكير الإيجابي يجعل صاحبه يرى في كل تحدٍ فرصة، كما يجعل صاحبه يرى كل باب يُفتح، ولا ينشغل بالأبواب التي أغلقت! ليكن شعارنا دائماً: «باشر ما هو ممكن الآن».

وإذا فعلنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم وممكناً غداً. ولنراقب ردود أفعالنا على المشكلات، فإنها دائماً خلاصة تربيتنا وعلمنا واستيعابنا.

٥- كتابة بيان المهمات الشخصية:

هناك نوع من الوصايا الصغرى التي ينبغي أن تكون ذات حضور دائم في حركتنا اليومية، وهي كثيرة جداً، سنذكر هنا بعضاً من أهمها على قدر ما تسمح به هذه المساحة:

- اسع لمرضاة الله - تعالى - دائماً.
- لا تساوم على مبادئك.
- حاول أن تستحضر النية الصالحة في كل صباح.
- لا تجادل في خصوصياتك.
- النجاح في المنزل أولاً.

---

(١) أخرجه الشيخان

- حافظ على لياقتك البدنية، ولا تترك عادة الرياضة مهما كان الظرف.
- لا تساوم على شرفك وكرامتك.
- استمع للطرفين قبل سماع الحكم.
- تعوَّد استشارة أهل الخبرة.
- دافع عن إخوانك الغائبين.
- سهِّل نجاح مرؤوسيك.
- ليكن لك دائماً أهداف مرحلية قصيرة.
- لا تقترض من أجل شراء أشياء استهلاكية.
- وفّر شيئاً من دخلك للطوارئ والاستثمار.
- أخضع دوافعك لمبادئك.
- طوّر مهارة جديدة كل عام[1].

ب - تنمية الشخصية على صعيد العلاقات مع الآخرين:

يظل الإنسان كائناً قابلاً للتعلم، بل إن البشرية كلها تتعلم باستمرار. والجزء الأكبر من التعلم يحدث من خلال علاقات الناس بعضهم مع بعض. كل واحد منا يريد أن يحتفظ بشخصيته واستقلاله، إلى جانب حاجته إلى الاندماج في مجتمعه، من أجل تمثل قيمه والاستفادة من خبراته. هاتان الحاجتان هما مصدر التأثير والتأثر اللذين يسودان كل مجتمع، وهما منبع التوازن الاجتماعي أيضاً. ومع أن الإنسان لا ينضج، ولا يستكمل ذاته وإنسانيته إلا من خلال العيش في مجتمع إلا أن اجتماع الناس بعضهم مع بعض يولد مشكلات وتوترات كثيرة،

(١) انظر في بعض ما سبق العادات السبع ص٩٩-١٠١

ومن ثم فإن على كل واحد منا أن يتحمل قسطاً من المسؤولية عن تزيت الحراك الاجتماعي، وتدعيم روح التفاوض والتفاهم بين الناس.

وهذه بعض النقاط التي نعتقد أنها تساهم في ذلك:

١- تحسين الذات أولاً:

في داخل كل منا قوة، تدفعه نحو الخارج باستمرار؛ فنحن نطلب من الآخرين أن يفهمونا بشكل جيد، وأن يعذرونا، ويقدروا ظروفنا.. وقليل أولئك الذين يطلبون هذا من أنفسهم!

إن الأساس العميق للعلاقات الجيدة، يتمثل في الجاذبية والإعجاب، وكل علاقة تقوم على غير هذا تكون إما شكلية وإما مؤقتة. وأساس الجاذبية هو التميز، والشخص الذي يثير الإعجاب هو الذي اجتمعت فيه صفات، لا تجدها في أكثر الناس إلا متفرقة. إن الأب الذي يريد من ابنه أن يكون باراً مطالب بأن يكون أباً عطوفاً أولاً. وعلى الجار الذي يريد من جيرانه أن يقدموا له العون، أن يبذل لهم العون أولاً وهكذا...

على كلٍ منا أن يرفع شعار: «البداية من عندي» وسيحصل بعد ذلك خير كثير!

٢- لنرسل إشارات غير لفظية لمن تربطنا بهم علاقة:

ليس وعي الناس ثابتاً، وليست أحكامهم نهائية؛ وأكثر الناس نمطيةً غير مستعد في النهاية لتغيير رأيه إذا تبدَّت له حقائق جديدة.

شكر الناس والدعاء لهم، وابتداؤهم بالتحية... كل ذلك معتبر لديهم، لكن الأهم من ذلك هو الإشارات غير اللفظية، مثل عيادة مريض، وتقديم

يد العون في أزمة، وباقة ورد في مناسبة، والصفح عن زلة، ولمسة وفاء ندية...

ولهذه الأعمال قيمة كبيرة عند الله – تعالى –، لأنها من أعمال البر والإحسان، ولأنها ذات أثر بالغ في إشاعة التوادد والتحابب في المجتمع المسلم.

بعض الناس لا يحسن شيئاً مما ذكرنا، ومن ثم فإنه بحاجة إلى قراءة كتاب في (قواعد الصداقة) إلى جانب تدريب النفس ومجاهدتها على ذلك.

٣-لا بد من أخ نترك بيننا وبينه مسافة قصيرة:

لا يستطيع المرء – في العادة- الحصول على أصدقاء كثر من الدرجة الأولى، وإذا وجد أحدنا خمسة من إخوان الصدق في الملمات، فإنه محظوظ جداً، والأمر كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: «الناس كإبل مئة، لا تكاد تجد فيها راحلة»[١].

إن حاجة المرء إلى أخ يُسقط معه مؤونة التكلف حاجة ماسَّة، ولا يعوِّض عند فقده أي شيء آخر.

وتشير بعض الدراسات إلى أن الأشخاص الذين يفتقدون شخصاً، يثقون به، ويكون قريباً منهم – يظلون أكثر عرضة للاكتئاب[٢]. وإن بعض صور الاضطراب العقلي ينشأ من مواجهة المرء لمشاق وصعوبات كبرى دون أن يجد مساندة اجتماعية ودعم أخوي ملائم.

إذا وجد أحدنا الصديق الحميم والأخ الوفي، فليحسن عشرته، وليؤد حقوقه، وليصفح عن زلاته... وكثيراً ما يفترق الأصدقاء نتيجة الخلطة الزائدة،

---

(١) أخرجه أحمد وغيره.

(٢)سيكوجيه السعادة تأليف (مايكل ارجايل) ترجمة فيصل يونس - الكويت سلسلة عالم المعرفة عام١٤١٤ ص:٢٦٩

واقتحام الخصوصيات وسوء التقدير... لذا لا بد من ترك مسافة قصيرة بين الإخوة، وهامش ملائم للتحرك والتصرف الخاص.

٤-كل منا بحاجة إلى الاعتراف والتقدير[١]:

من الأقوال الرمزية: كل شخص يولد وعلى جبهته علامة تقول: «من فضلك اجعلني أشعر أنني مهم». كلما وقع اتصال بين الناس، تناقلوا بينهم رسالة صامتة، تقول: « فضلاً زكّني»، « لا تمرر بي غير آبه»، « أرجوك اعترف بكياني».

مهما كان المرء عبقرياً وفذّاً وناجحاً، فإنه يظل متلهفاً لمعرفة انطباع الناس عنه، وكثيراً ما يؤدي التشجيع إلى تفجير أفضل ما لدى الأمة من طاقات كامنة، وكثيراً ما يقتل الإهمال ملكات متفتحة، يصنع أصحابها العجائب، لو وجدوا من يشدّ على أيديهم، وينفحهم نفحة اعتراف وتقدير!

وقد وصف النبي -ﷺ- عدداً كبيراً من أصحابه بصفات تميزهم عن غيرهم: حتى يعترف الناس بفضلهم، مما هو معروف ومشهور[٢].

إن اكتشاف الميزات التي لدى الناس يحتاج إلى نوع من الفراسة والإبداع، وقبل ذلك الاهتمام.

٥-تأهيل النفس للعمل ضمن فريق:

نعيش اليوم في عالم يزداد الاعتماد فيه على المجموعات في إنجاز الأعمال،

---

(١) دليل التدريب القيادي تأليف د.هشام اطالب نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٤١٤ ص: ١٨٥

(٢) من ذلك وصفة لعمر بالفاروق. ولعثمان بالحياء. ولأبي عبيدة بأنه أمين هذه الأمة. ولمعاذ بمعرفة الحلال والحرام وغير هذا كثير.

حيث إن تعقّد المهمات يقتضي أن يقوم بالعمل الواحد فريق متناسق متفاهم.

ولا يخفى أن كثيرين منا لديهم نوع من النمو الزائد في الفردية، فهم ينجحون في كثير من الأعمال التي تتطلب عملاً فردياً، فإذا ما عملوا في لجنة أو مجموعة، فإنهم يسجلون نتائج سلبية وغير مشجعة؛ ومردود هذا على نهضة الأمة في منتهى السوء!

حتى يتأهل الإنسان للعمل ضمن فريق فإنه بحاجة إلى أن يتدرب على أمور عديدة منها:

- حسن الاستماع والإصغاء لوجهة نظر الآخرين.
- فهم طبيعة العمل على نحو ممتاز، وفهم دوره في ذلك العمل.
- فهم الخلفية النفسية والثقافية للمجموعة التي يتعاون معها.
- استشارة أفراد المجموعة في كل جزئية في العمل المشترك، تحتاج إلى قرار أو تصرف غير عادي.
- الاعتراف بالخطأ، ومحاولة التعلم منه.
- عدم الإقدام على أي تصرف، يجعل زملاؤه، يُسيئون فهمه.
- عدم إفشاء أسرار العمل، والحرص على ألا يتحدث عن أشياء ليس من اختصاصه التحدث عنها.
- المبادرة إلى تصحيح أي خطأ يصدر من أي فرد من أفراد الفريق، أو أي انحراف يصيب العمل وفق آداب النصيحة وشروطها.
- تحمل ما يحدث من تجاوزات وإساءات من بعض أفراد الفريق واحتساب ذلك عند الله تعالى.

إذا وجد أن الاستمرار غير ممكن فعليه أن يفارق المجموعة بإحسان، وأن يستر ما قد يكون رآه من خلل وهفوات، ويترك مجالاً للتعاون معها على مستوى معين، أو في مهمات أخرى.

والله حسبنا ونعم الوكيل.

لماذا نتعلم؟ ٢٠

إن الوظيفة الأساسية للإنسان في هذه الحياة هي النجاح في مجموعة الابتلاءات التي يتعرّض لها من خلال القيام بحقوق العبودية لله – جل وعلا – وإعمار الأرض – بأوسع ما تحمله هذه الكلمة من معنى – وينبغي أن يكون كل علم نتعلمه، وكل تقدم حضاري نحرزه مساعدة لنا – بوجه ما – على القيام بواجباتنا وأداء رسالتنا على الوجه المطلوب.

إن العلم نمط فرعي من فروع كثيرة، ولذا فإن بامكان الناس أن يستخدموه في صنع الخير وصنع الشر، وينبغي أن تترك رؤيتنا الشاملة والكبرى للحياة بصمتها على جميع ما نعلّم ونتعلم، وعلى جميع استخدامنا للعلوم والمعارف.

إن الحضارة الغربية، تركز في حركتها العلمية على (كيف) أي على الأساليب والأدوات، وكل ما يمكن أن يستخدم في تحقيق الغلبة الحضارية والرفاهية العامة، وهي إلى جانب هذا، لا تكاد تهتم بالجواب على (لماذا) أي الأهداف والمحصلات النهائية لكل هذا العناء الإنساني!

أمة الإسلام اليوم فقيرة في كل ما يتعلق بـ(كيف) وهي تسعى لامتلاك أطراف منه، لكن الخوف الذي ينتابني هو أن أن تنسى وتضيع ما يتعلق بـ(لماذا) على مقدار ما تملك من (كيف) وآنذاك فإنها تفقد خصوصيتها وأسباب تميزها.

العلم بين ترسيخ الثقافة وغربلتها:

الثقافة هي ذلك النسيج المعقّد من المبادئ والأفكار والنظم والآداب والتقاليد، وما يمثل خلفيات تاريخية لكل ذلك. وإن الناس يتشربون أكثر

قيمهم الثقافية دون وعي منهم، كما أنهم غير قادرين على اكتشاف الزيف ونقاط الضعف فيها، لأن الثقافة أشبه شيء بـ(الصحة) لا يلمسها الناس إلا عند فقدها أو شعورهم بأنها مهددّة بالزوال.

لايستطيع أي مجتمع أن يتجاوز مرحلة التوحش والتفكك والتخلف إلا من خلال ثقافة حيّة تمنحه الرؤى والأفكار والمشاعر والأهداف والإحساس بالمصير المشترك.

إن ذوي الثقافة العليا في الأمة وحدهم هم الذين يدركون الذاتية الثقافية للأمة، فمن خلال معرفتهم بأصولها الكبرى. وخبرتهم بمفاصل تطورها، وعبر مقارنتهم لها بثقافات الأمم الأخرى، يضعون أيديهم على ما ينبغي أن يستمر من تلك الثقافة، كما يلمسون الأجزاء المعطوبة فيعملون على تخليصها منها.

ونشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى بحاجة الأمة إلى أن ترسخ مؤسساتها التعليمية عدداً من القيم التي تمثل جزءاً مهماً من منهجيتها العليا، وتلك التي يحتاجها النهوض الشامل، من نحو الإخلاص والصدق والنزاهة والشورى والعدل والحرية و الإنصاف والتعاون والتفتح والدقة والجدية والإيثار وسعة الفهم والمرونة والمثابرة.....

ومهمة الرسالة التعليمية أن تؤكد هذه القيم، وتفضح الممارسات التي تناقض مدلولاتها.

ومن وجه آخر فإن أمة الإسلام ورثت من عصور الانحطاط والتدهور مفاهيماً وأخلاقاً وتقاليد فاسدة، مما يجعل ثقافتنا مثقلة بأشياء كثيرة معطوبة، تحتاج إلى استئصال وإبعاد عن حياتنا وتربيتنا، من نحو: الكسل والفوضى والإعراض عن المشاركة في الشأن العام، والاستبداد بالرأي، والفكر الخرافي

والإرجائي والقدري، وعادات التبذير والمظهرية والشكلية، وانعدام الشعور بالمسؤولية، والخروج على النظام وأكل الحقوق والاستهانة بكرامة الإنسان، وحب الإنجاز السريع، وما شابه ذلك من أخلاق وعادات تعوق الأمة عن الوصول إلى أهدافها.

إن المجتمع العلمي ليس ذلك الذي يشيّد المدارس والجامعات وينشر الكتب وإنما ذلك المجتمع الذي يصوغ حياته اليومية ونظمه وأعرافه وفق المعارف والمناهج التي يلّقنها لأطفاله وطلابه.

إن المؤسسات التعليمية – على اختلاف مستوياتها- تستطيع القيام بذلك إذا حاولت أن تجعل من نفسها البيئة النموذجية لتجسيد ما تعلمه للناشئة في أوضاعها العامة، وفي العلاقات القائمة فيها.

إن المؤسسات التعليمية يجب أن تصبح منصات لمناقشة أنواع التصدع المختلفة بين المبادئ وأشكال السلوك اليومي، وأن يكشف عنها بوضوح تام من أجل تأمين نوع من الانسجام بين الرمز والخبرة، وبهذه الطريقة نحمي ذاتيتنا الثقافية من التخريب والتشرذم، ونؤمن لها التكامل والاستقرار.

تحسين نوعية الحياة:

في بنيتنا الثقافية العميقة أن العلم للعمل، وكثيراً ما نرى في القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وكان هذا حافزاً للمسلمين علي تجاوز أدبيات المنطق اليوناني الذي يجافي التجربة ومحاورة الطبيعة، فوضعوا المنهج التجريبي ونهضوا بجوانب الحياة العمرانية والمدنية المختلفة....

واليوم فإننا بحاجة ماسّة إلى أن نمعن النظر في الواقع، ونحاول القبض عليه وتشخيصه من خلال قيمنا وتجربتنا الحضارية حتى نواجه العلم إلى حلول

المشكلات التي يعاني منها السواد الأعظم من الناس.

إن المهم اليوم ليس أن يحفظ الطلاب الكثير من المعلومات عن ظهر قلب، وإنما المهم أن نوجد المنافذ العملية التي تمكّن الطلاب من فهم حقيقي للغايات التي تعلموا من أجلها. ولن يكون ذلك ممكناً ما لم يعرف الناشئة كيف يستخدمون المعارف التي تعلموها، وكيف يستفيدون منها في حل مشكلاتهم والارتقاء بأنفسهم. وهذا يعني أن الحاجة قائمة إلى الكثير من (البيان العملي) لما تعلمه الأولاد في المدارس.

إن مقولة (العلم للعمل) ومقولة (من الجامعة للمصنع) بحاجة لنوع من التطوير اليوم، حيث إن المطلوب أن يُعدّ الطالب إعداداً، يمكّنه من تأسيس حياة أفضل له ولأسرته، وذلك من خلال إنضاجه عقلياً وروحياً وخلقياً واجتماعياً ومهنياً، ليكون عضواً فعالاً، وإنساناً صالحاً في مجتمعه.

إن إعداد الشاب ليكون إنساناً منتجاً فحسب، قد يفيد في تحسين وضعه المادي، لكن الواقع أن (الحياة الطيبة) لا تولد من رحم الرخاء المادي وحده وإنما من خاصية الانسجام والتوازن بين المطالب الروحية والمادية، ومن سلام الإنسان مع نفسه ومن قيامه بأداء واجباته.

إن بعض الشعوب الإسلامية، يتضاعف عددها كل خمسة عشر سنة مرةً، وهؤلاء القادمون الجدد، بحاجة إلى أن يُستوعبوا نفسياً واجتماعياً وهم بحاجة إلى تعليم وسكن وخدمات وفرص عمل... ولكل هذا تكاليفه ومطالبه.

ومع أن الأطفال والشباب ينتظرون كل هذا من الكبار إلا أن الصحيح أن على الناشئة أن يتدربوا على المزيد من الاعتماد على النفس، والاهتمام بالمستقبل، والقيام بشؤونهم الخاصة، كي يتمكنوا من خوض غمار عصرٍ، يزداد العيش

الكريم فيه صعوبة ومشقة!

ترشيد ردود الأفعال:

إن عصرنا هذا هو عصر المشكلات والتحديات الكبرى، وهو كذلك عصر الفرص والإمكانات الهائلة. والمأزق الذي يظل يواجه بنو الإنسان هو إدراك المشكلات بحجمها الطبيعي، وتلمس المنهجيات والإمكانات والفرص المتاحة لحلها. وهنا تظهر أهمية ما يقدمه (العلم) في شقي المشكلة. إننا لانستطيع إدراك الواقع على نحو دقيق إلاّ من خلال (وسيط معرفي) مكّون من المبادئ التي نؤمن بها، ومن طريقة نظرنا إلى الأمور، إلى جانب المعطيات والمؤشرات والمعلومات التي تحصلت لدينا عن الواقع الذي نريد معرفته.

إن الخبرة التاريخية تؤكد أن ما يقدمه (الذكاء) والتفوق العقلي في مسألة فهم الواقع ومعالجته، ضئيل بالنسبة لما تقدمه الخبرة المتراكمة والتجربة الحية. ومن الواضح أن المجتمعات التي يسود فيها (التجريب) ويتجه العلم فيها لمعالجة المشكلات التي يعاني منها الناس، استطاعت أن تتفهم واقعها، وأن تواجه تحدياته على نحو أفضل من تلك المشغولة بتفسير الماضي، وتمجيد الذات، وتمثل المشكلات عن طريق التأمل الخيال، بدل المسح والإحصاء.

إن مهمة العلم لا تقصر على رسم الفضاء النظري لأشكال المبادرات الفردية والاجتماعية فحسب، وإنما تتجاوز ذلك إلى منحنا محددات لماهية (ردود الأفعال) على مجمل التحديات التي نواجهها، ولكن ذلك لا يأتي عفواً وإنما من خلال ولاء تام للمنهج العلمي، ومن خلال إرادة صلبة لمقاومة الزيف الذي يمكن أن يتسرب إلى تصوراتنا وسلوكاتنا.

إن (اليابان) تقدم نموذجاً حيّاً لما يمكنه أن يفعله شعب تجاه التحديات

الصعبة والظروف القاسية التي تواجهه: إن ضيق المساحة القابلة للسكن، دفع إلى إنتاج الأشياء الصغيرة الحجم، والخوف من العزلة، أدى إلى تطوير وسائط الاتصال، وقلة مصادر الطاقة إلى البحث عن بدائل إعلامية للانتقال، وتواتر الهزات الأرضية إلى تطوير أشياء خفيفة الوزن سهلة النقل، قليلة الكلفة سهلة التبديل. وأخيراً لقد تعلمت اليابان من تاريخها الطويل المتميز بالعنف، كيف تدير التبدلات بطريقة ناجعة، فهم يطورون ما يحتاج إلى تطوير ببطء، لأنه يحتاج إلى حصول التوافق بين جميع المراجع المعنية، وبذلك يكون تاماً عندما تصبح الظروف مهيّأة لتنفيذه!

وقد تم كل ذلك بمؤازرة متميزة من برامج التعليم العام والمهني.

إن علينا أن نتساءل دائماً: ما قيمة ما لدينا من أفكار وآراء ومعلومات وخبرات إذا لم تجعل ردود أفعالنا على التحديات أكثر رشداً وتنظيماً؟!

تفهم حاجات الأكثرية:

سيكون العلم لتحسين حياة الناس إذا استطاع الذين يمسكون بناصية المعرفة، وينتجونها، وينقلونها- أن يتفهموا الحاجات الحقيقية للسواد الأعظم من الناس، وهي حاجات متنوعة وكثيرة.

وتبدأ المشكلة عند تصور كثير من المثقفين لدينا حاجات الناس من أفق الثقافة التي كونت شخصياتهم العلمية، فكثيراً ما يشخّص الاقتصادي حاجات الناس من منطلقات اقتصادية بحتة، ويشخّص القانوني والحقوقي حاجاتهم من خلال نظرة دستورية ونظمية.. وبعض المثقفين المسلمين درس في الغرب وآخرون درسوا في دول تنتمي للمعسكر الشرقي (سابقاً) وما درسوه لم ينطلق من رؤية حضارية إسلامية، ولا هو نابع من إدراك جيد لواقعنا، وهذا شيء

طبيعي، لكن ما ليس طبيعياً أن يعمد أولئك المثقفون إلى تصور حاجات الناس في عالمنا الإسلامي من منظور الدول التي درسوا فيها، ثم اقتراح مناهج وتقنيات وحلول مستوردة من تلك الدول عينها وبذلك يتم تحويل مؤسساتنا التعليمية إلى حقول تجارب، ومع كثرة المحاولات فالنتائج ما زالت تدعو إلى الإحباط!

إنني أعتقد أن كثيراً من مثقفينا يحتاج إلى إعادة تأهيل، وإلى تثقيف جديد، يتمحور حول الامتلاك لرؤية شاملة ونقدية لما يجب عليهم أن يفعلوه تجاه الأميين والضعفاء والمساكين والمأزومين والتائهين؛ وهؤلاء يمثلون العمود الفقري لأمة الإسلام.

٢١ حول تنمية المعرفة

إن تنمية أي جانب من جوانب الحياة هو في الحقيقة عمل جزئي، لايتم في فراغ، ولا غير من اعتبارات وشروط متعددة، فمن الصعب – مثلاً– أن تجعل الناس يقرؤون بنهمٍ وتعطش، وهم يكدّون طول النهار وجزءاً من الليل من أجل سد الرمق. ومن العسير أن يوجد لدى دولة ما مراكز مجانية لتدريب الناشئة على استخدام الحاسب الآلي – مثلاً– وهي لا تستطيع تقديم الكتب المدرسية لأبنائها، أو لا تستطيع تأمين أماكن لهم في المراحل الابتدائية.

ولا يعزب عن البال أن نظرة أكثر الناس لدينا للمعرفة ما زالت تصنّفها مع القضايا الثانوية التكميلية، ومن ثمّ فإن قلة قليلة منهم أولئك الذين سيضغطون على احتياجاتهم الملحّة من أجل شراء الكتاب.

ومع هذا وذاك فإن التأكيد على بعض الآليات والمفاهيم والوسائل سيكون مفيداً وهو جزء من العلاج الذي يسعى العلماء والمفكرون والمهتمون بشأن هذه الأمة إلى استشرافه وتوصيفه. وسنكتفي هنا بعرض ثلاث من القضايا التي نظن أنها تساعد في تنمية المعرفة، نسوقها في الحروف الصغيرة التالية:

١ – كان العلم في الماضي – على اتساعه محدوداً بالنسبة لما هو موجود اليوم، وإن طالباً في كلية الطب لديه معلومات طبية أكثر وأدق مما كان لدى شيخ الأطباء ابن سينا! وليس هذا دليلاً على شيء سوى كثرة المعلومات، وتحسن إمكانات اختبارها.

إن من الواضح أن جهلنا يزيد، وأنه مهما كانت سرعة التهامنا للمعرفة، فإن المعرفة تتزايد على نحو أسرع، إن المعرفة تتضاعف فيما بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة، وإن نصف العلماء الذين وردوا على الأرض من يوم أن عمرها الإنسان إلى اليوم يعيشون بيننا، والنصف الآخر هم الذين عاشوا في كل الأزمنة الماضية!

إن من الضروري أن نغرس في أذهاننا جميعاً أن ما لدينا من العلم – مهما كان كثيراً – قليلاً، كما قال – جل وعلا – : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وصدقه ودقته وعمقه، كل ذلك – في كثير من الأحيان – ظني ومحدود.

وهذا يستوجب أن نقدم المعرفة للناس بصياغة مفتوحة قابلة للإضافة.

إن على الأجيال الناشئة والشابة، أن يعرفوا أكثر فأكثر، حتى يحدّوا من نسبة انتشار الجهل وفجاجة المعرفة بينهم.

٢- تقريب المعرفة سبيل الوحدة الثقافية في المجتمع :

المستوى المعرفي للناس في عالمنا الإسلامي يميل إلى الانخفاض. فقلة قليلة أولئك اللذين يقرؤون كتاباً كل شهر، والأقل منهم الذين يقرؤون كتاباً كل أسبوع. أما الذين يقرؤون قراءة منظمة منتجة فهم نادرون، وهم غالباً معزولون عن المجتمع. وإن هذه الوضعية تمثل بوابة كبيرة لحدوث تمزقات وشروخ اجتماعية مخيفة، حيث يكون من العسير تعميم المفاهيم الإسلامية والاجتماعية والأخلاقية على أبناء المجتمع الواحد والذين يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في المستوى المعرفي. وكثيراً ما نعتب على المفكرين لكونهم لا يكتبون بلغة سهلة، حتى ينتفع

(١) الإسراء: ٨٥

أكبر عدد ممكن من الناس من كتاباتهم، لكن ذلك في الحقيقية عمل شاق جداً. وقد يكون غير صحيح، فالأفكار الراقية المعقدة، يصعب التعبير عنها بلغة سهلة مبسّطة، وحين يتم ذلك فإنه إن لم يؤدّ إلى تشويها، فإنه يحرمنا من طاقتها الموحية...

ومن هنا فإن الحل الأمثل هو تبني سياسة تقريب المعرفة، وإيجاد مؤسسات وأطر وبرامج نشر متخصصة لذلك، حيث إن بإمكان كاتب قصة أو مسرحية أن يعرض لبعض الأفكار والحقائق العلمية والمفاهيم الشرعية والإنسانية بأسلوب جذاب قريب سهل، يستهدف الشرائح الدنيا والوسطى من المتعلمين والقراء. كما أن إخراج سلاسل من الكتيبات التي تتناول مجالات مختلفة من المعرفة، سيكون عظيم النفع في رفع العتبة المعرفية لدى جماهير واسعة من الناس. ولدينا جهود طيبة في بعض البلدان على هذا الصعيد إلا أن هذا أقل من المطلوب بكثير.

ماذا لو أن الأقسام العلمية في الجامعات جعلت من جملة أنشطتها في خدمة المجتمع إصدار بعض الكتب في تخصصها لتعريف الناشئة وذوي الثقافة المتواضعة من كبار السن، بالحقائق والمعلومات الأساسية في ذلك التخصص بأسلوب جذاب وسهل؟ إن ذلك - ولا شك- سيتلقى بالترحيب الشديد، وسوف يكون له أثر عظيم في تثقيف الناس!

إن بإمكان المكتبات التجارية الكبرى أن تقوم أيضاً بمثل ذلك، كما أن على النوادي الثقافية والنقابات المهنية والمصانع أن تسهم في تثقيف منسوبيها عن طريق هذا النوع من التأليف الميسّر. وسيكون في جميع الأحوال للدولة

والشركات التجارية الكبرى الأثر الفعال في تخفيض أسعار تلك الكتيبات، وإتاحتها للناس بتكلفة مناسبة.

إن التماسك الاجتماعي مرهون بسيادة مفاهيم اجتماعية محددة، وبوصول رسالة المجتمع إلى جميع أفراده، ولن يتم ذلك إلا من خلال حركة ثقافية موّارة تستطيع الوصول إلى كل واحد من أبناء المجتمع بالأسلوب الذي يناسبه.

٣- لابد من أن تصبح القراءة عادة لدى الإنسان المسلم :

أول كلمة في الرسالة الخاتمة، هي كلمة (اقرأ) وما ذاك إلا لأن القراءة هي مفتاح التعلم، والدرجة الأولى في سلّم الرقي العلمي والفكري.الاهتمام بالكتاب واحترامه والوله به، والحرص عليه عادات تتكون لدى الطفل في المنزل - غالباً- فالطفل الذي في بيت والديه مكتبة، يفتح عينيه على الكتاب والحديث عنه، ويجد نفسه محاصراً بالكتب حيثما تجول في المنزل. وجود مكتبة في المنزل، ينشر دائماً عبق المعرفة حيث الجديد دائماً من الكتب يغشي المنزل ويحلّ فيه ضيفاً عزيزاً حيث النقاش دائماً بين أفراد الأسرة حول الأحداث العلمية الجديدة، وحيث التلخيص والنقد والحوار...

إن الخطوة الأولى على طريق إشاعة القراءة هي انتشار (مكتبة المنزل) وإن مما يسهل ذلك وجود المبالغ الطائلة، فماذا لو خصصنا ٢٪ من مصروفنا الشهري لشراء الكتب النافعة الجيدة، لتثقف بها أسرة كاملة؟.

إن كثيراً من الناس يفكر تفكيراً معكوساً فيعلل لعزوفه عن شراء الكتب بما يمر به من ضائقة مالية، مع أنني أرى أن العلم والمعرفة والمهارة والخبرة هي ما نحتاجه للخروج من قلة ذات اليد، وتحسين الدخل، وهذه كلها لا تأتي

- في أكثر الأحيان - إلا عن طريق القراءة. ومن وجه آخر فقد أثبتت إحدى الدراسات أن المعرفة تخفف الميل إلى الاستهلاك، وأن الأكثر تعلماً هم الأقل ميلاً لتحقيق الذات عن طريق التملك.

إن الجهل يجعل الإنسان بمثابة (السجين) الذي يعوض عن فقده للحرية بالاتجاه للطعام!.

يمكن للمدارس والجامعات والنوادي الثقافية والمصانع والشركات أن تنمي عادة القراءة لدى منسوبيها من خلال المسابقات العلمية التي تبادر إلى تنظيمها، ومن خلال حلقات الحوار حول الكتب الجديدة. الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة ذات أثر خطير في عرض الكتب، والحث على قراءتها، ونقدها وتقويمها.

حين نعتقد أن ما نكتسبه من المعرفة في حياتنا، هو أهم بكثير مما نرثه من آبائنا من ذكاء وإمكانات عقلية، فإننا سنبادر آنذاك إلى القراءة وتوفير الأجواء والظروف التي تشجع عليها.

إن على أمة الإسلام أن تنتبه إلى أنها ستظل تعيش على هامش العالم ما لم تساعد أبناءها على اكتساب عادات جديدة، على رأسها تعود القراءة وحب الكتاب واصطحابه في كل مكان.

مخنم.×٤ تم لجتفيمضف ٪بحنجتينغ تي

إن المشكلات والعقبات التي تقف في طريق المعرفة كثيرة، حيث إن المعرفة كالرأس تنعكس عليه - كما يقال - كل مشكلات الجسد.

وسوف نسلط الضوء هنا على اثنتين من العقبات الأساسية في هذه المسألة:

١- خمود جذوة الشوق للمعرفة :

كان سلف هذه الأمة ينظرون إلى العلم على أنه عبادة، بل أفضل من كثير من العبادات. وقد سطّر علماء هذه الأمة من المآثر في الوله بالعلم واكتسابه والصبر عليه، والاحتفاء به ما لم يسطره علماء أية أمة أخرى، فكان منه من يقسم الليل ثلاثة أقسام : ثلث للقراءة والتأليف، وثلث للنوم، وثلث للصلاة والقيام. ويذكرون عن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه كان إذا لقي شيخه أبا زرعة يقتصر على صلاة الفريضة، ليغتنم وجود الشيخ. لأنه يرى أن العلم أفضل من النافلة.

التعليم المستمر الذي يجري اليوم الحديث عنه كان هو الحالة الطبيعية في حياة الأمة، وكان العلم أمداً ينتهي إليه، ولا يعترفون بشاغل يشغل عنه، وقد كان أحد العلماء يحفظ أبياتاً من أحد المتون، وهو في حالة شديدة من المرض، فقال له ابنه : يأبت أهذا أوان هذا ؟! فقال: يا بني أحب أن ألقى الله وأنا أطلب العلم!

يمكن القول : إن ضعف حضور الآخرة في حسّ كثيرين منا، إلى جانب الفهم الجزئي المشوّه للإسلام، أدى إلى الإحساس بأن العلم وسيلة لانتزاع منصب أو وظيفة أو مال، وأسّس ذلك شعوراً بأن الجهد في طلبه أشبه بثمن لابد من دفعه في صفقة تجارية، فالعلم للشهادة والشهادة للوظيفة، والوظيفة للتمتع بالحياة!

وحين ينظر للعلم نظرة تجارية فإن الناس يبذلون الحد الأدنى من الجهد

للحصول عليه. ويحصلون الحد الأدنى منه للحصول على الشهادة، وهذا ما هو حاصل اليوم لدى الكثير من شبابنا، مع الأسف الشديد!!

إن الأعمال العظيمة التي تم إنجازها في التاريخ، والتي يتم إنجازها الآن - يقف وراءها دائماً رجال من طراز خاص، امتلكوا القدرة على بذل أعظم التضحيات، والصبر الذي لا يعرف النفاذ على تحصيل العلم والتشبع به.

يقول أنشتاين :«إن أولئك الأفراد الذين ندين لهم بأعظم الأعمال العلمية كانوا جميعاً توّاقين عقلياً للمعرفة. ولو لم يكن لهم هذا الاقتناع الجياش بالعاطفة لما استطاعوا الانقطاع الدائب الذي يستطيع وحده أن يدفع المرء إلى القيام بجلائل الأعمال»

إن العزوف عن العلم هو في حد ذاته مشكلة، لكن المشكلة سوف تكون أعظم حين نصاب بالزهد في العلم في زمان، تُقبل فيه الشعوب على التهام المعرفة، حيث إن التواصل الكوني الحالي جعل أية ميزة فائقة عند شعب أو دولة تمثل مشكلة بالنسبة للدول الأخرى؛ لأن تلك الميزة، سوف تستغل للضغط على الآخرين الذين حُرموا منها.

وتُظهر بعض الدراسات في الغرب أن الرجال في أمريكا - يقرؤون في المتوسط ٣٩ دقيقة في اليوم، عل حين تقرأ النساء ما متوسطه ٢٦ دقيقة. ويقرأ ٧٢٪ من الناس في بريطانيا (عام ١٩٣٨) جريدة يومية وبلغ معدل الاستعارة من المكتبات العامة في بريطانيا ٦٥٠ مليون كتاب في العام، أي حوالي ٢٦ كتاباً لكل من يقرأ كتاباً على الإطلاق، هذا عدا الكتب المشتراة والمستعارة من الآخرين.

أما العالم الإسلامي فلم يصل به الأمر إلى حد الاهتمام بمثل هذه الإحصاءات، وفي هذا خير حتى لا ينكشف المستور!!

٢-التخلف يعطيك أجوبة، ويحرمك من التساؤل:

إن السؤال مفتاح العلم، هكذا قالوا قديماً لكن المقدرة على التساؤل ليست متاحة لكل من أحب، فالعقل لا يستطيع أن يتصور أشياء لم ير مثيلاً أو شبيهاً لها، ومن هنا فإن البيئة الفقيرة بالأدبيات والمعارف والمصنوعات، لا تمد العقل بشيء ذي قيمة، ولا (تشغله) ولا تدفعه إلى التساؤل والاكتشاف.

هذه الوضعية توجد نوعاً من الفراغ والخلخلة المعرفية، ومن ثم فإن (المخيِّلة الشعبية) تنشط لتسد الفراغ وإقامة نوع من التكامل والتوازن للعناصر الثقافية المختلفة، ولن تكون المادة المستخدمة لذلك في ظل التخلف وعموم الجهل سوى مزيج من الشائعات والأساطير والمقولات المشبعة بالتأملات والظنون الخاصة ومحرّف الاعتقادات، فيشعر المرء أن عنده كل شيء، وفي حياته وثقافته جواب لكل شيء، وفلسفة لكل مبدأ، وتعليل لكل ظاهرة، إنه الثراء والتوازن والتكامل المبني على الأوهام والتمجيد الكاذب للذات، والاستغناء عن العالمين..!!

على العكس من هذا كله يؤجج التقدم والعلم الصحيح نار التساؤل ومحاولة الفهم، والرقي في مدارج المعرفة، فقد فجرّ القرآن الكريم في الوسط الأمي الفقير المحدود كل ينابيع الحكمة، ونفض الوعي، والعقل والشعور، وزلزل كل أركان المعرفة القائمة، وأسّس يقيناً جديداً، ومنهجاً علمياً فذاً.. وصار كل شيء موضع تساؤل، ونما العلم نمواً لا نظير له! وحين بدأ التراجع الحضاري بدأ عالمنا

الإسلامي يقدِّم أجوبته الخاصة النابعة من السكون والجهل والكسل والفوضى والانحراف عن المنهج الرباني الأقوم... وهكذا فأحوالنا الراهنة طبيعية جداً، ولا حاجة للتساؤل بشأن مسبباتها، ولا عن العلل والأدواء التي أدت إليها؛ إذ إن ما نحن فيه قضاء وقدر محتوم، لا خيار لنا فيه، ثم إننا بذلنا جهدنا ولم نستطع أن نفعل أكثر مما فعلناه، ولا نظن أن الإمكانات المتوفرة بين أيدينا تؤهلنا لأكثر مما نحن فيه! ثم إن ما نحن فيه ليس سيئاً جداً، فإدمان المخدرات لدينا أقل، والأمراض الوبائية أقل، والترابط الاجتماعي أفضل ...ثم إن الحضارة الغربية مادية، وهي ولو بعد حين إلى زوال.. وعلى كل حال فنحن لسنا مسؤولين عن الحالة الراهنة للأمة، إذ إن ما نحن فيه نتيجة تراكم أخطاء سابقة، قرون سابقة وهكذا أوجدنا كل الأجوبة التي تسوِّغ ما نحن فيه، وأسكتنا كل الأفواه التي تضج بالشكوى من سوء الأحوال !

فلما إذن التعلم والإبداع والإكتشاف والتدريب والتصنيع والتغيير ما دام الأمر على ما ذكرنا؟!

وهذا ما كان فعلاً، فحماسة المسلم للإبداع والتعلم والتهام المعرفة خامدة في أدنى درجاتها.

ويأتي التعليم القائم على التلقين والتحفيظ، ليكمل الحلقة، وليكبت ما زرعه البارئ - جل وعلا- في الطفل من حب للتساؤل والتطلع للتعرف على ما حوله؛ فكثرة الأسئلة قد تكون من قلة الأدب، وقد تكون من أجل حب الظهور على الأقران، وهي تسبب الحرج للمدرس، وقد يكون السؤال منطوياً على شيء مما يخل با لآداب العامّة، أو قد يكون جوابه كذلك، وقد يكون السؤال أكبر من

سن الطفل، أو مما لا يعنيه، وقد يؤدي السؤال إلى قطع سلسلة أفكار المدرس. والطالب لم يستوعب ما قيل حتى يسأل عن أشياء دقيقة أو خارج الموضوع.. وهكذا فهناك مجموعة من المساوئ التي ينطوي عليها التساؤل، ومن ثمّ فليس هناك أفضل من الصمت والتأمين على ما يقوله المدرسون وغيرهم!

لا يعني كل ما ذكرناه أن الآفاق مسدودة أمام التحسن والتقدم المعرفي، فالأبواب ما زالت مشرعة لحصول كل خير إذا ما امتلكنا إرادة التغيير، وأحسسنا بالحاجة إليه. لكن علينا قبل ختم هذا المقال أن نتذكر أن وظيفة الأفكار في النهوض والإصلاح لا تتعدى وظيفة اللوحات الإرشادية التي تدل على الاتجاه الصحيح، أما القوة المحركة لذلك، فهي الظروف الموضوعية التي يعيش فيها الناس. إن صواب الأفكار شرط لكل تغيير، لكنها وحدها لا تستطيع أن أن تنقل الناس من حال إلى حال، فإذا ما أردنا للمعرفة أن تنمو فعلينا أن نوفر الأجواء التي تحفز على التعلم، وتساعد عليه.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٢٢ التربية والفائض الاجتماعي

تعاني أقطار كثيرة في بلاد الإسلام من ظروف معيشية صعبة، حيث الفقر والجهل والمرض والبطالة والتمزق الاجتماعي..كما أن هناك ضغوطاً مادية ومعنوية هائلة، تمارسها الدول المتنفذة من أجل تحقيق مصالحها.

ونحن فوق هذ أو ذاك بحاجة إلى أن نحسّن نوعية الحياة التي نعيشها من خلال إضفاء معان جديدة، تلامس البنى العميقة لعقيدتنا وثقافتنا.

إننا نقصد بالفائض الاجتماعي الأعمال والأنشطة الطوعية التي تتجه لسد الثغرات وقضاء الحاجات المتصلة بالشأن الاجتماعي العام.

حيوية الاهتمام بهذه المسألة:

إن تحقيق فائض اجتماعي في أي مجتمع إسلامي، يعد جزءاً من المنهجية الإسلامية التي تقوم على تأسيس علاقات خيرة وطيبة بين العبد وربه من جهة، وبين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى. بل إن تلك المنهجية تحثُّ على إقامة علاقات الرعاية والإحسان بالحيوان والجماد!

وعلى هذا فإن نشر الأعمال التطوعية في المجتمع الإسلامي هو قضية مبدأ قبل أي شيء، وهو جزء من تكاليف العبودية وتبعات الدينونة لرب العالمين.

إن مما لا يخفى أن مصالح المرء ليست متطابقة مع مصالح مجتمعه على نحو مطّرد، وهذا في الحقيقة هو جوهر الابتلاء في الحياة الاجتماعية.

إن المجتمع الفاضل ليس ذاك المجتمع الذي يرفع شعارات خيِّرة، ولكنه الذي ينجح في المطابقة بين مبادئه وسلوكاته، وإن الفوائض الاجتماعية، هي التي تردم جانباً كبيراً من الهوة التي تفصل بينهما. كثير من التجمعات البشرية لا يستحقُّ اسم (مجتمع)، وإنما هو (حشود أجساد)! إنما يكون المجتمع مجتمعاً حينما يتوفر له الكتلة الحرجة من المشتغلين بالشأن العام.

إنني أعتقد أن المجتمع الذي لا يقوم بالحدِّ الأدنى من حاجات أفراده، هو مجتمع مريض. وكلما كثر مرضى مجتمع ضعف تماسكه، وازداد عجزه عن استنفار أبنائه في الظروف الصَّعبة، وحشدهم للقيام بالمهمات الجليلة . وقد قال أحدهم : لماذا أدافع عن مجتمع لم يطعمني من جوع ولم يؤمِّني من خوف؟

إن طبيعة اجتماع الناس بعضهم مع بعض، تفرز مشكلات وتواترات كثيرة، وإن العزوف عن حل تلك المشكلات، سيوقع الناس في براثن الحاجة والفوضى والتعانف؛ ولذا كانت المدنيَّة في التحليل النهائي عبارة عن البحث الدائب عن حلول للمشكلات الأخلاقية والاجتماعية والعمرانية.

إن مساهمة الناس في حل مشكلات مجتمعاتهم، وبناء مرافقها العامة، والأخذ بيد العناصر الأضعف فيها، سوف يساعد الأمة على ترجمة المكاسب الاقتصادية التي حصلت عليها بعض الفئات إلى مكاسب أخلاقية واجتماعية، وكأن ذلك نوع من الاستدراك لما فات من تكافؤ الفرص، أو هو كرَّة أخرى في ميادين العدالة الاجتماعية. إذا كانت الدولة الفاضلة، هي تلك التي تدبِّر شؤون شعبها، بأقل قدر ممكن من القوة، فإن المجتمع الفاضل هو الذي يقوم بجلِّ شؤونه دون أن يُحوِجَ الدولة إلى التدخل في تفاصيل حياته، إلا على نحو

هامشي على ما نشاهده في حياة المجتمعات الإسلامية الأولى. ولن يكون ذلك عندما تنطلق روح المبادرات الفردية، وتسود روح التبرع والمجانية.

إن جوهر الإنسان لا يتبلور من خلال الأخذ، وإنما من خلال العطاء، وإذا كان قانون المال هو الجمع، فإن قانون العمل هو البذل، وفرقٌ كبير بين من ينتقص من قدرات مجتمعه، وبين من يُثريها!

وإذا كنا عاجزين عن أن نتعلم من مبادئنا وتاريخنا أخلاق الفداء والعطاء، فإن بإمكاننا أن نتعلم ذلك من مجتمعات النمل والنحل، حيث الشعارُ المرفوع دائماً: لا قيمة لحياتي إذا تعرضت سلامة الجماعة للخطر! وهذا في الحقيقة هو شعار الشهيد.

ثم إنه ليس من مصلحة مجتمعاتنا أن تعلّق توازنها العام على وجهة واحدة، كالدولة - مثلاً- بل من الواجب أن نجد محاور عديدة وأطراً مختلفة لحفظ ذلك التوازن، حتى إذا ضعف بعضها إعتمدت على باقيها.

ألوان من الفوائض الاجتماعية:

إننا نعيش في عصر، أظهر سماته التعقيد، وإن الحضارة الحديثة، جعلت متطلبات الحد الأدنى من العيش الكريم، تفوق كثيراً الإمكانات المتاحة لأكثر الناس. وفوق ذلك فإن موجات الأنانية والاستقلالية والدوران في فلك الذات، قد اجتاحت الأفراد والأمم، وصار الضعيف يشعرُ أنه تُرك وحيداً، ليلاقي مصيره دون عون أو غوث من أحد! وإن الإنجازات الكثيرة التي حققها عصرنا، أفرزت مشكلات كثيرة، ذوات رؤوس متعددة!

ونظراً لحالة التخلف التي تلفُّ حياة كثير من شعوبنا، فإن من غير النادر أن

نعاني من مشكلات لم تولِّدها إنجازات، ومن هزائم لم تسبقها معارك؛ مما يجعل حاجتنا إلى الأنشطة التطوعية أكثر من الأمم الأخرى.

- نحن بحاجة إلى أنشطة تنشر البشر على الوجوه، وتشيع البهجة في النفوس، وتخفف من قسوة الوحدة والاغتراب داخل الأوطان، وذلك من خلال الابتسامة والكلمة الطيبة، وابتداء الآخرين بالسلام والسؤال عن أحوالهم، وعرض المساعدة عليهم... وفي الحديث: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[1].

- نحن بحاجة إلى مبادرات ومؤسسات ترعى العناصر الضعيفة في المجتمع من أيتام وأرامل ومعوقين وعاطلين عن العمل، وذوي الأسر الكبيرة، والطلاب الذين لا يجدون من يعينهم على إكمال دراستهم و... ممن قعدت بهم إمكاناتهم وظروفهم عن بلوغ الحد الأدنى من الحياة الكريمة، والوصول إلى عتبة الوسط الذي يمكنهم من العمل الكريم المنتج.

وقد ورد في الحديث الشريف أن أبا ذر- رضي الله عنه - قال: «قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله. قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً. قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق »[2]

وقال - ﷺ-: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن الراوي بين السبابة والوسطى[3].

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه الشيخان

(٣) رواه مسلم

ونحن بعد هذا وذاك بحاجة إلى أن نحمي أنفسنا من أنفسنا، وبحاجة إلى أن نقمع (الوحش) الرابض في أعماقنا. إننا بحاجة إلى أن نبني خطوطاً دفاعية عديدة، تحول دون استخدام القوة داخل المجتمعات الإسلامية، وتحول دون التعانف، ونشوب الحوب الأهلية، وذلك من خلال إشاعة ثقافة الرفق والتفاهم والتعاذر والروية والشفافية والمصابرة، واحترام الحياة والأحياء، وبناء المرافق العامة، وإحياء ظاهرة (الوقف الاسلامي) وما شاكل ذلك، مما يعزز التلاحم الأهلي، ويدعم الأعراف الخيِّرة.

وقد ورد في الحديث الشريف أن الله غفر لعبد ذنوبه بسبب سقيه كلباً أجهده العطش[1] كما ورد في حديث آخر أن امرأة دخلت النار في (هرة) سجنتها حتى ماتت[2].

إن المسلم الذي يتورع عن قطع شجرة، أو إيذاء نملة، سوف يتردد كثيراً قبل أن يعذب امرءاً مسلماً، أو يتعدى على حياة بريء، أو يأكل مال ضعيف أو غريب...

ما السبيل ؟

أعتقد أن (التربية) بما هي عمليات وإجراءات مستمرة للتنمية والتحسين هي نقطة البداية التي ستنطلق منها المسيرة، وهي أيضاً الرفيق الذي سنصحبه في كل مراحل البناء.

وحين بدأ الرسول -ﷺ- رحلة إخراج (أمة الاسلام) للناس، بدأ بتنشئة الإنسان قبل إشادة العمران، حتى تنهض جوانب الحياة كلها محاذية لنموذج

(١) رواه الشيخان
(٢) رواه الشيخان

(الإنسان الصالح).

إن البدية التربوية، تولد في (المنزل) حيث تُثبت دراسات عديدة أن الخطوط العميقة في شخصية الطفل، تتكون في السنوات السبع الأولى وما يأتي بعد ذلك لا يعدوا أن يكون توضيحاً أو تكميلاً. إن تصرفات الأسرة وملاحظاتها حول الحياة العامة هي التي تغرس خلق التبرع والتطوع في نفس الطفل، أو خلق الأنانية والأثرة. وسيكون الفرق شاسعاً بين تربية أسرة تتمحور أحاديثها حول هموم الضعفاء والمساكين والشأن العام، وتربية أسرة لايسمع أطفالها سوى أحاديث الحسد والغيبة والأثرة والاستحواذ..

كم سيكون جميلاً تعويد الطفل أن يوفر شيئاً من مصروفة لشراء لعبة لطفل فقير في يوم عيد!

وكم سيكون جميلاً لو أن الأسرة تعودت الأكل من (حاضر الرزق) في البيت يوماً في الأسبوع، ووفّرت ثمن ما ستطبخه في ذلك اليوم لتدفعه إلى أسرة معدمة، أو لتساهم به في تشييد مرفق من المرافق العامة!

وتأتي الحياة المدرسية لتكمل المهمة، وترعى النبتة الغضة من خلال الأعمال الطوعية التي تنظمها إدارة المدرسة من نحو تنظيف المدرسة أو دهن الأرصفة، أو غرس الأشجار أو عيادة المرضى في المستشفيات.. وإن للمؤسسات الخيرية وظيفة حاسمة في هذا الشأن حيث إن بإمكانها أن تجعل أنظمة التطوع في أنشطتها أكثر مرونة وتنوعاً، بحيث تتسع لمن عنده أدنى جهد أو وقت أو مال، يمكنه أن يوظفه في خدمة المصالح العامة، ولو كان ساعة في اليوم أو يوماً في الشهر، أو أسبوعاً في السنة ...

- إن من مقاييس التقدم في أي مجتمع مدى مساعدة وسائل الإعلام على نشر الأفكار والمفاهيم التي تعزز الصفة الغالبة على المجتمع، والتي تُعد معقد تعاونه وترابطه، وينبغي أن تكون إشاعة الخير والمعروف هي (السمة) التي تستهدف وسائل الإعلام نشرها، وإيجاد إحساس عام بها.

إن وسائل الإعلام لا تربي، لكنها تنشر الوعي والتجانس الفكري والذوقي والعرفي، وليست هذه بالأمور الهيِّنة.

وإنني أعتقد أن شيئاً من كل ما ذكرناه موجود، لكن الحاجة الماسَّة لدينا تتطلب اتساعاً وتنويعاً أكثر بكثير مما هو متوفر.

ولا يغيب عن البال أن نؤكد أن الناس لن ينخرطوا في سلك الخدمة العامة ولن يقوموا بالمبادرات الفردية إلا إذا ساد مجتمعاتهم أجواء الشورى والمشاركة في اتخاذ القرارت، إلى جانب المفاتحة والمصارحة في التقويم، والشفافية في التعامل.

وإلا فمن السهل أن ينكفئ كل واحد على ذاته عند الشعور باليأس وانسداد الآفاق، وسنرى آنذاك أشكالاً من (الحرون الاجتماعي) وألواناً من السلبية وعدم الاكتراث.

إن الإصلاح يحتاج دائماً إلى قدوات تمهِّد الطرق، وتجسد المُثُل، ولا قدوة من غير تضحية. وأمة الإسلام تستحق التضحية، وهي بحاجة إلى رجال انطوت جوانحهم على مثل حرقة الأمهات!

٢٣ مناهجنا وما لا نعرف

لم تشهد البشرية في تاريخها الطويل شيئاً يقارب ما يجري اليوم من تنامي المعلومات، وتناسل الآراء والنظريات، مما أوجد تحديات هائلة أمام كل حريص على دوام الاتصال بما يجري من أحداث، والاطلاع على ما يجد من معارف.

إن بعض التقديرات تتَّجة إلى أن المعرفة تتضاعف كل اثنتي عشرة سنة! ويرى بعض الباحثين أن ٩٠٪ من المعلومات المتوفرة الآن استحدث خلال العقود الثلاثة الماضية!

هذه المعرفة الجديدة المتسايلة ليست معزولة عن المعلومات التي بحوزتنا؛ ومن ثم فإنه ليس من المستبعد أن تكون الشيخوخة قد أتت على نحو من ٢٠٪ من معلومات الواحد منا، وصار لزاماً عليه أن يقوم بتجديدها حتى تظل صالحة للاستخدام في سوق المعرفة. إننا لا نجادل في أن مهمة المناهج المدرسية تنحصر أساساً في تقديم معرفة (صُلبة) وأساسية، ومتّفق عليها؛ وذلك خضوعاً للحقائق العلمية الثابتة، وتطلعاً لتأسيس وحدة ثقافية محلية وعالمية.

ومع أن بإمكاننا أن نذكر ميزات عديدة للطريقة التي تُقدم بها المعلومات للناشئة في المراحل المختلفة، إلا أنه لايصحُّ لنا أن نغفل عن الآثار السلبية التي تطبع عقلية المعلمين وثقافاتهم.

إن كثيراً من الناس يظن أن ما بحوزتنا من معرفة كافٍ للعيش في هذا العصر

بكفاءة وفاعلية، ومن ثم فإن مساحات الجهل والفجاجة المعرفية تتضاءل على مقدار ما يتدفق على الساحات الثقافية من معارف وعلوم جديدة؛ مما يمكننا من السيطرة على شأننا العام. لكن هذا مع الأسف الشديد- ليس بصحيح!

إن مساحات جهلنا تزيد، حيث تتضاءل كميات ما نعرف إلى جانب كميات ما لا نعرف. وهذا الزخم الهائل من المعلومات سلاح ذو حدين ؛ فهو على مقدار ما ينير من الزوايا المظلمة، يرسم أسئلة ويثير شكوكاً جديدة. وإنه إلى جانب هذا جعل استيعاب الواقع الموضوعي أكثر صعوبة، كما أنه جعل اتخاذ قرارات راشدة متوقفاً على الاستحواذ على قدر ضخم جداً من المعلومات التي يصعب توفرها والتعامل معها على نحو ملائم. ونحن إلى جانب هذا نعاني من تقاليد بحثية رديئة تلف صميم الأعمال العلمية الحديثة فمدرسونا وباحثونا لا يجدون المزاج، ولا الوقت الكافي للحديث عما لا يعرفون، وكل الجهود والأوقات مصروفة لتلقين الأجيال الجديدة نتفاً مما نعرف من أفكار ومعلومات.

ومن النادر أن نجد من يقول: إن فكرتي عن هذه القضية مشوَّشة، أو غير متبلورة. ومن النادر أن نصرِّح بأننا حاولنا معالجة الموضوع الفلاني، ثم لم نصل فيه إلى شيء. ولا تكاد تجد بحثاً انتهى إلى نتائج لا تدعم الفروض التي شكَّلت رؤية صاحبه لطبيعته. إننا لا نتحدث، ولا نهتم بتوجيه الأنظار إلى المسائل التي يمكن بحثها، والآفاق التي يمكن ارتيادها لخير البشرية، مع أنني أجزم أن قيمة العالم الحقيقية لا تنبع من عظمة ما يعرف، وإنما من درجة وعيه بأهمية ما لا يعرف. وإن صلابة معرفتنا لا تكتمل إلا من خلال موقعها في النسق الذي ينتظم المعلوم والمجهول.

ولعل الدافع إلى هذه الوضعية هو طلب السهولة، إذ من اليسير أن نقول: إن هذا الرأي موجود عند الشافعي في(الرسالة)، أو عند المبرد في (المقتضب) لكن من الصعوبة بمكان أن نقول: إن هذا القول ليس موجوداً في كتب الغزالي أو ابن قدامه. كما أن المرء يحب دائماً أن يتحدث عن نجاحاته، وما استطاع تحقيقه، وليس عما أخفق فيه أو عانى منه.

هذا كله جعل البنى العقلية، والثقافية العميقة لطلابنا، تتشكل على نحوٍ يفتقر إلى المرونة والانفتاح، حيث الشعور الراسخ بالاستحواذ على معرفة جيدة قطعية في كل مادة درسوها؛ مع أن التجربة التاريخية تعلمنا أن كثيراً من الأفكار والمذاهب والآراء والمعلومات تطفو على السطح، وتدخل سوق التداول لأسباب غير موضوعية؛ مما يجعلها سهلة التناول لواضعي المناهج والمقررات الدراسية.

ولا ننسى أن الحرص على إعطاء معلومات، لا جدال حولها، قد جعل نزول الأفكار من أعالي النظر إلى الكتب المدرسية، يتأخر مدّة طويلة؛ مما يعزل الحصيلة العلمية للطلاب عن الآفاق الجديدة التي ترتادها الخبرة البشرية كل يوم.

ما العمل؟

لن يكون من الصواب خلط المعرفة العتيقة والمستقرة بمستجدات البحوث والآراء الطارفة، والتي لم تنل الإجماع، أو ما يشبه الإجماع، كما أن الوضعية الحالية للمناهج الدراسية ليست مبعث ارتياح أيضاً. ولذا فإن علينا القيام بعدد من الخطوات التي تخفف من أضرار (التناول المدرسي) للمعرفة، مع صون

المعلومات الأساسية التي تقدمها المناهج من رياح التغيير العاتية.

إننا لا نستطيع أن نعلّم أبناءنا كل ما نريد، فالأوقات المتاحة لذلك محدودة، لكن بإمكاننا أن نضعهم على الطريق الصحيح لاستيعاب المعرفة مدى الحياة.

إن الذي يملك معلومة كمن يملك قطعة ذهبية، أما من يملك منهجاً فهو كمن يملك مفتاح منجم للذهب!

ومن تلك الخطوات ما يلي:

١- نحن لا نستطيع أن نفهم أي علم من العلوم على نحو ممتاز، ما لم نفهم تاريخ ذلك العلم. وهذا يعني أن من واجبنا أن نصمم (مداخل) للمواد المقررة في المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية. وينبغي أن يتناول كل مدخل نشأة ذلك العلم والأصول الكبرى فيه، والمنعطفات الخطيرة، التي مر بها، والعقبات الأساسية التي تعرقل انطلاقته، إلى جانب الآفاق التي تنتظره والأداة التي ينبغي الاتكاء عليها في استيعابه، هل هي التجربة أو الحفظ أو التأمل أو الحوار أو الاطلاع المكثّف..

إن المهم في هذا المدخل ليس المعلومات التي يتيحها، وإنما الإيحاءات والانطباعات والأحاسيس التي يخلفها لدى الطلاب.

٢- يمكن أن نترك في آخر كل كتاب مساحات مفتوحة يتم فيها الحديث في كل طبعة عن:

أ- البحوث والآراء والأفكار والنظريات الجديدة في ذلك المقرر.

ب- الجونب التي ما زالت غامضة أو مشكلة فيه.

ج- التساؤلات التي يمكن طرحها حول بعض مسلماته.

وإذا كان يمثل صعوبة فنية، أو قد يؤدي إلى نوع من سوء الفهم لدى الطلاب، فإن من الممكن تناول هذه الأمور في (كتاب المعلم) شريطة إيجاد آلية لتقديمها للطلاب بطريقة ملائمة.

٣- عقد دورات تنشيطية لمدرسي المدارس يتم فيها تناول هذه القضايا بعمق وشفافية، والاطلاع على الجديد الطارف في المواد التي يدرسونها.

إن مهمتنا أن نساعد طلابنا على امتلاك رؤية منهجية ممتازة، تمكنهم من استيعاب الجديد، ودمجه مع القديم في إطار معرفي رحب وشامل.

وإني أعتقد أن هذه المسألة تحتمل الحوار، وتحتاج إلى إنضاج أكثر والله الهادي إلى سواء السبيل.

حول رسم الأهداف ٢٤

يعيش العالم المتقدم اليوم أزمة حضارة بسبب افتقاده الوجهة أو الهدف الأكبر الذي يجذب إليه جميع مناشط الحياة، ويمنحها المنطقية والانسجام.

أما المسلمون اليوم فأزمتهم الأساسية، هي أزمة حركة العالم، وأزمة شهود على العصر؛ فهم في أكثر الأحيان يتأثرون، ولا يؤثرون، ويأخذون من الحياة أكثر مما يعطونها، وذلك بسبب انخفاض إنتاجتهم، وضعف إدارتهم لإمكاناتهم الشخصية والعامة. نقرأ آيات الاستخلاف وشروط التمكن في الأرض، وأدبيات النجاح والفلاح، لكن قليلين منا أولئك الذين يسألون أنفسهم عن وظيفتهم الشخصية في تحقيق كل ذلك!

إن الأماني الوردية حول قيادة أمتنا للعالم، تداعب أخيلة كثيرين منا وتدغدغ مشاعرهم، لكن لا أحد يسأل عن آليات تحقيق ذلك، ولا عن الإمكانات المطلوبة للسير في طريقه؟

إني أعتقد أن هناك حقيقة أساسية غائبة عن أذهان الكثيرين منا، هي أننا لا نستطيع أن نوجد مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده؛ ولذا فإن النهوض بالأمة يقتضي على نحوٍ ما أن ينهض كل واحد منا على صعيده الشخصي، وما لم نفعل ذلك، فإن الغد لن يكون أفضل من اليوم.

إن رسم الأهداف نوع من مدِّ النظر في جوف المستقبل، وإن الله - جل وعلا - يحثنا على أن نتفكر في الآتي، ونعمل له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ

﴿نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] إن المسلم الحق لا يكون إلا مستقبلياً ولكننا بحاجة إلى أن نعمم روح الالتزام نحو الآخرة على مسلكنا العام تجاه كل ما يعيننا من شؤون وأحوال.

أهمية وجود هدف:

من الأدوات الأساسية في تحسين وضعية الفرد أن يكون له هدف، يسعى إلى تحقيقه. ونرى أن حيوية وجود هدف واضح في حياتنا، تنبع من اعتبارات عديدة، أهمها :

١- إن كل ما حولنا في تغير دائم، والمعطيات التي تشكل المحيط الحيوي لوجودنا لا تكاد تستقر على حال، وهذا يجعل كل نجاح نحققه معرضاً للزوال؛ ووجود هدف أو أهداف في حياتنا، هو الذي يجعلنا نعرف على وجه التقريب ما العمل الذي سنعمله غداً، كما أنه يساعدنا على أن نتحسس باستمرار الظروف والأوضاع المحيطة ؛ مما يجعلنا في حالة دائمة من اليقظة وفي حالة الاقتدار على التكيف المطلوب.

وقد جرت عادة الكثيرين منا أن يسترخوا حين ينجزون عملاً متميزاً؛ مما يضعهم على بداية الطريق إلى أزمة تنتظرهم. ولذا فإن الرجل الناجح، هو الذي يسأل نفسه في فورة نجاحه عن الأعمال التي ينبغي أن يخطط لها، ويقوم بإنجازها فالتخطيط هو الذي يجعل المرء يأتي قبل الحدث. أما معظم الناس فإنهم لا يفكرون إلا عند وجود أزمة، ولا يتحركون إلا حين تحيط بهم المشكلات من كل جانب، أي يستيقظون بعد وقوع الحدث؛ وبعد فوات الأوان!

٢- إن وعي كثيرين منا بـ(الزمن) ضعيف، ولذا فإن استخدامنا له في حل

(١) سورة الحشر: ١٨.

مشكلاتنا محدود. وحين يجتمع الناس برجل متفوق فإنهم يضعون بين يديه كل مشكلاتهم، ويطلبون لها حلولاً عاجلة متجاهلين عنصر (الزمن) في تكوينها وتراكمها، وطريقة الخلاص منها. وجود هدف في حياة الواحد منا يجعل وعيه بالزمن أعظم، ويجعله يستخدمه في تغيير أوضاعه. إذا سأل كل واحد منا نفسه ماذا بإمكانه أن يفعل تجاه جهله بعلم من العلوم - مثلاً- أو قضية من القضايا، فإنه يجد أنه في الوقت الحاضر لا يستطيع أن يفعل أي شيء يذكر تجاه ذلك.

أما إذا سأل نفسه: ماذا يمكن أن يفعل تجاهه خلال خمس سنين، فإنه سيجد أنه يستطيع أن يفعل الكثير، وذلك بسبب وجود خطة، واستهداف للمعالجة، وهما دائماً يقومان على عنصر الزمن. إني أعتقد أن كثيراً من الخلل المنهجي في تصور أحوالنا، وحل أزماتنا، يعود إلى ضيق مساحة الرؤية، ومساحة الفعل معاً، وذلك كله بسبب فقد النظر البعيد المدى.

٣- إن كثيراً من الناس، يظهرون ارتباكاً عظيماً في التعامل مع (اللحظة الحاضرة) وذلك بسبب أنهم لم يفكروا فيها قبل حضورها؛ فتتحول فرص الإنجاز والعطاء إلى فراغٍ قاتل ومفسد؛ وهذا يجعلنا نقول: إننا لا نستطيع أن نسيطر على الحاضر ونضبط إيقاعه، ونستغل إمكاناته، إلا من خلال مجموعة من الآمال والأهداف والطموحات، وبهذا تكون وظيفة الهدف في حياتنا هي استثمار اللحظة الماثلة على أمثل وجه ممكن.

إني أتجرأ و أقول: إن ملامح خلاص جيلنا، والجيل القادم - على الأقل- من وهن التخلف والنكسار- قد تبلورت في أمرين: المزيد من الالتزام بالمنهج الرباني، والمزيد من التفوق، ولا نستطيع أن نجعل هذين الأمرين حقيقة واقعة في حياتنا من غير تحديد أهداف واضحة.

سمات الهدف الجيد

١-المشروعية:

إن مجمل أهداف المرء في الحياة يعادل على نحو تام (استراتيجية) العمل لديه، ولذا فإن الذين لا يأبهون لشرعية الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها يحيون حياة مضطربة ممزقة، تختلط فيها عوامل البناء مع عوامل الهدم، وينسخ بعضُها بعضها الآخر. إن الهدف غير المشروع ، قد يساعد على تحقيق بعض النمو في جانب من جوانب الحياة، لكنه يحطّ من التوازن العام للشخصية، ويفجّر في داخلها صراعات مبهمة وعنيفة. وليس المقصود بشرعية الهدف أن يكون معدوداً في(المباحات) فحسب، وإنما المقصود أن يكون مندمجاً على نحو ما في الهدف الأسمى والأكبر الذي يحيا المسلم من أجله على هذه الأرض، ألا وهو الفوز برضوان الله - تبارك وتعالى- وهذا يعني أن الأهداف المرحلية والجزئية للواحد منا يجب أن لا تتنافر معه في وضعيتها أو معززاتها، ونتائج تفاعلها. ولعل من علامات الانسجام بينها وبين الهدف الأكبر- شعور المرء أنه يحيا (حياة طيّبة) وهي لا تولد من رحم الرخاء المادي، ولا من رحم التمتع بالجاه أو الاستحواذ على أكبر كمية من الأشياء، وإنما تولد من ماهية التوازن والانسجام بين المطالب الروحية والمادية للفرد، ومن التأنق الذي يشعر به من يؤدي واجباته.

الهدف المشروع عامل كبير في إيجاد التطابق بين رموزنا وخبراتنا، وهو إلى ذلك مولّد لما نحتاجه من حماسة للمضي في الطريق إلى نهايته.

٢-الملائمة:

لكل منا طاقته وموارده المحدودة، وله ظروفه الخاصة، وله إلى جانب ذلك تطلعات وتشوفات؛ ومن الواضح اليوم أن الحضارة الحديثة أوجدت لدى الناس طموحات فوق ما هو متوفر من إمكانات لتلبيتها، وهذا يؤدي بكثير من الناس أن يسلكوا طرقاً غير مشروعة لتلبيتها، أو يؤدي بهم إلى الشعور بالعجز والانحسار.

الهدف الملائم، هو ذلك الهدف الذي يتحدى ولا يعجز. ومعنى التحدي دائماً: طلب تفجير طاقات كامنه أو استخدام موارد مهملة، لكنها جميعاً ممكنة. حين يكون الهدف سهلاً فإن ذلك لا يؤدي إلى حشد إمكاناتنا الذاتية، ولا إلى تشغيل أجهزتنا النفسية والعقلية، كما لوأننا طلبنا من شخص أن يقرأ في كل يوم ربع ساعة، أو يستغفر عشر مرات.

في المقابل فإن الهدف الكبير جداً، يصد صاحبه عن العمل له. وفي هذا السياق نرى كثيراً من أهل الخير، يشعرون بالإحباط، ويشكون دائماً سوء الأحوال، وتدهور الأوضاع، وهذا نابع من وجود هدف كبير لديهم هو (الصلاح العام) لكن ليس لديهم أهداف صغيرة، أو مرحلة تصب فيه. إن كل هدف صغير يقتطع جزءاً من الهدف الكبير، ويؤدي إلى قطع خطوة في الطريق الطويل؛ وعدم وجود أهداف صغيرة، يجعل الهدف النهائي يبدو دائماً كبيراً وبعيداً، وهذا يسبب آلاماً نفسية مبرحة، ويجعل المرء، يظهر دائماً بمظهر الحائر العاجز. إنه لا يأتي بالأمل إلا العمل، وقليل دائم خير من كثير منقطع.

٣-المرونة:

إن أنشطة جميع البشر، تخضع لعدد من النظم المفتوحة، ومن ثم فإن النتائج التي نهدف إلى الحصول عليها، تظل دائماً في دائرة التوقع والتخمين. حين يرسم

الإنسان هدفاً، فإنه يرسمه على أساس من التقييم للعوامل الموجودة خارج طبيعة عمله، وخارج إرادته، وهذه العوامل كثيراً ما يتم تقييمها على نحو خاطئ، كما أنها عرضة للتغيير، بالإضافة إلى أن إمكاناتنا التي سوف نستخدمها في ذلك هي الأخرى متغيرة؛ ولهذا كله فإن الهدف يجب أن يكون (مرناً) أي له حدود دنيا، وله حدود عليا، وذلك كأن يخطط أحدنا لأن يقرأ في اليوم ما بين ساعتين إلى أربع ساعات، أو يزور ثلاثة من الأخوة إلى خمسة وهكذا... هذه المرونة تخفف من ضغط الأهداف علينا؛ فالناس يشعرون حيال كثير من أهدافهم أنها التزامات أكثر منها واجبات، والالتزام بحاجة دائماً إلى درجة من الحرية، وسيكون من الضار بنا تحول الأهداف إلى قيود صارمة، وحواجز منيعة في وجه تلبية رغبات شخصية كثيرة.

٤-الوضوح:

هذه السمة من السمات المهمة للهدف الجيد، حيث لا تكاد تخلو حياة أي إنسان من الرغبة في تحقيق بعض الأمور، لكن الملاحظ أن قلة قليلة من الناس، تملك أهدافاً واضحة ومحددة، ولذا فإن من السهل أن يتهم الإنسان نفسه أو غيره بأنه لم يتقدم باتجاه أهدافه خطوة واحدة خلال عشرين سنة، مع أنك لا تراه خلال تلك المدة إلا منهمكاً ومتابعاً ومهتماً بما يعتقد أنه هدف يستحق العناء!

إنه يمكن القول بسهولة: إن كل هدف ليس معه معيار لقياسه وللكشف عما أنجز منه، وما بقي- ليس بهدف. ولذا فإن من يملك أهدافاً واضحة يحدثك دائماً عن إنجازاته، وعن العقبات التي تواجهه. أما من لا يملك أهدافاً واضحة، فتجده مضطرباً، فتارة يحدثك أنه حقق الكثير الكثير، وتارة يحدثك عن خيبته وإخفاقه؛ إنه كمن يضرب في بيداء، تعتسفه السبل، وتشتته مفارق

الطرق! نجد هذا بصورة أوضح لدى الجماعات، فالجماعة التي لا تملك أهدافاً واضحة محددة تظل مشتتة الرأي في حجم ما أنجزته، ولا يكاد خمسة من أبنائها يتفقون في تقويمهم لذلك! لا يكفي أن يكون الهدف واضحاً، بل لا بد من تحديد توقيت لإنجازه، فالزمان ليس ملكاً لنا إلى ما لا نهاية، وطاقاتنا قابلة للنفاذ. ثم إن القيمة الحقيقية للأهداف، لا تتبلور إلا من خلال الوقت الذي يستغرقه الوصول إليها، والجهد والتكاليف التي تحتاجها. ولهذا كله فالبديل عن وضوح الهدف ووضوح تكاليفه المتنوعة، ليس سوى العبث والهدر والاستسلام للأماني الخادعة!

إن من أسباب ضبابية أهدافنا أننا لا نبذل جهداً كافياً في رسمها وتحديدها، وهذا لا يؤدي إلى انعدم إمكانية قياسها فحسب، وإنما يؤدي أيضاً إلى إدراكها بطريقة مبتذلة أو رتيبة، مما يفقدها القدرة على توليد الطاقة المطلوبة لإنجازها.

سنعمل الكثير من أجل أهدافنا إذا أدركنا أنه عن طريقها تتم الصياغة النهائية لوجودنا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٢٥ الثراء الثقافي مطلب المستقبل

الزمان

والمكان بُعدان أساسيان في تعاملنا مع المشكلات التي نواجهها. واهتمامات الناس تحددها ثقافتهم وخبرتهم وطبيعة المشكلات التي تعترضهم؛ فمن الناس من يكدح لتأمين لقمة الغد لأفراد أسرته، ومنهم من يحمل هموم أمة، وينشر قرون الاستشعار في أعماق مستقبلها، وعلى امتداد رقعتها المكانية بغية رؤية أوضح، وتهيئة مناخ وظروف أفضل للأجيال المقبلة.

المشكلات اليومية الملّحة تصرفنا في العادة عن توسيع دوائر اهتمامنا في الزمان والمكان؛ مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى أن نأتي بعد الحدث، وأحياناً بعد فوات الأوان؛ مما يوجد لدينا نوعاً من الاختناق على مستوى التفكير وعلى مستوى الحركة!

على مستوى المستقبل العالمي هناك نوع من التشاؤم حول الظروف التي تنتظر البشرية في الخمسين سنة القادمة حيث يتعرض كثير من المصادر الأولية للنفاد، وحيث حرارة الأرض آخذة في الارتفاع مما يؤدي إلى غرق مدن ساحلية كثيرة، وغمر أراضٍ زراعية كثيرة بمياه البحار؛ وتلويث البيئة قائم على قدم وساق، والتصحر ونضوب المياه العذبة يتصاعد، كما يتضاعف سكان الأرض أكثر من مرة خلال الحقبة المذكورة.

وينظر أكثر الشعوب إلى النموذج الغربي الأمريكي- خاصة - على أنه

النموذج الأُمنية، مع أن ذلك النموذج لو قدِّر له أن يسود لأدى إلى تدمير الحياة بأسرع مما يتصور، حيث تذكر بعض الدراسات أن المواطن الأمريكي يدمر حالياً في المتوسط مائة ضعف لما يدمره المواطن الهندي من موارد الطبيعة[1] كما أن بعض التقديرات تتجه إلى أنه لو عاشت شعوب الصين والهند- مثلاً- في نفس مستوى الرفاه والاستهلاك الموجود في أمريكا لأدى ذلك إلى اختناق العالم في مدة تتراوح بين خمس وعشر سنوات[2] !!

ولانريد أن نستطرد في هذه المقدمة البكائية لحياة البشر، وإنما نريد أن نقول ما المخرج؟؟

هناك اليوم مئات الدراسات والمقالات التي ترسم للبشرية مسارات الخروج من التيه الذي أخذت تضرب فيه. ولا ريب أن تحسين الحال وتفادي الكارثة يتطلب مبادرات وحلولاً كثيرة على العديد من الأصعدة، ولا بد لنا هنا من أن نعرض جانباً من الرؤية الإسلامية لمعالجة هذه المسألة الكبرى؛ إذ أننا أولى الناس بالانتفاع بها في خضم هذا السيل المتلاطم من الآراء والتنظيرات. ولا يخفى أن ما سنذكره لا يشمل كل جوانب تلك الرؤية، كما أنه اجتهادي قابل للجدل.

إن الرؤية الاسلامية في هذا تتمحور حول «تغيير الإنسان» نفسه في كل مناحي شخصيته وجوانب حياته ابتداء بالإيمان وانتهاء باستهلاك الموارد الطبيعية، ومرشدنا في هذا المحور قول الله - جل وعلا -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

(١) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة تأليف جان ماري بيلت.
(٢) من أجل انطلاقة حضارية شاملة. لكاتب هذا المقال.

مَابِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَابِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فتغير حياتنا نحو الأفضل؛ مرهون بتغيير رؤية الإنسان للحياة، وبالتالي تغيير سلوكه العام.

ومن نقاط الارتكاز في التغيير المطلوب: (الإثراء الثقافي) للأفراد والمجتمعات؛ لأن ذلك أهم الوسائل في تغيير سلوك الإنسان عن طواعيه، ونحو الأفضل؛ ذلك لأن الإنسان يندفع بسبب فقر ذاته، وفقر الحياة من حوله إلى (المال) بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، إلى كل ما يسبقه من أسباب ووسائل، وكل ما يقتضيه الاستمتاع به من سلوكات ومواقف.. وهذا هو بالضبط السبب الرئيسي في الاستهلاك المتزايد وتلويث البيئة على نحو لم يسبق له مثيل كما أنه السبب الأكبر في إثارة التعانف وأشكال التوتر في المجتمعات الحديثة.

إن جدب الحياة الثقافية سيجعل (المال) هو مجال التفاضل الوحيد بين الناس، وهذا سيجعل الطلب يشتد على امتلاكه بكل الأساليب والطرق مهما تكن ملتوية وغير مشروعة. والمال مهما فاض فإنه لن يزيد عن حاجة الناس؛ لأن الإنسان لا يشبع منه، على نحو ما هو واضح في الحديث الشريف: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فمه إلا التراب»[2]

ويمكن أن نذكر من مقومات (الثراء الثقافي) المطلوبة للفرد والمجتمع مايلي:

١ - الإيمان الحي:

وهو في الحقيقة أهم تلك المقومات، حيث إنه يولد الطاقة اللازمة للانصياع

(١) سورة الرعد: ١١

(٢) حديث متفق عليه.

لأحكام العقل والشرع، والأهم من ذلك أنه يفتح نافذة على عالم آخر فسيح، لا تشكل الدنيا التي يتنافس عليها الناس شيئاً ذا قيمة بالنسبة له، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وهي دار ممر على حين أن الآخرة دار مقر... وهذا كله يدفع بطريقة مباشرة وقوية نحو التضحية والعطاء والصبر وانتظار العوض في حياة أكرم وأبقى. إن الإيمان يخفف الطلب على تحقيق الذات في الدنيا عن طريق المنصب والمال والمكانة الاجتماعية والمظاهر المختلفة، بما يصرفه من نظر المسلم نحو الآخرة.

إن سحرة فرعون قالوا حين دعاهم لمبارزة موسى - عليه السلام - : ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[1] فما كان من فرعون إلا أن وعدهم بالمال والجاه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2] وحين تمكّن الايمان من قلوبهم نسوا الأجر والجاه، بل إنه غلب عليهم شعور التضحية بالدنيا كلها استغناء، بنعمة الإيمان وثماره، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[3] إن الإيمان المطلوب هو الإيمان الحي الذي لا يقتصر على بناء الفضاء النظري للمسلم، وإنما يكون عبارة عن نوع من العصف الشعوري كذاك الذي وجد عند سحرة فرعون! إن هذا الإيمان هو الذي يستطيع السيطرة على السلوك، ويساعد على إدراك أهدافنا بطريقة فاعلة بعيدة عن الرقابة والابتذال.

٢- يتخذ تحقيق الذات في العالم الاستهلاكي اليوم أشكالاً عديدة، من

(١) الأعراف :١١٣
(٢) الأعراف :١١٤
(٣) سورة طه:٧٢

أهمها: النفوذ والسيطرة على الآخرين والشهرة وحيازة الثروة والتميز في المسكن والمركب والعلاقات الاجتماعية، وعند التأمل في كل ذلك نجد أنها جميعها تستدعي مزيداً من المال، وبالتالي مزيداً من الاستهلاك واستنفاذ الموارد المختلفة؛ وعلى مدار التاريخ كان الإنسان ينتج من أجل سد حاجاته ومتطلبات الاستهلاك الأساسية، لكن الرأسمالية الغربية وقاعدتها الثقافية (الليبرالية) جعلتا الإنتاج يقوم على مبدأ: «مزيد من الاستهلاك من أجل مزيد من الإنتاج»، وهل عمل الدعايات التجارية شيء سوى تحقيق هذا المبدأ الجديد؟!

لكن النظرية الإسلامية في تحقيق الذات تقوم على تعظيم الذاتية والعناية بالجوهر الذي لا يكلف تكامله شيئاً، حتى يخف الطلب على المظهر الذي لا يتحقق أبداً إلا عن طريق الإنفاق والإتلاف. فالمسلم ذاته على مقدار ما يردم من الهوة الفاصلة بين عقيدته وسلوكه، ومن ثمّ فإن سعادته تنبع من داخله بسبب انسجام أحواله وأوضاعه مع رؤيته العامة للحياة؛ وتلك الرؤية تقوم على أن التفاضل بين الناس يكون بالتقوى ولوازمها: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]

كما تقوم على أن الصلة بالله – تعالى – مصدر سعادة وطاقة لا ينضب، هي نسمة من نسمات الآخرة! والإنسان في النظرية الإسلامية بما يعمل، وبما يحمل من سمات، وليس بما يملك من (متاع)، لذلك كان الثناء في النصوص ينصبُّ على الصفات الطيبة والأعمال الجليلة التي يقوم بها المسلم، ومن ثم فإن الشهادة في سبيل الله – تعالى– تظل أمنية غالية لصالحي هذه الأمة؛ لأنها قمة تحقيق الذات، وهي عطاء خالص، يصون عقائد الأمة، ويدافع عن أوطانها دون أن

(١) سورة الحجرات:١٣

يكلف أحداً شيئاً!!

٣- الحراك الاجتماعي النشط:

إنسانية الإنسان لا تكتمل إلا عبر الحياة الإجتماعية، كما أن جوانب كثيرة من الشخصية لا تتفتح إلا من خلال التربية الاجتماعية، ومن خلال مباشرة الأعمال والمهمات المختلفة، وليس ذلك فحسب بل إن المجتمع يتعرض للتأسن والتحلل الذاتي - كالماء - ما لم يكن قادراً على الاستجابة لمختلف متطلبات الحركة الاجتماعية العالمية والمحلية، ومن هنا الرؤية الإسلامية للثراء الثقافي تتجه إلى ضرورة إيجاد الأطر والدوائر والمجالات التي تتيح للفرد حركة اجتماعية نشطة يعطي الفرد من خلالها، ويأخذ، ويؤثر ويتأثر، ويُعلِّم ويتعلّم... وهذه الحركة فرصة لإظهار المواهب واكتساب المهارات وحل المشكلات ومساعدة الضعفاء وتصريف الطاقات وشغل الأوقات...

والحراك الاجتماعي الجيد فضلاً عن أنه يخفف الطلب على المال ومظاهر الاستهلاك المختلفة، فإنه يحول دون وقوع الناس موحلة (القصور الاجتماعي) حيث إنه ليس الأصل في المجتمعات هو الانسجام والوئام وإنما التنافس والتزاحم؛ وبمجرد حدوث عزلة اجتماعية أو ركود في التبادل الاجتماعي فإن الإنسان البدائي المختبئ تحت الجلد سرعان ما يظهر ليمارس ألواناً من الوحشية والعدوان على الآخرين؛ ولذا فإن من علامات نضج المجتمع وصحته وسيطرته على مشكلاته ثراءه بالمؤسسات الوسيطة التي تتيح لكل إنسان نوعاً من العطاء والنمو والتواصل مع الآخرين من مثل المنظمات والجمعيات والنوادي والروابط وهيئات الإغاثة وما شاكل ذلك من الأطر الطوعية التي تنمي الحياة

الاجتماعية، وتساعد أفراد المجتمع على الشعور بالانسجام والنضج والتأثير في الآخرين، وأيضاً بالتميز الذي يوفر للمرء أماناً من الذوبان في المجتمع والضياع فيه.

إن هذه الأوضاع الثلاثة كافية عند وجودها بطريقة فاعلة - لتغيير الكثير من جوانب حياتنا، كما أنها سوف تساعد على الحد من الاستهلاك وتلافي الكثير من الكوارث التي تنتظر البشرية إذا ما هي أصرت على السير في الطريق الموحش حتى النهاية..

اجتماعيات الحج ٢٦

يمثل الحج إلى بيت الله الحرام ركناً ركيناً من أركان الإسلام. وتغمر الفرحة المسلم حين يؤدي هذه الشعيرة العظيمة على الرغم من المشاق والصعاب، لأنه بذلك يستجيب للواعج الشوق المكنون الصدر ويلبي نداء أبيه إبراهيم - عليه السلام- ويترسم خطى نبيه - ﷺ- في أداء مناسكه.

إن تحديد الإسلام مكاناً وزماناً خاصين لأداء هذه الشعيرة، يجعلها إلى جانب كونها عبادة بدنية ومالية - عبادة اجتماعية، يتطلب حسن أدائها بعض الآداب الاجتماعية الرفيعة، كما يتطلب درجة من الشفافية، يمتلكها القاصد إلى بيت الله الحرام. ونحب أن نقف مع هذه المسألة الوقفات التالية:

١- ينتج من لقاء الناس بعضهم مع بعض في العادة العديد من التوترات والتشنجات ؛ حيث إن كل واحد منهم ، يرسم مجاله الخاص، ويؤذيه الاعتداء على ذلك المجال على أي وجه من الوجوه، كما يحصل في حالات الزحام الشديد. ومع ازدياد المسلمين في العالم، فإن أماكن شعيرة الحج معرضة لمزيد من الاكتظاظ والازدحام في المستقبل. وهذا يشكّل أزمة، لكن كل أزمة تمنح فرصة حين تتم مواجهتها على النحو الصحيح.

٢- إن المطلوب الأول من كل حاج - على المستوى الاجتماعي- أن يحترم المجال الخاص لأخيه الحاج، فلا يقتحمه بالمدافعة والمزاحمة ، ولا بفضول النظر، ولا بالصراخ والضجيج، ولا بالتسبب بنشر الروائح الكريهة... وما أجمل

النصاح التي أسداها لقمان لابنه حين قال له : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[1] وحين رأى النبي -ﷺ- بعض الناس، لا يلتزمون الرفق في إفاضتهم من عرفات، نهاهم، وقال: «اتقوا الله، وسيروا سيراً جميلاً، لا تطؤوا ضعيفاً، ولا تؤذوا مسلماً».[2]

ويتجاوز الأمر موضوع الإيذاء الحسي والجسدي إلى مجال المشاعر والأحاسيس، حيث لا ينبغي للحاج أن يكدّر نفوس إخوانه من خلال الجدال والمبالغة في المماراة والخصومة، كما قال سبحانه: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[3]

بعض الناس لا يبالي بما سيلحقه بإخوانه من الأذى والضرر من جراء فعل سنة أو مندوب، أو من جراء المشي أو الجلوس على نحو مريح، فهو يتصرف وكأنه في بيته بعيداً عما يفرضه الاجتماع بالناس من آداب وحقوق!.

لا تقتصر مسؤلية الحاج على كف الأذى عن إخوانه، بل تتجاوز ذلك إلى الحرص على حمايتهم من الأوبئة، والأمراض المعدية، ومنها ما ينتقل بسبب اللمس، وينبغي أن يتخذ الحاج المصاب بشيء من ذلك الاحتياطات اللازمة لمنع إيذاء إخوانه، ونقل المرض إليهم. في بعض الدول المتقدمة - كاليابان مثلاً- يضع المصابون بالزكام كمامات على أفواههم وأنوفهم، كيلا ينتقل الفيروس إلى

(١) سورة لقمان :١٨ , ١٩

(٢) أخرجه النسائي والحاكم وصححه.

(٣) سورة البقرة :١٩٧

المارة بالشارع. والمسلم الذي خرج من بيته متعبداً متنسكاً أولى بهذا من غيره.

٣- مجتمع الحج مجتمع فريد، يتكون جمهوره الأعظم من الغرباء مختلفي اللغات والخبرات، وفيه أعداد كبيرة من الطاعنين في السنّ والنساء والضعفاء، ممن يحتاج إلى معونة وخدمة. وهذا يشكّل فرصة ذهبية للحريصين على كسب الأجر وإسداء المعروف، ولا سيما أن أمة الإسلام بحاجة ماسّة اليوم، إلى أن تقوّي في نفوس أبنائها روح المجانية والعطاء والمساعدة، كي تتغلب على الظروف المعيشية والبيئية الصعبة التي تواجه أعداداً كبيرة من الناس.

إن هناك العديد من النصوص التي ترشدنا إلى أنواع الخدمات المعنوية والمحسوسة التي يمكن أن يقدمها المسلم لأخيه المسلم، مما يخفف من معاناته، ويرفع من معنوياته، ويشدّ من أزره ومن تلك النصوص قوله-ﷺ- : «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[١]، وقوله: «كل سلامي من الناس عليه صدقة كلّ يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعها صدقة. والكلمة الطيبة صدقة. وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة »[٢] وفي حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه- أمرنا رسول الله -ﷺ- «بعيادة المريض واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبراز المقسم، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام» [٣]

إن أعما ل الخير هذه إلى جانب الثواب العظيم عليها - تجعل المسلم يشعر

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الشيخان والسلامي: المفصل.
(٣) أخرجه الشيخان.

(بالتأنُّق) الذي لا يشعر به إلا من تجاوز حد الضرورة وحد الواجب ، ووجد من فضل الأوقات والجهود والأموال، ما يحسِّن به حال إخوانه المسلمين.

٤- يمثِّل التجمع الإسلامي الكبير في الحج في العالم الإسلامي أدق تمثيل، ولم يعد خافياً على أحد أن أمية القراءة والكتابة تجتاح مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، وتتجاوز نسبتها في الحد الأوسط ٤٠٪ من إجمالي السكان. أما أمية المعرفة بالأحكام الشرعية، فإنها أعلى من ذلك بكثير! ولذا فإن من المألوف أن يجد المرء كثيراً من الحجاج الذين يحتاجون إلى من يرشدهم إلى الأداء الصحيح للمناسك، كما يجد بعض التصرفات التي تحتاج إلى تنبيه وتصحيح. وهذا يلقي على كل من يملك شيئاً من الفقه والعلم مسؤولية الإرشاد والتوجيه والتعليم.

إن هناك الكثير من المسلمين الذين لم تظفر بيئاتهم ببرمجة ثقافية جيدة، ولم يتهيأ للواحد منهم أن يتعرف على وجهات نظر أخرى، أو ثقافات متنوعة غير ما هو سائد في بيئاتهم المحلية. ويمثل الحج فرصة لإثراء ثقافتهم وتوسيع مداركهم .

إن كثيراً من الناس يزهد فيما يمكن أن تحدثه الكلمة الطيبة والمعلومة الصحيحة في حياة الآخرين من إصلاح وتقويم؛ وهذا منهم سوء تقدير لمكانة العلم والفكر وحجم إسهامهما في تغيير حياة الناس والارتقاء بها على المدى البعيد.

٥-لم يكن المسلمون في يوم من الأيام أحوج إلى التعارف والتآزر منهم اليوم؛ حيث ينظر إليهم العالم شرقه وغربه على أنهم - على المستوى الثقافي على الأقل - شيء واحد، ويعاملون على أنهم كذلك. هذا العصر هو عصر الكبار،

وعصر التكتلات والتجمعات الإقليمية والعقائدية معاً: ولا بد للمسلمين من أن يرتفعوا إلى مستوى متطلباته. يقولون : إن الوعي بالذات فرع عن الوعي بالآخر؛ ولذا فإن الحج مناسبة عظيمة لزيادة الوعي الإسلامي، من خلال التعرف الذي يتيحه بين المسلمين، وهذا التعرف يمثل الخطوة الأولى على طريق التعاون والتوحد بين شعوب الأمة الواحد. إنني أتمنى أن يستهدف كل حاج أن يزداد بصيرة بأوضاع بلاد إخوانه المسلمين: الموقع والسكان والاقتصاد والإمكانات والمشكلات والفرص؛ حتى نحقق معاني الجسد الواحد والأمة الواحدة.

إن قوله- جل وعلا-: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[1] لم يحدد لنا نوعية المنافع التي يمكن أن يصيبها الحاج من وراء شهود الموسم، وقد تركها غفلاً لنتمكن نحن من توسيع دلالة اللفظ كلما ترقينا في سلم الحضارة، وازداد وعينا بالفرص المتاحة.

يقولون: إن كل العلوم تتبدأ بالتفتح عندما يتم إدراك مستويات عديدة في الظاهرة الواحدة وكذلك نقول: إن أشكالاً من الوعي والفهم سيكتسبها الحاج من خلال الاطلاع على واقع المسلمين واستيعابه على النحو الصحيح .

إن تجسيد اجتماعيات الحج والارتقاء بها لن يتم دون تعاون الجهات التي ترسل الحجاج من أنحاء العالم الإسلامي؛ حيث تستطيع كل جهة من خلال دورة تدريبية، لا تتجاوز أسبوعاً أن تدرب حجاجها على أداء مناسك الحج، وتشرح لهم الأحكام الضرورية لصحة أدائها، كما يمكنها أن تلفت انتباههم

(١) سورة الحج:٢٨

إلى الآداب والسلوكات التي تساعد على إنجاح هذا اللقاء الإسلامي الكبير، وجعله موسماً لمزيد من التراحم والتلاحم.

ربما كانت (ماليزيا) البلد السبّاق في ميادين إعداد الحجاج وتثقيفهم، حيث إنها استطاعت من خلال مؤسسة (طابوق حجي) [1] أن ترشد وتعلّم مئات الألوف من الذين يرغبون بأداء فريضة الحج وذلك على مدار العشرين سنة الماضية.

مهما قُدّم للحجاج من خدمات، ومهما ذُللت السبل أمامهم؛ فإن المعول عليه دائماً في إنجاح هذه المشروعات هو من سيستفيد منها، وهو الإنسان؛ إن للحاج دوراً لا يستطيع أحد أن يقوم به بالنيابة عنه.

والله ولي التوفيق.

(١) أي صندوق الحج

٢٧ ضرورة إحياء ظاهرة الوقف[١] الإسلامي

ما عُرفت أمة بالعناية بتأمين موارد ثابتة للإنفاق في وجوه الخير- كما عُرفت هذه الأمة، وقد تفننت فيه، فجعلته أشكالاً وألواناً لنفع الذراري والفقراء وأبناء السبيل وطلاب العلم والمرابطين في سبيل الله؛ حتى البهائم نالها من ذلك نصيب.[٢]

شاعت ظاهرة الوقف بين الصحابة - رضوان الله عليهم - حتى قال جابر: ما بقي أحد من أصحاب رسول الله-ﷺ- له مقدرة إلا وقف. وكان الإمام النووي لا يأكل من فاكهة الشام وخضارها لاعتقاده أن أكثر أراضي الشام كان في الأصل وقفاً، ثم استولى عليه الناس!

وقد كان كله استجابة لحض النبي -ﷺ- على الوقف، ولما ذكر من الثواب العظيم لهذا النوع من أعمال البر. وقد قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً، فإن شِبعَه وروثه وبوله في ميزان حسناته»[٣].

لقد سدّت الأوقاف الإسلامية من الثغرات والخلال، ودفعت بالمستوى الحضاري للأمة أشواطاً بعيدة، هي أكثر مما نظن؛ وكان لذلك أطيب الأثر في التضامن والتكافل بين أبناء الأمة الواحدة!

(١) المراد بالوقف : تحبيس الأصل . وإباحة منافعه لارتفاق الناس بها. بحسب شرط الواقف.
(٢) وقفت أم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها - حلياً. قيمته عشرون ألفاً على نساء آل الخطاب. فكانت لا تؤدي زكاته. وكان بعض المسلمين يقف القدوم والفأس والحبل والكتب وآلات القتال . وأشياء أخرى كثيرة.
(٣) الفقه الإسلامي وأدلته ١٥٨:٨

وقد تراجعت هذه الظاهرة المباركة تراجعاً مريعاً في عالمنا الإسلامي، ولا تكاد تلمس اليوم بشكل واضح إلا في بناء المساجد والمدارس الشرعية!

ولهذا التراجع أسبابه الجوهرية، وربما كان من أهمها (السلبية) التي باتت تصبغ حياة المسلم اليوم، بالإضافة إلى عدم وجود ضمانات كافية لاستمرار الوقف، واستخدام ريعه في عين ما حدده الواقف من وجوه الخير.

وإن كثيراً من أعمال الخير، لا يستمر في زماننا هذا، ولا يمكن توسيعه بسبب عدم وجود روافد ثابتة، كما أن كثيراً من الناس يملك فوائض مالية، تُصرف في غير وجهها، ولذا فإن هناك ضرورة حيوية لبعث الاهتمام بهذه المسألة، وجعلها في مقدمة ما يجب إصلاحه في المجتمعات الإسلامية.

وفي تصوري أنه يجب القيام بأمور عديدة في سبيل ذلك، منها:

أ- التركيز على أهمية الوقف الإسلامي، وضرورة مشاركة كل مسلم فيه مهما تكن مشاركته قليلة ومحدودة. وإشاعة ذلك في جميع الوسائل التثقيفية، كالمناهج الدراسية وخطب الجمعة والدروس المسجدية والصحف والمجلات...

ب- إيجاد أطر عملية كثيرة لاستيعاب ذلك حتى يجد الراغب في وقف شيء، المجال الذي يرغب فيه، والجهة التي تقوم بتحقيق تلك الرغبة، وجعلها شيئاً واقعاً ملموساً. وفي طول العالم الإسلامي وعرضه لجان لبناء المساجد، ونحن بحاجة إلى لجان كثيرة على نمطها لتشجيع ألوان جديدة من الوقف، والقيام في رعايتها.

ج- يجب أن تساهم الحكومات في ذلك بخصم الضرائب كما ينفقه المسلم على الوقف -إن كان هناك ضرائب- وتشجيع كبار الواقفين بإطلاق أسمائهم

على المدارس والشوارع والأحياء والمنتديات.

د- وضع ميثاق شرف إسلامي على أعلى المستويات، يتضمن التعاهد على المحافظة على الأوقاف، وضرورة تنفيذ شروط الواقفين - ما دامت مشروعة- وتشكيل مكاتب ولجان مختلطة من جهات حكومية وشعبية للإشراف على مراعتها، ولحماية الأوقاف من العدوان عليها واستخدامها في غير وضعيتها الأصلية.

هـ- إيجاد برامج متنوعة طويلة الأمد يساهم من خلالها المسلمون في إعادة ظاهرة الوقف الإسلامي إلى عهدها الزاهر، وتعميمها، كأن يشترك الفرد بمبلغ رمزي شهرياً على أمل أن يكون لديه قبل وفاته مبلغ يُبنى له به مسجد أو مدرسة، أو تنشأ به مكتبة أو ورشة لتديب الشباب على حرفة أو.....

و- إيجاد مجلس عالمي للوقف الإسلامي، يقوم بإيجاد سبل التعاون بين المؤسسات الوقفية في العالم الإسلامي، كما يقوم بنقل التجارب والخبرات في هذا المجال، ويتولى إلى جانب ذلك قيادة حملات من التوعية والتثقيف بأهمية المشاركة الشعبية في تشييد الأوقاف ورعايتها على مستوى العالم الإسلامي.

إنني أعتقد أن بإمكان المسلمين أن يجعلوا ظاهرة الوقف الظاهرة الأكثر إشراقاً في حياتهم، والأكثر دفئاً ونفعاً وإشاعة للخير، والأكثر دلالة على الارتقاء الحضاري! لكن ما نحتاجه دائماً هو الوعي والعزيمة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٢٨ تعميم ثقافة التنمية

إن الذي يطلّع على مجمل الدراسات والتقارير الاقتصادية حول شؤون البيئة والموارد والبطالة والمشكلات الاجتماعية المختلفة- ينطبع في نفسه نوع من الشعور بالإحباط بسبب الخلل الكبير الذي نعاني منه في أكثر من صعيد.

وينتهي المرء بعد التأمل وتقليب النظر إلى أن تحسين الأحوال يكاد يتوقف على إجراء حاسم وأساسي، هو أن يتغير الإنسان لدينا من خلال توسيع قاعدة الفهم لديه وتمكينه من استثمار طاقاته الفكرية والنفسية والروحية والاجتماعية، بالإضافة إلى تغيرات واسعة في عاداتنا النفسية والذهنية والسلوكية. لا ريب أن هذا وحده لا يعد كافياً للخلاص من حالة التخلف التي نعاني منها، لكنه شرط أساسي لا يمكن تجاوزه في أية خطة علاجية مهما كانت مرتكزاتها.

واستعداد الواحد منا لأن يغيّر في نمط حياته ليس شرطاً لتحسين الحياة الاقتصادية فحسب، وإنما هو شرط لتحسين أحوالنا كلها.

أهمية التنمية:

يمكن القول بأن أكبر مشكلة يواجهها مسلم اليوم، هي أن يعيش في عصر لم يضع شروط العيش فيه؛ فالدول المتقدمة هي التي تقوم بوضع شروط الحياة المقبولة والمنتجة لنفسها أولاً، ثم تنتقل تلك الشروط إلى الدول الأخرى من خلال المثاقفة والتبادل التجاري وغير ذلك...

ومن الواضح اليوم أن أي تأزم على الصعيد (الاقتصادي) لا بد أن ينعكس على الأصعدة الأخرى، فتكاليف الحياة في ازدياد مستمر، وتأهيل الأجيال الجديدة للعيش بفاعلية وكفاءة صار مكلفاً جداً، ومن ثمّ فإن الركود الاقتصادي ستكون له إفرازات رديئة على التربية والتعليم والتديب والصناعة وسوق العمل والاستقرار الاجتماعي .. ولذا فإن تثقيف الناس بما ينبغي عليهم تحمله من مسؤوليات واتخاذه من مبادرات حيال الموارد والامكانات المتاحة محافظةً واستثماراً يُعدُّ اليوم ذا أهمية بالغة حتى لا نصحو بعد فوات الأوان!

محاور الثقافة التنموية :

١-الموارد المتاحة:

لا توجد شعوب من غير موارد، لكن التفاوت في الموارد المتاحة بين أمة وأخرى قد يكون كبيراً؛ وقد أثبتت التجارب الحاضرة أن الموارد الوفيرة في مسألة التنمية لا تشكل سوى أحد طرفي المعادلة، أما الطرف الآخر فهو تكيف المجتمع ومقدرته على استغلال موارده بكفاءة وحنكة عالية؛ وذلك من خلال استبصار الناس بحجم مواردهم وقيمتها والوضعية الملائمة التي ينبغي أن يكونوا فيها، والخطط العامة التي ينبغي عليهم أن ينتهجوها .. بعض الدول تملك الموقع الجغرافي المتميز، وبعضها يمتلك الأراضي الزراعية الخصبة، وبعضها يمتلك النفط والغاز أو الفحم الحجري، وبعضها وبعضها...ومضمون الثقافة التنموية حيالها يكون بتوجيه الأنشطة الجماعية والفردية والمؤسساتية نحو الاستغلال الأمثل لتلك الموارد، وتأهيل البنية التحتية والطاقات البشرية لتحويل تلك الموارد إلى ثروات تحرك جميع المجالات الاقتصادية الأخرى.

هناك دول عربية وإسلامية تقع على البحار والمحيطات، وخيراتها بين يديها، ومع ذلك فإنه يجتاحها ما يشبه المجاعة بسبب ثقافة رديئة موروثة، وبسبب انعدام الثقافة التنموية التي ينبغي أن تستوعبها.

وهناك دول لديها كثافة سكانية عالية، ولا موارد لديها، ومع ذلك فإنها لم تصنع شيئاً لتحويل الأعداد الضخمة من السواعد إلى قوى منتجة...

٢-البيئة:

مَهَد الله -تعالى- الأ رض لبني البشر، وسخّر لهم كل طاقاتها، وطلب منهم القيام بحق الاستخلاف، كما طلب منهم إعمارها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]

إن الأرض كائن حي تعيش فوقه أعداد هائلة من البشر، هذه الأعداد غدا السواد الأعظم منهم مشغولاً بالاستهلاك وطلب المتعة، وذلك بالطبع سوف يعجل بنفاد كثير من موارد الأرض وعناصرها وطاقاتها غير المتجددة. كما أن الوتيرة المتصاعدة من الإنتاج والاستهلاك تترك وراءها مخلفات وفضلات وملوثات هائلة تجعل الأرض غير صالحة للحياة، بل تحوّل الحياة عليها إلى نوع من العذاب والحرمان الذي لا يُطاق.

لقد تضاعف سكان العالم ثماني مرات منذ بداية القرن الثامن عشر حتى اليوم، ولكن الإنتاج تضاعف مئة مرة. وخلال السنوات الأربعين الأخيرة تضاعف الإنتاج الصناعي سبع مرات، وتضاعف استهلاك الموارد المعدنية ثلاث مرات.

---

(١) سورة هود:٦١

إن الإنتاج الصناعي المتزايد يتسبب في ظهور منتجات ثانوية جامدة وغازية شديدة الضرر. والمخلفات الجامدة سوف تتزايد وقريباً سوف يطرح العالم سنوياً من المخلفات ما يكفي لطمر عاصمة مهما كانت كبيرة بأكوام من الفضلات، سماكتها مئة مترٍ، فكيف يمكن إنقاص هذه الفضلات، وأين يمكن طرحها والخلاص منها.[1]

وتبين بعض الدراسات التي تعتمد على بناء النماذج والتجارب حدوث ارتفاع في متوسط درجات حرارة سطح البحر بمقدار (٥,١-٤,٥) درجة حرارة مئوية، مما سيؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح البحر بمقدار (٢٥-١٤٠ سم) مما يعني غمر المدن الساحلية والمناطق الزراعية المنخفضة.ويعتقد الخبراء أن تخوم المحاصيل والأحراج ستنتقل إلى خطوط عرض أبعد.[2]

ولا أريد هنا أن أتحدث عن ثاني أكسيد الكربون في الجو والتزايد المستمر لتركزه، ولا عن اتساع ثقب الأوزون، ولا عن التصحر واختفاء الغابات، وهي كلها مشكلات كبرى تحتاج إلى حلول عالمية جادة. إن مشكلة الإجهاز على البيئة تنبع من أن الأرض واحدة، فما يحدث في غربها ينعكس على شرقها، لكن العالم ليس واحداً؛ فلكل دولة سياساتها وطموحاتها ومشكلاتها!!

وقد شبه بعضهم الأرض بمكتبة تغتني، ونتثقف بكنوزها، ونغنيها دائماً بالجديد المتميز، ثم نتركها صالحة لمن يأتي بعدنا. هذا هو واجبنا تجاه هذا الكوكب، إن المطلوب منا جميعاً أن نتفهم انعكاسات سلوكاتنا اليومية على صحة البيئة، وأن نزرع الإحساس بالمسؤلية في عقول الصغار والكبار تجاهها،

(١) آفاق المستقبل تاليف جاك أتالي- بيروت-دار العلم للملايين١٩٩٢.

(٢) من أجل انطلاقة حضارية شاملة بقلم كتاب المقال- الرياض- دار المسلم-١٤١٥.

قبل أن تتدهور حالة الأرض إلى درجة لا ينفع معها الاستدراك!

٣-استثمار الإمكانات المتاحة:

مهما كانت الظروف قاسية فسيظل أمام الواحد منا بعض الفرص والمجالات للحركة وإظهار الأداء الجيد، لكن المشكلة أننا نستهين في كثير من الأحيان بما لدينا، وكثيراً ما تكون طموحاتنا أكبر بكثير مما هو متاح، وقد نقع في معادلة رديئة حيث نشعر بأن ما لدينا غير كاف، وما نتطلع إليه غير متيسر، وتكون النتيجة أن نأخذ إجازة مفتوحة!!

إن هناك مبدءاً عملياً في التوفيق بين الموجود والمرغوب، هذا المبدأ يتلخص في: «إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً» ومسيرة الإنجازات الضخمة ناطقة بضعف البدايات، وضآلة الإمكانات الأولية؛ وما هو حقائق اليوم كان بالأمس ضرباً من الخيال.

إن النبي -ﷺ- لقن أصحابه درساً عملياً في كيفية التصرف الحسن بالمتاح مهما كان محدوداً، وذلك حين جاء فقير يسأله. فقال له:أما لَك مال؟ فقال الرجل: عندي بساط نجلس عليه، وقدح نشرب به. فقال: ايتني بهما، فجاء بهما، فعرضهما على من كان عنده قائلاً من يشتري هذين، إلى أن باعهما بدرهمين، فأعطاهما إياهما، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، واشتر بالآخر فأساً، وأمره أن يعود إليه، فعاد فوضع له خشبة في الفأس، فقال: اذهب، واحتطب، ولا أرينك خمسة عشر يوماً. فذهب، ثم عاد إليه ومعه عشرة دراهم فقال: يا رسول الله بارك الله لي فيما أمرتني به، فقال: هذا خير من أن تأتي يوم القيامة في وجهك نكتة

المسألة[1]

٤-الإحساس بالوقت:

الوقت هو الذهب المتاح للجميع، وقد كان تقسيم اليوم إلى ساعات، وتقسيم الساعات إلى دقائق، والدقائق إلى ثوان... كان ذلك عبارة عن فتح جديد للإحساس بالوقت والتعامل بدقة ومسؤولية.

وقد أقسم الله - تعالى - بالفجر والعصر والضحى والليل والنهار؛ ليلفت الانتباه إلى خطورة الزمان؛ كما أن بعض الشعائر الإسلامية قرن وجوبها أو صحتها بالوقت على وجه بالغ الدقة، كما هو الشأن في الصيام والصلاة والحج.. وكل ذلك من التنبيه للقوى الباطنية لدى الإنسان وحمايته من ترهل الشعور والإحساس تجاه الوقت الذي يعني (الحياة) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

إن دقة الالتزام بالمواعيد، بل ودقة تحديدها مؤشر مهم إلى درجة التحضر والرقي التي بلغتها الأمة، إن حسابات ساعات العمل لما نريد إنجازة مؤشر آخر لاهتمامنا باقتصادية الوقت.

في حكومة الرئيس الفرنسي السابق (ميتران) وزارة كاملة لرعاية الوقت وتعليم الناس كيفية استغلاله والتعامل معه بطريقة مثلى.

إن التفاوت الذي نلحظه بين إنسان وآخر لا يتمثل-في أكثر الأمر- في تفاوت (القدرة)، وإنما في تفاوت (الإرادة) والذين يسيطرون على إرادتهم وميلوهم، ويوجهونها الوجهة النافعة لا يكونون إلا من أولئك الذين يشعرون

(١) معنى الحديث في «سنن أبي داود»

بالزمن، ويعرفون معنى الحياة! إن تربية الإرادة شيء يمارسة المجتمع، وإن الإرادة الحديدية تظل دائماً في حالة سباق مع الزمن!

٥-الاقتصاد في الإنفاق:

تحوّل كثير من الناس في العصر الحديث إلى مجرد أدوات استهلاكية، وقد كانت الآلية التي تحكم الإنتاج والاستهلاك على مدار التاريخ تقوم على مزيد من الإنتاج لتلبية مزيد من الاستهلاك، فقد كان الإنتاج في خدمات حاجات الناس ومتطلبات الحياة. لكن الآلية التي تتحكم اليوم في الأسواق، وفي البنى الصناعية العميقة تتلخص في (مزيد من الاستهلاك من أجل مزيد من الإنتاج). فقد صار الاستهلاك الضخم هدفاً يسعى إليه المنتجون، وقد تم توفير كل الظروف المغرية والمحفزة على إنفاق المال على السلع مهما كانت حاجة الناس إليها ثانوية، وتم الارتقاء بالحد الأدنى المطلوب لراحة الإنسان نحو آفاق بعيدة، وصارت تكاليف الحياة بالتالي عالية جداً.

إن الهياكل الاقتصادية والبنى التحتية في معظم بلدان العالم الإسلامي ضعيفة جداً، وهي تحتاج إلى أموال ضخمة حتى تصبح مؤهلة لتكوين قاعدة صلبة لتنمية مناسبة منشودة. وإن توفير تلك الأموال يجب أن يتم بصورة أساسية عن طريق ترشيد الاستهلاك وشد الأحزمة، حتى يتكون في كل بلد إسلامي رأس ماله الوطني بشكل جيد وكافٍ لتمويل المشروعات التنموية والاجتماعية التي يحتاج إليها الناس حاجة ماسّة، وإن حسن التدبير مطلب شرعي وحضاري دائماً، وقد أثنى الله تعالى عباده الذين يتوسطون في الإنفاق

حين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1] وذم أولئك الذين يتلفون المال سفهاً وبطراً ورئاء الناس إذ قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾.[2]

إن من الغريب حقاً أننا بذلنا حياتنا وصحتنا وأوقاتنا - وأحياناً شيئاً من كرامتنا - في جمع كل قرش بأيدينا، ثمّ إننا لا نأبه بعد ذلك لكيفية صرفه والانتفاع به !!

إن من المهم أن ننشر ثقافة عامة وعريضة بين الناس، نسميها (ثقافة حسن التدبير) في المسكن والمأكل والملبس والمركب، وفي مجالات الترفيه المختلفة، وأن نحاول إثراء الحياة الاجتماعية؛ حتى لا يصبح التظاهر بالقدرة على الانفاق والاستهلاك المظهر الأكبر للوجاهة والقوة والنجاح.

٦- المشكلات الخاصة :

لكل بلد ميزاته وفرصه المثالية، كما أن له مشكلاته وأشكال معاناته، ولا يوجد بلد في الأرض خال من لون من الصعوبات والتحديات، والمطلوب في هذه الحالة أن تنشط البرامج والمؤسسات والمناهج ومختلف الآليات في تبصير الناس بالتحديات التي تواجه بلدهم، والتي عليهم أن يواجهوها بنجاح.

هناك بلدان رقعتها الصالحة للسكن والزراعة محدودة جداً، كما هو الشأن في (بنغلادش) حيث تبلغ المساحة الكلية قرابة ١٤٤ ألف كم مربع على حين يزيد عدد السكان عن ١٤٤ مليون نسمة!!

وهناك بعض الأقطار التي تعتبر (مناطق زلازل) كما هو الحال في أندونيسيا

(١) سورة الفرقان :٦٧

(٢) سورة الاسراء :٢٧

وإيران. وهناك مناطق تفتقر إلى المياه العذبة الكافية للشرب والري كما هو الشأن في الشرق العربي بشكل عام.

وهناك بلدان تتمثل مشكلتها في فقر الموارد الطبيعية كما هو الشأن في كثير من البلدان العربية وهكذا...

على سبيل المثال إن الشعب الذي يعاني من نقص في إمدادات المياه بحاجة إلى توعية بشأن ترشيد استهلاك المياه وإبداع آليات تساعد على ذلك، كما أن الأمر قد يتطلب فرض بعض القيود إذا دعت الحاجة، ولا بد له إلى جانب ذلك من استحداث أساليب في الري وفي الزراعة وتهجين بذور ونباتات لا تحتاج إلى مياه كثيرة، وكذلك القيام ببحوث ودراسات في مجال تحلية المياة المالحة ومعالجة المياه بالإضافة إلى توجيه أعداد من الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى التخصص في مجال المياه... أما إذا كان البلد يعاني من فقر في المعادن أو ضيق المساحة مثلاً فإن التوعية لا يمكن أن تنصب على إيجاد النفط أو الحديد أو توسيع المساحة فهذا كله غير ممكن؛ لكن التوعية تتجه آنذاك إلى الرقي بالإنسان نفسه عن طريق تعليمه وتثقيفه وتدريبه ليستثمر خبراته ومهاراته في القليل المتاح من الموارد الأولية على أفضل وجه ممكن، كما هو مشاهد اليوم في بلد متقدم كاليابان.

وواضح في هذه الحالة أن (صناعة المعلومات) هي الصناعة الأكثر اعتماداً على العنصر البشري، كما أن حاجتها إلى المواد الأولية أقل من غيرها.

المهم في ذلك كله أن يتشكل الوعي الكافي لدى الناس بطبيعة المشكلات التي تواجههم، وأن تهيأ الظروف لهم ليكونوا على الطريق الصحيح وفي الوضعية المناسبة.

وسائل التعميم:

لا ريب أن تعميم ثقافة ما يحتاج إلى المناهج وبرامج وآليات ومؤسسات عديدة، وليس من السهل دائماً توجيه أمة أو شعب تجاه السلوك النافع؛ إذ إن الأمر يقتضي أحياناً تغييراً جذرياً في العادات العقلية والنفسية، وهذا شاق، ولا يتم إلا ببطء شديد.

وعلى سبيل المثال لا الحصر فإنه سيكون من المفيد جداً إقرار منهج دراسي في المرحلة الثانوية وآخر في المرحلة الجامعية يتم فيه التركيز على مجمل الأفكار والمعالجات المرغوبة في مجال التنمية الشاملة، وعلى صعيد المشكلات الخاصة التي تواجه البلد.

كما أن من المفيد أيضاً تكثيف البرامج الإذاعية وتشكيل هيئات وجمعيات تثقيفية تتولى إشاعة الأفكار والرؤى والتوجيهات المتعلقة بالحالة التربوية السائدة.

إن أمامنا فرصاً عديدة لنفعل أشياء كثيرة تعود على أمتنا، وعلى أوطاننا بالخير والنفع؛ وإن المطلوب هو أن يتحمل كل منا مسؤوليته على قدر الوسع والطاقة؛ وعلى الله قصد السبيل.

٢٩ من أجل التوازن البيئي

في النصف الثاني من القرن الماضي رأى الإنسان كوكب الأرض من الفضاء الخارجي لأول مرة. وقد بات الإنسان بفضل التقدم العلمي الهائل يفهم الأنظمة الطبيعية على نحو أفضل، وإن كان هناك الكثير من العلاقات الجدلية والخطية الغامضة بين عناصر النظام البيئي.

إن البيئة الطبيعية التي نعيش فيها تمثل المحيط الحيوي لحياتنا؛ فنحن نتأثر على نحو بالغ بهوائها ومائها وغذائها وتربتها، ومن ثم فإن إبقائها في حالة جيدة، تجعل الحياة فيها صالحة للاستمرار - يمثل ضرورة حيوية لبني البشر جميعاً.

إن البيئة العالمية واحدة، وإن تدهور أي عنصر في أي جزء منها، سوف يمسّ باقي العناصر في باقي العالم على نحوٍ ما؛ لكن الجهات التي تدير العيش على الكرة الأرضية ليست واحدة، كما أن مصالحها ليست متطابقة ومن ثم فإن البيئة العالمية شبه مهملة، ولا تلقى من الاهتمام ما يناسب قدر حاجة الأحياء والحياة لها!

إن هناك فترة سماحات طويلة بين الأسباب التدميرية للبيئة، وبين ظهور النتائج، وتلك الآثار قد لا تظهر أحياناً في أقل من عشرين عاماً[1] وهذا كاف لجعل مشاعرنا تترهل حيال نتائج سلوكنا وأسلوب عيشنا الذي لا يساعد أبداً على تنظيف البيئة أو المحافظة عليها.

(١) البشرية في مفترق الطرق تاليف (إدوارد بستيل).وزميله. ترجمة د. حسين عمر وزميله- جدة عكاظ للنشر العام ١٤٠٣. ص:٦١.

إن التصرفات التي تؤذي سلامة البيئة، وتدفع بها على نحو التدهور قد تفاقمت منذ بداية القرن التاسع عشر، وقد صار كثير من الأرقام التي تدل على ذلك متاحة لجميع الناس، وإن من المؤسف حقاً أن تتساوق عوامل التدمير مع عوامل تجريد البيئة من أسلحتها الدفاعية التي زوّدها بها الخالق - جل وعلا- كي تحافظ على توازنها الذاتي دون الحاجة إلى مساعدة البشر.

وتشير بعض التقديرات إلى أن العالم قد خسر خلال نصف قرن مضى فقط خمس التربة السطحية من الأرض الصالحة للزراعة، وخمس غابات المطر الاستوائية، ونحواً من عشرة آلاف نوع من الأجناس النباتية والحيوانية[1]!!

إلى جانب هذا التدمير الواسع للبيئة هناك أعمال تؤدي إلى زيادة أعباء التلوث على مصافي البيئة، فما يُقذف في أجواء الولايات المتحدة الأمريكية- على سبيل المثال - الآن يقدر بنحو نصف مليون طن من الغازات السامة يومياً.

وقد صارت تشكل في أجواء المدن الأمريكية ما يُعرف بالضباب الدخاني الذي يقال: إنه يحجب ٤٠٪ من أشعة الشمس عن مدينة شيكاغو و٢٥ ٪ عن مدينة نيويورك! وكثيراً من الدول الصناعية سائرة في الطريق نفسه[2].

إنني لا أريد أن أسترسل في ذكر الاضطراب الذي أصاب التوازن البيئي، ومعه الحياة البشرية، لكنني أقول إن المسألة إذا لم تُتَلقَّ بالجدية التامة، فإن النهاية تأخذ شكل الكارثة!!

---

(١) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين تأليف (بول كنيدي) ترجمة محمد عبد القادر وزميله عمان - دار الشروق عام ١٩٩٩٣ ص: ١٣٦

(٢) الوقاية خير من العلاج تأليف د. عبد الرازق الكيلاني دمشق دار القلم عام ١٩٩٩٥ط أولى ص:٢٠

ما العمل؟

إن أكبر عقبة تواجه البشرية في مسيرة حماية البيئة والمحافظة هي الإنسان نفسه؛ وقد أثبتت التجربة التاريخية أن كل القضايا والمشكلات التي يكون الإنسان طرفاً فيها - يكون التعامل معها شائكاً ومعقداً، فتمتع الإنسان بالعنصر الروحي والإرادة الحرة يجعل تغيير عاداته وتوجهاته، والسيطرة عليها أموراً في غاية المشقة؛ إذ من الممكن تغيير أثاث مدينة كاملة قبل أن نتمكن من إقناع خمس أشخاص بفكرة من الأفكار!!

إن إنسان اليوم فقد الإحساس بالأهداف الكبرى لوجوده، كما أن ضعف الحراك الاجتماعي إلى جانب الفقر الثقافي، جعل الإنسان معزولاً عن أعماق نفسه، وحوّله إلى كائن مستهلك، لا يشبه شيئاً أكثر من شبهه بالسجين الذي لا يجد شيئاً يمارس حريته مع سوى الطعام!

إن مما يدعو للأسف أن كل التدابير المقترحة لحفظ ما تبقى من طاقة الحياة على هذه الأرض - يتطلب تغيير سلوك الإنسان وتغيير نظرته للحياء على نحو شامل، وهذا هو أشق ما يجب القيام به في هذا المجال!

وسوف نرى أن كل الإجراءات المطروحة للتداول تعتمد على حصول تقدم إنساني في الاتجاه الصحيح.

إن أولى الناس بالمحافظة على البيئة هم المسلمون؛ حيث إن في ديننا أحكاماً وآداباً كثيرة، لا يؤدي الالتزام والاهتداء بها إلى المحافظة على الموارد والعمل على حماية البيئة وتنظيفها، فقد أرشدنا الإسلام إلى غرس الأشجار - وهي من الأدوات المهمة في تنقية الهواء - والاقتصاد في الأكل والشرب واستخدام الماء،

كما أرشدنا إلى النظافة في البدن والثوب والمسكن، وحثنا على إماطة الأذى عن الطريق، وحرَّم علينا لبس الذهب والحرير واستخدام أواني الذهب والفضة، كما حرَّم الإسراف والتبذير، وكل مظاهر الكبر والخيلاء – وهي دائماً مظاهر استهلاكية – وهذا كله سيؤدي في النهاية إلى تدعيم التوازن البيئي من خلال المحافظة على الموارد وتقليل التلوث إلى أبعد حد ممكن.

لكن الاستفادة من كل هذه التوجيهات لا تتم بطريقة آلية، وإنما من خلال اليقظة والعزيمة والوعي.

إن المطلوب عمله للمحافظة على المحيط الحيوي للإنسان كثير، نذكر هنا طرفاً منه في الحروف الصغيرة التالية:

أ- تخفيف شهية الاستهلاك لدى الإنسان المسلم من خلال تدعيم الإيمان باليوم الآخر، وإثراء الحياة بالمعرفة والمتع العقلية، إلى جانب تقوية الروابط الأسرية، وزيادة فرص الحراك الاجتماعي، حتى تتعدد سبل تحقيق الذات وإرواء الطموحات المشروعة. وكل ذلك سيؤدي إلى تخفيف الطلب على المال والحد من موجات الاستهلاك العاتية.

ب- يجب تشجيع المؤسسات على الاستثمار في إجراءات وقائية وترميمية وتعويضية، تساعد على التخفيف من الأضرار البيئية؛ وبما أن ذلك مكلف ويرفع أسعار السلع، فيمكن للحكومات أن تقوم بدفع جزء من تكلفة السلع من أجل المحافظة على البيئة. ومن المهم أن تتركز البحوث العلمية في إيجاد تطبيقات وتقنيات جديدة، وتساعد على تقليل الهدر، وتسمح بإعادة تدوير

المواد الأولية مثل الحديد والورق.. وإعاد تصنيعها.[1]

ج- لا بد من البحث عن مصادر للطاقة النظيفة التي لا تلحق أضراراً بالبيئة، ولا بد من تطوير تقنيات تساعد على الاستفادة من الطاقات المحرّكة، مثل الطاقة الشمسية وطاقة الأمواج والرياح والشلالات.. والاستفادة من فضلات الأبقار وغيرها من توليد غاز (الميثين) وقد قامت الصين بتشغيل أربعين مليون وحدة لتوليد الغاز من أجل الاستخدام المنزلي.

د- وسائل النقل مثل الطائرات والسفن والسيارات والقطارات، من أخطر مصادر تلوث البيئة، وأعظمها ضرراً عليها، ومن ثمّ فإن جعلها اقتصادية أو تعمل بوقود آخر، يعد ذا أهمية بالغة. منذ عام ١٩٥٠ وأعداد السيارات في العالم تتضاعف كل عشر سنوات، وهذا يعني مزيداً من الإجهاد لبيئة مريضة!

هناك تطويرات كثيرة الآن مثل استخدام الطاقة الشمسية، واستخدام خزان للهواء المضغوط، يدفع السيارة مسافات لا بأس بها. ويمكن وضع قيود على إنتاج السيارات الكبيرة التي تستهلك كميات كبيرة من الوقود. ومما يمكن عمله أيضاً منع السيارات من دخول المناطق المزدحمة في المدن، وتشجيع الاعتماد على وسائل النقل العام، كما تفعل اليونان. ويعتمد كثير من الدول الإسكندنافية وهولندا على الدراجات الهوائية في التنقلات، وقد أخذت الصين وبعض الدول في جنوب شرق آسيا تحذو حذوها.

هـ- من أجل الحفاظ على البيئة والصحة العامة معاً لا بد من العودة إلى الطبيعة ونبذ الأشياء الصناعية على قدر الاستطاعة، واعتماد سياسة «استغناؤك

(١) مستقبلنا المشترك إعداد اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ترجمة د. محمد عارف. الكويت ط أولى عام ١٤١٠ ص: ٣١٨،٣١٩

عن الشيء خير من استغنائك به» والحضارة العظيمة - في نظرنا- ليست تلك التي تخلق الحاجات، وتستحث الناس على تلبيتها، وإنما تلك التي تقلل من الحاجات، ليظل لدى الناس متسع من الجهد والوقت لتلبية حاجاتهم الروحية والثقافية والاجتماعية. ولذا فينبغي أن ننشر ثقافة «الحياة قليلة التكلفة»، وذلك يقتضي أن نعيد تخطيط حياتنا من جديد في المسكن والمأكل والملبس والمركب والعلاقات الاجتماعية .. إن الناس يعانون من الحياة في المدن بسبب الزحام والضوضاء ودخان السيارات والمصانع، وانعدام الخضرة، والانغماس في حياة اصطناعية بحتة، على حين أن كثيراً من الأراضي الزراعية قد هُجرت، وتحولت إلى أراض بور جرداء!! سيكون من المفيد جداً أن يتعود الناس الحياة في الريف، والقيام بالهجرة المعاكسة، كما أن من الضروري اعتماد سياسات وإجراءات للتشجير [1] وزراعة المساحات الخضراء حيث إن كل إنسان بات بحاجة إلى نحو من ٥٠ متراً من المساحات الخضراء من أجل تنقية الهواء من الغازات الضارة.

نحن إلى جانب هذا بحاجة إلى تشجيع من الناس على المشي وعدم استخدام وسائل النقل الميكانيكية إلا عند الحاجة؛ فذلك أنظف للبيئة وأدعى لحفظ الصحة.

في العالم اليوم نحو من ٨٠ ألف مادة كيميائية يجري تسويقها دون إجراء اختبارات كافية لدى ملائمتها لصحة الإنسان والبيئة، والواجب التقليل من

(١) يذكر أن شجرة(الجوجوبا) هي أفضل علاج للتصحر. حيث إنها تتحمل الحرارة والجفاف: إذ تكفيها مطرة واحدة في السنة. ويمكن استخدام قشرها في تسميد الأرض. وفي علاج المفاصل وهي موجودة في منطقة حوران في سوريا - الوقاية خير من العلاج:٢٩.

استخدام الأسمدة الكيميائية والمبيدات، واستخدام وسائل تقليدية في تسميد الأرض والخلاص من الحشرات الضارة وهي كثيرة وناجعة.

ويجب أن لا ننسى أن كثيراً من الدول العربية والإسلامية تعاني من تناقص ثروتها المائية وزيادة عدد سكانها، وهذا يوجب علينا جميعاً أن نوظف الأموال والخبرات الكافية في البحوث والدراسات والتطبيقات المتقدمة في مجال تحلية مياه البحر خاصة ومعالجة المياة عامة، إذ يبدو أن إنتاج مياه محلاة رخيصة التكلفة هو الأمل الأخير في تحسين إمدادات المياه، والحيلولة دون وقوع أزمات طاحنة، لا يستطيع أحد الآن تقدير فداحتها!

إن علينا أن نرفع شعار الفلاح الطيب: «اترك الأشياء كما أخذتها، أو أحسن مما أخذتها» وحين نتذكر أن الأرض لست لنا، إنما استعرناها من أحفادنا، فسوف نتعامل معها كما نتعامل مع مكتباتنا الخاصة؛ فنحن نعتني بقراءتها، ونغنيها دائماً بالجديد المفيد، ونتركها لمن بعدنا وهي في قمة غناها واكتمالها!

٣٠ المرونة الذهنية

لا يستطيع العقل أن يعمل بكفاءة ما لم يأخذ من الوجود زاداً من المعنى، فهو في تكوينه يعمل بطريقة قريبة من طريقة عمل (الحاسوب) فمن العسير عليه أن يُدخل على المدخلات الخاطئة تحسينات كثيرة؛ ولذا فإن المعرفة الجيدة هي تلك التي تتيح للعقل نوعاً جيداً من العمل والحركة والتحليل والتركيب. وقد اكتشف الإنسان في العصر الحديث الكثير الكثير من العناصر والعلاقات والقوانين، وذلك قد لا يؤدي إلى المرونة الذهنية بصورة تلقائية؛ فالعلاقات اللينة التي تربط بين الظواهر الإنسانية والاجتماعية، قد تتم قراءتها على نحو خاطىء؛ مما يؤدي إلى تصليب المواقف، وتوجيه العقل نحو الرؤية القطبية الجازمة، في أمور لا تحتمل ذلك.

نعني بالمرونة الذهنية هنا قدرة العقل البشري على إدراك الفروق الدقيقة بين الأشياء، والمراوحة المستمرة بين الأسس والأصول وبين المسائل الفرعية، وتعرية الألفاظ والمصطلحات مما يعلق بها من شوائب الاستعمال، من أجل بعث حيويتها من جديد، وما شاكل ذلك من الخروج من أسر النمطية و(القولبة) في أطر ونماذج ثابتة.

ولعلنا نفصّل بعض جوانب المرونة الذهنية في الحروف الصغيرة التالية:

أ- إن من مقتضيات المرونة الذهنية إدراك (الأوساط المتدرجة) في الأحكام والأشياء والمواقف.. فالحرام ليس درجة واحدة، وإنما هو درجات؛

إذ ليست حرمة الغيبة مثل حرمة قتل النفس أو شرب الخمر. والفرائض أيضاً درجات، فوجوب الصدق ليس كوجوب الصلاة أو الزكاة. المستحيل أيضاً درجات، فمنه مستحيل مؤقت كعجز الأمي على الكتابة والقراءة، ومنه الأبدي كاسترجاع أحداث وقعت منذ قرون...

إن من العسير جداً أن نضع الموس على المفصل في كل القضايا ذات الأوساط المتدرجة المتداخلة، فنحن لا نستطيع أن نحدد على نحو دقيق النقطة التي إذا تجاوزها إقدام المرء صارت شجاعته تهوراً، وكرمه تبذيراً، وحذره جبناً.. وكل تقديراتنا في مثل هذا اجتهادية وشخصية إلى حدٍّ بعيد.

من الصعب في لوحة زيتية متداخلة الألوان، أن نقول هنا: يبدأ اللون الأصفر، وينتهي اللون البرتقالي، ولو فعلنا ذلك لوقعنا في التحكم والتعسف!

ب- القدرة على إدراك الفوارق بين الأشياء؛ وفي هذا الصدد يمكن القول: إن المرء حين يحاول تلمس وجود شبه بين الأشياء؛ فإنه سيجد أكثر من وجه شبه في كثير من الأحيان، لكن المهم أيضاً ألا ننساق وراء التشابه الجزئي، وننسى الفوارق العظيمة بين المتشابهات. بعض الناس يشبِّه الهجمة الحديثة على أمة الإسلام بهجمة المغول والتتار، حيث الأمة ضعيفة ومفككة في مواجهة خصوم أقوياء.

وفاتهم أن التتار عبارة عن قوم همج، واجهوا أمة متحضرة، والفوارق في التسليح والتنظيم بينهم، وبين المسلمين، لا تكاد تذكر على حين أن المسلمين يرون خصومهم متفوقين عليهم في المعرفة، والتنظيم والتقدم الصناعي والحضاري عامة. وهذا يعني أن وسائل المدافعة والمواجهة مختلفة كلياً، كما أن

السعي إلى الوصول إلى نقطة التعادل يتسم بسمات مختلفة.

ج- من أمارات المرونة الذهنية وزن مصادر المعرفة على نحو صحيح، وعدم الخلط بين معلومات، تفيد الظن، وأخرى تفيد اليقين. وقد حاول علماء المسلمين القدامى استخدام صحة الإسناد إلى جانب البرهنة العقلية والمنطقية والدلالة اللغوية - أدوات لعصمة الأذهان من الخلط بين القطعي والظني.

هناك فارق - مثلاً - بين معلومات، مصدرها (الاستقراء)، ومعلومات مصدرها (القياس)[1] ولا شك أن المعلومات التي تأتينا عن طريق استقراء كامل، قد تقترب من القطعية المطلقة، كما لو استقرأنا رأي أعضاء مجلس حول قضية ما؛ فإن من الممكن أن نقول إن: ٥٩٪ يرون كذا و ٤١٪ يرون كذا. ويكون كلامنا ذا دلالة قطعية، لكن إذا أردنا معرفة رأي شعب تجاه حادثة معينة، وقمنا بسؤال (٤٠٠٠) شخص حول رأيهم في تلك الحادثة، ثم قلنا إن ٩٠ ٪ من الشعب الفلاني، رأيه كذا بناءً على أن ٩٠٪ من أفراد العينة يرون ذلك، فإن استنتاجنا سيكون ظنياً؛ لأننا استخدمنا القياس في عملية الاستنتاج. وقد صار من المألوف اليوم أن ترشّح استطلاعات الرأي شخصاً للفوز ثم يفوز غيره.

وسبب المفارقة بين الاستقراء والقياس أننا في القياس نستخدم عناصر ذهنية في أمور حسيّة، لا يحكمها نمط أو نموذج محدد، وذلك يعني الاحتمال والحدس في النتائج التي تنتهي إليها.

د- نحن دائماً على صلة بعالمين مختلفين: عالم المدرَكات وعالم الواضحات.

وقد جرت العادة أن نستخدم (الفلسفة) وسيلة للتعامل مع المسائل

(١) من الجدير بالذكر أن الإغريق أوجدوا التعليل والقياس من أجل سد الفجوات التي يتركها الاستقراء الناقص.

الغامضة. أما الأمور الواضحة فإننا نسيطر عليها من خلال التجربة والملاحظة وإدراك أبعادها المختلفة. ومن المهم هنا أن نفرق بين معطيات الفلسفة ومعطيات العلم. معطيات الفلسفة دائماً ظنية، مهما كانت الإمكانات العقلية لمستخدمها عظيمة واستثنائية. ومعطيات العلم يقينية ما لم تتدخل في مقدماته الفلسفة والفروض الشخصية. كل تفكيرنا بالمستقبل، وكل تحليلنا لأحداث التاريخ ومجريات الواقع.لا يعد علماً، وهو إلى التخمين والحدس والتقدير الشخصي أقرب. ولذا فإن صاحب العقل المرن لا يطيل الكلام والجدال في هذه القضايا حيث لا يمكن الوصول إلى قول قاطع، وإنما يلقي وجهة نظره، ويستمع إلى وجهة نظر الآخرين ثم يلزم الصمت.

هـ- إن من إمارات المرونة الذهنية السعي الحثيث والدائم إلى إدراك الأشياء في إطار علاقاتها مع غيرها. إن العقل حتى يستوعب الواقع الموضوعي والتاريخي، وحتى يستطيع استيعاب المعرفة بشكل عام -يقوم بتفكيك المفاهيم وتجزئة المعرفة واختزال الأحداث والمراحل. وإذا تُرك دون رقابة ومتابعة فإنه يميل بطبعه ونظمه إلى تكوين الرؤية التجزيئية، وطلب الكمال في الأشياء والأشخاص والأفكار بسبب افتقاده الموازنة والمقارنة. والتي تؤدي من جهتها إلى افتقاد خاصية (النسبية) التي لا تكاد تفارق كثيراً ما نتعامل معه في حياتنا اليومية .

حين نرى الصورة كاملة، فإننا نرى النواقص والاختلالات في كل ما حولنا أموراً طبيعية بل ضرورية لا غنى عنها في مسائل التعاون والتكامل والتآزر. تكوين (أسرة) يستلزم قيام العلاقة بين الرجل والمرأة على (التخالف) لا على

التشابه. ولولا التخالف في التركيب الذهني والنفسي والعضوي، لما أمكن تكوين أسرة، ولا كانت هناك إمكانية لحياة زوجية أصلاً. ولذا فإن النظرة الكلية لا تحكم على قوى العاطفة للمرأة بالنقص، كما أنها لا ترى في غلبة (العقلانية) وبرودة العاطفة لدى الرجل – أمراً غير مرغوب؛ وذلك إذا ما نظرنا إلى الرجل والمرأة باعتبارهما جزئين في تكوين عام، وعنصرين من عناصر توازن ذلك التكوين. والنظر إليهما على نحو تفكيكي هو الذي يحول الفضيلة إلى نقيصة!

إذا نظرنا إلى القلق على أنه جزء من توازن الشخصية فسوف ندرك أن فقد القلق على الواقع والمصير، قد يكون أكثر من مرض، إنه مؤشر على بداية انهيار كامل!

إنني أشعر اليوم أننا أكثر حاجة إلى تدريس (علوم التفكير) وتقرير بعض المساقات التي تنمي مبادئ التفكير القويم لدى الناشئة، حتى يتمكنوا من مواجهة متطلبات المستقبل بكفاءة وفاعلية.

٣١ اضطراب منهجية التفكير

جعل الله -تعالى- أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس لما فيها من الخير والفضل، ولما أناطه بها من تبليغ الرسالة وتحمل مسؤولية الهداية.

وقد مرّت على هذه الأمة قرون عديدة ابتعدت فيها عن منهج ربها، وتضاءل إنتاجها وإبداعها الحضاري. وقد أفاء الله على هذه الأمة في العقود الأخيرة بأوبة شاملة أخذت من خلالها تتحسَّس مواضع الإصابة في جسدها، كما أخذت تبحث عن الأساليب والأدوات التي تساعدها في الخروج من أزماتها. ولا بدَّ لنا قبل كل شيء من أن نحدد مداخل الحلول لمشكلاتنا وتوضيح سُلَّم الأولويات في ذلك.

وفي ظني أن امتلاك منهجية صحيحة للتفكير يُعد الخطوة الأولى على طريق العافية والنهوض، إذا ما أردنا أن نتعرف على إمكاناتنا ومشكلاتنا على نحو يمكننا من استخدامها والتعامل معها بحكمة وموضوعية.

ولعلنا نعرض هنا لبعض المفردات التي نرى أنها تمثل خللاً في منهجية التفكير لدينا بصورة موجزة على النحو التالي:

١ -الخلط في التعامل مع التقصير والخطأ:

نضع اليوم أيدينا على تفاصيل ومعلومات كثيرة نعتقد أنها تجانب الصواب. وبعض تلك المعلومات ينتمي إلى عصور الازدهار في حضارتنا الإسلامية

المجيدة، كما أن بعضها منسوب إلى علماء نابهين نكنّ لهم كثيراً من التقدير والاحترام.

وهذا قد يدفعنا إلى نوع من التحرُّج في بيان تلك الأخطاء، ومحاولة تخريجها على وجه من الوجوه ولو مع شيء من التعسف.

وهذا نابع - في تقديرنا - من الوقوع في نوع من الخلط بين التعامل مع التقصير والخطأ. والتقصير ينبع من عدم استخدام العالم إمكانات ومعطيات متاحة له وموجودة في زمانه، وقد تكون قد استخدمت من قبل غيره. وهذا لا شك تقصير يجعل صاحبه مستحقاً للوم والعتاب، كمن يستخدم اليوم أسلوب التأمل الذاتي في إدراك بعض الظواهر مع أن إمكانات استخدام الأساليب الكمية (الإحصاء) متوفرة وأكثر دقة وجدوى.

أما الخطأ فإن صاحبه قد يكون استخدم كل المعارف والمعلومات والأدوات التي كانت سائدة في عصره لكن ما كان منها متوفراً لم يكن كافياً للوصول إلى الحقيقة. ثم أظهر لنا التقدم العلمي والتراكم المعرفي أن ما قاله ذلك العالم لم يكن صحيحاً. وهذا على نحو ما نراه اليوم في كثير من المعارف الطبية و الفلكية والكيميائية ... وحين تُسْلمنا المعرفة إلى خطأ نظرية أو رأيٍ سابق فإن علينا أن لا نتردد في الحكم عليه بما نراه مناسباً. لكن ذلك لا يجعلنا نلوم صاحب ذلك القول ما دام قد أفرغ وسعه، وما دام سقف المعرفة الذي كان سائداً في زمانه لم يسمح له بأفضل مما خلص إليه. فنحن لا نلوم أطباء القرن السادس لأنهم لم يستخدموا جراحة المناظير، أو لأنهم لم يتمكنوا من زراعة الكلى...كما أننا لا ندعي أننا أكثر اجتهاداً وعبقرية منهم، وذلك لأن من الموضوعية أن نضع كل

عمل في إطاره التاريخي والمعرفي الخاص، فأعظم عباقرة زماننا ما كان لهم أن يفعلوا أكثر مما فعله السابقون ولو عاشوا في زمانهم. ومع كل ذلك فإن الخطأ يظل خطأ مهما كانت ظروف ولادته.

٢-التعامل مع الواقع على أنه كتلة صلدة:

كثيراً ما نتعامل مع المشكلات المحيطة بنا على أنها أحادية التركيب عديمة المنافذ مستحيلة التجزئة، وهذا يؤدي إلى الشعور باليأس من التعامل معها، وتكون النتيجة طرحها وتجاهلها.

والحقيقة أن المشكلات الكبرى يستحيل حلها دون تجزئتها إلى وحدات صغيرة ثم تصنيفها إلى أساسي وهامشي، ومحاولة النفاذ إلى التناقضات الداخلية التي تشتمل عليها واستثمارها، وتغيير علاقات السيطرة وتبديل مواقع العناصر في تلك الظاهرة بغية الوصول إلى علاقات ووحدات ووظائف جديدة، حتى نتمكن في النهاية من السيطرة على المشكلة وحلها فعلى الرغم من ثبات العناصر الكيميائية والفيزيائية في هذا الوجود أمكن للإنسان أن يخترع من عناصر الأرض التي لا تزيد على أكثر من مئة عنصر إلى قليلاً أكثر من مليونين من المصنوعات، وذلك من خلال إدراك العلاقات بين الثوابت وإدراك وجوه التفاعل بينها.

إن تعاملنا مع مشكلاتنا على أنها كتلة صماء أدى إلى أن يأخذ كثيرون منا إجازة مفتوحة، مع أن الأمة بحاجة ماسّة إلى كل ومضة فكر وكل حركة يد.

٣-إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ:

تميل القوانين المتعلقة بالظواهر الطبيعية إلى الصرامة والدقة، أما على الصعيد الإنساني فإن الأمر مختلف حيث إن العنصر الروحي ما دخل في شيء

إلا عقّده، وجعل إمكانات ضبطه وتقنينه عسيرةً. ومن ثمّ فإن القوانين التي تحكم الظواهر الإنسانية تكون غير صارمة ولا مطردة.

ومن هنا فإن أصحاب التفكير المستقيم وضعوا بعض القواعد الجميلة للتعامل مع الشأن الإنساني، ومنها قولهم «لكل قاعدة شواذ» وقولهم «الشذوذ يؤكد القاعدة».

لكن كثيرين منا يجدون في النماذج الاستثنائية نوعاً من الانفلات من واقع غير جيد، كما يجدون فيها مشكاة من الأمل تخفف في نظرهم من عناء الشعور بالدونية. والأمثلة على هذا الاضطراب تفوق الحصر، فإذا قلنا إن المدينة الفلانية يغلب عليها الجهل جاء من يقول: هذا ليس بصحيح بدليل أن منها العالم الفلاني!

وإذا قلت إن الحروب الطاحنة تترك وراءها فساداً وانحلالاً نظراً لما تفرزه من الظروف السيئة قيل لك هذا غير صحيح، لأن فلاناً من الناس فقد في الحرب أهله وماله لكنه الآن أكثر استقامة في سلوكه!

وإذا قلنا إن البلد الفلاني متخلف قيل: هذا تشاؤم ، فإن في ذلك البلد عمارةً ليس في العالم أجمل منها! إن هؤلاء يريدون إقناعنا بأن البحار جزء من اليابسة لأنه يتخللها بعض الجزر، وأن المستشفيات أماكن للأفراح والمسرّات لأنهم رأوا فيها من يبتسم!

وهذه الوضعية الخاطئة في التصور تحول بقوة دون القدرة على تصور مشكلاتنا بأحجامها الواقعية.

٤- سوق الظنّيات مساق القطعيّات:

إن إدراكنا للقضايا والمسائل يظل متفاوتاً ،كما أن الأحكام التي نصدرها

عنها أيضا متفاوتة، وذلك لعوامل عديدة ، منها ما يعود إلى طبيعة المسألة موضع البحث، ومنها ما يعود إلى معلوماتنا عنها، ومنها ما يعود إلى منهج البحث وأساليب المعالجة والأدوات التي نستخدمها فيها. وأياً كان الأمر فإن مما نراه اضطراباً منهجياً في هذه النقطة أن كثيرين منا لا يصوغون الأحكام والملاحظات التي توصلوا إليها صياغة موضوعية تنسجم مع مدى صلابة معرفتهم بحقيقة الحكم الذي يريدون التعبير عنه.

ومما هو واضح أن ما نصل إليه من حقائق قد يكون قطعياً أو بدهياً لا لبس فيه، وحينئذ فإنه ينبغي أن نعبر عنه بعبارة تدل على ذلك، فإذا كان ما توصل إليه المرء يُعدُّ يقينياً في نظره هو فينبغي أن يسوقه بطريقة يَفهم منها المطلع على ذلك، كأن يقول: في إعتقادي، في رأيي، من وجهه نظري..

وإذا كان ما نريد أن نعبر عنه ظنياً وجب أن نستخدم العبارة التي تدل عليه من نحو قولنا: نظن، أو يغلب على ظننا، أو نزعم ذلك..

والذي نراه اليوم لدينا غلبة صيغ الجزم على تعبيراتنا دون أن نتحفظ حتى إن السامع ليفهم أن كل ما نتحدث عنه عبارة عن حقائق لا مراء فيها. ونسمع كلمات: الوجوب والتحريم، مثل: ينبغي ويجب ولا يجوز. مع أن الأصوليين كانوا دقيقين جداً حين فرَّقوا بين الواجب والمندوب، وبين المحرَّم والمكروه، وخصوا كلاً منها بألفاظ تعبِّر عن حقيقته.

ومما يتصل بهذا مسارعة كثيرين منا إلى إطلاق أحكام كبيرة دون استقراء مقبول، فيعطون انطباعات خاطئة للسامع. والمنهج العلمي يقتضي الصبر على الملاحظة، والأناة والتحفظ في إطلاق الأحكام، فلا نطلق على واقع معقّد

ومتسّع ألفاظ التقدّم أو التقهقر قبل أن نقسّم ذلك الواقع إلى جوانب عديدة، ثم نعمل البحث والإحصاء والنظر المقارن على مستوى كل ظاهرة، حتى نستطيع أن نعطي بعض الأحكام التي تتسم بشيء من الدقة والموضوعية.

إن امتلاك منهجيةٍ للتفكير ليس بالأمر اليسير، فهو يحتاج إلى نوع من التراكم على مستوى المعرفة ومستوى الوعي، ومن ثم فإني أدعو القائمين على وضع المناهج الدراسية أن يقرروا في إحدى المراحل الدراسية - كالمرحلة الثانوية مثلاً - مادةً يدرس فيها الطلاب قواعد التفكير المستقيم حتى تتخرج لدينا أجيال تتخلص من أنماط التفكير المختل، وتتعامل مع مشكلاتنا وإمكاناتنا بالموضوعية المطلوبة.

٣٢ حضارة أم مدنية؟

يتلقى الناس في ظل التواصل الكوني الهائل فيضاً من الرموز والصور والمفاهيم والمصطلحات المنزوعة من سياقاتها الثقافية ونظمها المعرفية والرمزية... وفي حالة كهذه فإن الذي يحدث هو الكثير من تداخل المفاهيم واختلاط الأفكار، حيث يُبدي الوعي البشري الكثيرمن القصور في التعامل معها. وأعتقد أن مما وقع فيه الخلط مصطلحي: المدنية والحضارة. وربما كان من أسباب ذلك أن الاشتقاق اللغوي، لا يسعف في التفريق بينهما، حيث إن المدنية من سكنى المدينة، والحضارة من سكنى الحاضرة.

الذي يدعونني للحديث في هذه المسألة، هو ما أحسّه من ارتياع أهل البصيرة من التطور الذي تشهده البشرية -ومنها أمتنا- حيث تنمو بسبب التقدم العلمي والتقني إمكانات هائلة للغش والتزوير والاحتيال، - تستحيل مراقبتها على نحو كامل - في الوقت الذي تشهد فيه بنية الشخصية العالمية درجات من التحلل والضمور، أي أن قدرات الناس تتعاظم على مقدار تضاؤل إراداتهم، وهذه وضعية مدمّرة بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى!.

التفريق بين المدنية والحضارة ضروري من أجل الاستجابة لرمزيات مستقرة في السمو الإنساني، حيث يتم التفريق بين الارتقاء بوصفه انعكاساً لنمو العقل والروح والالتزام بالمبدأ، وبين الارتقاء بوصفه تحسناً في أساليب العيش والسيطرة على البيئة وتنظيمها، ومع أن بين الجانبين علاقة جدلية على

غير مستوى، إلا أن الناس يشعرون في حالة انتعاش المدنية بالرفاهية الروحية والدفء الاجتماعي والانسجام الذاتي والسيطرة على الشأن العام على الرغم من قسوة ظروف العيش وقلة الإمكانات المتاحة. ومن هذا الأفق نعدّ مجتمع المدينة المنورة في عهد النبوة وفي العهد الراشدي هو الأعرق في التمدن مع قلة ما يملكه الناس من متاع وبساطة ما يكتنف حياتهم من نظم.

وفي المقابل فإن الناس في حالة وجود تقدم حضاري مع ذبول روح المدنية يجدون الكثير من المرفّهات والوسائل، إلا أنهم يفقدون أنفسهم ويشعرون أنهم معزولون عن أعماق أعماقهم، كالطائر البري عندما يوضع في قفص.

ونظراً لضيق المساحة، فإنني سأذكر بعض المرتكزات التي نفرّق على أساسها بين التمدن والتحضر، وذلك في المفردات الآتية:

١- في الحياة الاجتماعية دائماً فراغات تتركها النظم والقوانين من أجل فتح السبل أمام المبادرة الشخصية والطلاقة الروحية والخصوصية الفردية.

وطبيعة التقدم الحضاري تتيح المزيد من الإمكانات والبدائل، وهذه من جهتها تعطي شعوراً بالقوة والنفوذ، كما تجعل الناس يملكون حسّ (المحافظة على المكاسب). حين تذبل روح المدنية، يملأ الناس الفراغات القانونية والعرفية بالقهر والتهديد والعنف والقوة الغاشمة، على حين يكون ملؤها في وضعية التقدم المدني باللطف والعفو والرحمة. كما فعل النبي -ﷺ- حين فتح مكة حيث قال لأهلها - على الرغم من كل ما فعلوه به وبأصحابه-: «ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم. فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء».

٢- المدنية تهذيب للأخلاق والسلوك حيث يرتقي إحساس المرء بالآخرين

وتصبح تصرفاته أكثر نعومة وأناقة وشفافية، ويكون همه البحث عن طرق مشروعة وغير عنيفة لتجاوز التعارض بين مصالحه ومصالح الآخرين.

أما حين يكون التقدم الحضاري مجوفاً من المعنى والالتزام، فإن المجتمع يدير علاقاته عن طريق النظم والقوانين والعقوبات، ولكن هذه جميعاً تتسم بالقصور الذاتي، وفيها مساحات واسعة للاستغلال والتفسير الخاطئ ولذا فإن القانون كثيراً ما يكون عبارة عن إخراج أخير للقوة، بدل أن يكون عامل كبح لها، مما يجعلنا نشهد الكثير من البطولات، لكنها بطولات خارج القانون، وبعيدة عن فلسفة الحق والمنطق والخير والجمال.

٣-المدنية الحقة انتقال من الغريزة إلى العقل، ومن الإرضاء لما هو قريب ومباشر إلى الاحتفال بالآجل والدائم، حيث يباعد التمدن بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان الذي لا يعرف شيئاً عن تأجيل الرغبات. المدنية تغني حياة الناس بالرموز والمفاهيم التي تجعل سلوكاتهم وعلاقاتهم ذات معنى. كما أنها تؤسس للمعقولية التاريخية والحضارية بما تفتحه أمام الإنسان من آفاق المتع الروحية والعقلية التي حرم منها الحيوان على نحو كامل.

أما في حالة الحضارة التي انهارت مدنيتها، فإن الناس يشعرون بالشلل الإداري، حيث ينقل التقدم الحضاري المجوف مركز السيطرة من الإنسان إلى الأشياء، ويُضعف إحساس الناس بالأهداف النهائية.

٤-المدنية وضعية يحقق فيها الناس المطابقة بين هويتهم وبين متطلبات معايشة عصرهم بما تفرضه من قيم ومفاهيم وأنشطة، أي أن ثقافاتهم منجبة وعملية ومنفتحة ... وحين يعجز الناس عن الدخول في طور التمدن، فإنهم

يجدون أنفسهم على طريق خسران الذات، إما عن طريق التهميش بسبب عدم مشاركتهم في الحضارة، وإما عن طريق الاندماج في حضارة، لم يدخلوها إلا من باب الاستهلاك، فاستهلكتهم، وجعلت منهم مخلوقات عجيبة، تغنّي بين القبور، وتفتخر بالتبعية، وتفرح بانتصارات لم تخض معاركها!

من غير الممكن قيام حضارة كبرى من غير مدنية، فالمدنية تصنع الحضارة، لكن الحضارة لا تصنع المدنية، بل قد تدمرها، وتفكك منظوماتها. وقد علمتنا تجربتنا الحضارية أن التقدم الحضاري، قد يفقد مضمونه التمدني، كما يفقد العود الأخضر ماءه إذا ما انقطع عن نظام الوجود.

عـــالم واحـــد ٣٣

تقسيم الناس على وجه الأرض إلى عوالم: أول وثاني وثالث، صار في ذمة التاريخ، فليس هناك اليوم سوى عالم واحد: أجزاء منه متقدمة، وأجزاء متخلفة، فثورة الاتصالات الحديثة، وضعت الناس فيما يشبه الخلاطة الكبيرة! هذا التدفق الهائل للمعلومات والصور والأخبار... يمثل انتصاراً كبيراً للأقوياء، وهو في جوهره ثمرة ثقافية للتقدم التقني والحضاري الذي أنجزه الغرب ومن يدور في فلكه.

كانت الشعوب الضعيفة تحمي خصوصيتها وأصولها الثقافية من طوفان الغرب عن طريق (العزلة) والاحتكام إلى معايير محلية في كل شيء تقريباً. واليوم صارت العزلة مستحيلة. وتحولت من أداة حماية إلى أداة تهميش حضاري. المعايير التي تصدر على أساسها الأحكام على الأشياء والمواقف والنظم والمناهج آخذة في التحول من المحلية إلى العالمية. وبعبارة أدق - إلى معايير الأقوياء الأجهر صوتاً، والأكثر عدة. والأعتى قوة!

في هذا العالم الواحد سوف تنمو (المقارنات) على نحو مذهل، فقد صار في يد كل إنسان في العالم (مرآة) يرى فيها وجهه تارة، ويرى فيها وجه الآخرين تارات أخرى، فالتدفق الإعلامي والمعلوماتي، وضع الجميع أمام الكل. هذه المقارنات ستولد استنارة عامة، وترفع من درجة الوعي لدى جميع الأمم، كما أنها ستولّد المزيد من الشعور بالتفوق و(التأنق) لدى بعض الشعوب، كما ستولد

الإحباط، وتهدم الكثير من أسوار الوهم لدى شعوب أخرى.

● وفرة النماذج الحضارية والثقافية التي سيطلع عليها الناس، ستدخل تغييرات واسعة النطاق على ثقافات الأمم الضعيفة، حيث تعاني كل الثقافات من ثغرة كبيرة في بنية صمودها ومقاومتها، وهذه الثغرة تتمثل في أن الناس لا يحسون بخصائص ثقافتهم إلا إذا بدؤوا يفقدونها، كما هو شأن الصحة تماماً. الدفق الثقافي الهائل القادم من الغرب سيجعل كثيراً من الثقافات عاجزة عن استيعاب الوافدات الجديدة، وتحديد المواقف منها وهذا سيدفعها إلى (الحرون) تارة، وإلى التساهل تارة أخرى، وينتج عن ذلك التقليل من شأن المحرمات الثقافية وسينحط السلوك لدى كثير من الناس وينقلب الفكر من موجّه وقائد إلى تابع ذليل للواقع السيِّء، يلتمس له المسوغات، ويبحث له عن الرخص... الناس محدودة القدرة على استخلاص الحكمة والعبرة من النماذج التي يرونها، مما يجعل (الخلط) سيد الموقف.

● في هذا العالم ستنخفض درجة التعاطف والتراحم والتواصل الاجتماعي، وستترسخ مفاهيم الحقوق والواجبات، وستشيع أدبيات التمحور حول الذات والمنافع الشخصية.

البغي والعدوان على الآخرين، وتجاوز الحدود منتجات اجتماعية، ومع تعمق التواصل الكوني سنرى الكثير من ذلك: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[1]. لكن سيكون كل شيء بقانون: القتل والنهب والدعارة، فالقوانين ستكثر، لكن

(١) سورة ص: ٢٤

دون أية قواعد أخلاقية! والصيد من الآن سيكون بشباك من حرير، والرصاص المستخدم، هو رصاص الرحمة فقط!!.

● التوجهات الثقافية السائدة الآن في المدن الكبرى، سوف تتعمق وسوف يتم تعميمها على الريف، على سبيل التدريج، حيث يتم تحويل القرى إلى مدن، وحيث تحمل القرية روح المدينة. ستصبح علاقات العمل أقوى، كما أن علاقات القرابة، ستضعف، وسيزداد الوعي بأهمية المال ومحوريته في الحياة، الاعتزاز بالأنساب والأصول العرقية، سوف يتراجع لحساب المزيد من التقدير للكفاءة والأهلية الشخصية.

لا أريد أن أسترسل في بيان ما نتوقع تعميمه في حياة ذاك العالم الواحد، فذلك حديث ذو شجون.

ما العمل؟

لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الكونية الجديدة، ستكون شراً محضاً وأزمة خالصة، فهناك إيجابيات كثيرة، ومحفزات عديدة للتخلص من العديد من المشكلات والعقابيل التي عانت منها الأمم أجيالاً عديدة. لقاء الضعفاء بالأقوياء قد يكون معبراً للخبرات إذا وقف الضعفاء موقف التلميذ النبيه، وقد يكون بوابة إلى تكريس التبعية إذا وقفوا موقف الزبون المتسوِّق. لن يستطيع أحد أن يتنبأ بحقيقة ما سينجم عن ذلك اللقاء الكوني الشامل، لكن إذا كانت العلاقات بين الأمم، سوف تصاغ كما تصاغ اتفاقيات (الجات)، فإن الأمر لا يبشر بالكثير من الإيجابية. فقد تمت هندسة تلك الاتفاقية من قبل الدول التي تمسك بناصية التجارة العالمية بحيث تحقق الربح من الدول الضعيفة في

حال انضمامها إليها، وفي حالة إحجامها عنها. فخسارة الفقراء محققة ولكن قد تختلف الطريقة ما لم يحدث ما ليس في الحسبان!

ولعلي أقف وقفات قصيرة حول ما ينبغي أن يفعله مسلم (العالم الواحد) حيال كل ذلك موجزاً لها الآتي:

١- امتلاك فضيلة الوعي بالأهداف الكبرى التي وجد المسلم على هذه الأرض من أجل تحقيقها، والوعي بالأصول الحضارية الإسلامية، إلى جانب البصيرة بمآلات الكثير من الأعمال والنظم والأشكال التي بدأنا نراها في هذا الزمان؛ فروح هذا العصر روح مادي دنيوي آني، وهذا كله مضاد لروح التدين الحق. والوعي الجيد هو الذي سيحول دون الانجراف وراء التجديدات الهائلة التي لا ترسخ إلا مفاهيم المكاسب الشخصية، ومفاهيم المتعة، مهما كان نوعها أو حكمها!

٢- في هذا العالم، سيكون للإدارة الجيدة شأن، وأي شأن، وستكون أشكالاً وألواناً، إدارة الذات، وإدارة الوقت وإدارة الموارد وإدارة المشكلات وإدارة الإبداع... وإن إدارة (الإمكانات) المتوفرة، تحتاج إلى عناية خاصة، فهي بحاجة إلى اكتشاف أولاً ثم استثمار ثانياً، ثم إلى تنمية وتوسيع، وذلك كله متوقف على الفهم العميق للواقع المعيشي وآفاق المستقبل. إن هناك أياماً سوداً خلف الباب، تنتظر كل أولئك الذين يسيئون استخدام الإمكانات التي بين أيديهم!

٣-الانفتاح شرط أساسي للعيش في العالم الجديد. لا نعني بالانفتاح الترحيب بالوافدات الجديدة دون أي تحرز، إنما نعني أن نكون على استعداد لتفهمها مهما كانت مجافية للحق أو المنطق، وأن نحاول رؤية الأشياء بطريقة

جديدة. الانفتاح يعني أيضاً التحرر من البرمجة المحلية لأفكارنا ومشاعرنا، والتي كثيراً ما تكون قاصرة أو مشوشة. الانفتاح مرة أخرى قد يعني القدرة على مراجعة الآراء والمفاهيم الشائعة في ضوء المنهج الذي نؤمن به، وفي ضوء الخبرات البشرية المتراكمة.

٤-التغيرات الهائلة السريعة تفرض أن ننظر للأمام باستمرار، وأن نوسع مساحة الرؤية، وإلا جئنا بعد الحدث عوضاً عن أن نأتي قبله. التخطيط يعني- فيما يعنيه - التضحية بالعاجل من أجل الآجل، واستثمار ما هو متاح من أجل الوصول إلى ما هو غير متاح. والمسلم الحق إنسان مستقبلي، وعليه اليوم أن يتمتع بروح الدأب والمثابرة، وملامسة الآفاق البعيدة في شؤون دنياه، كما يفعل في شؤون آخرته.

٥-العالم الواحد، عالم الأشياء البالغة الدقة ، وعلى من يريد العيش فيه أن يكون دقيقاً في كل شيء: في فهمه وكلامه وتعامله وصناعته ومواقفه. والمرء بحاجة إلى الكثير من التدريب والمران حتى يكتسب هذه المهارة. لكن لا سبيل آخر أمامه، وإلا فعليه أن يوطن نفسه للتورط المستمر!

٦-العالم الواحد، هو عالم (الإنسان المرتحل): الارتحال عن الأوطان، والارتحال عن مجموعة التصورات والانطباعات التي كونها عن كثير من الأشياء، والارتحال عن مهنة الآباء والأجداد وعن التخصص الأثير. شروط العيش القاسية، تتطلب من الجميع أن يتعلموا (التكيف) مع أسواق العمل وفرصه السانحة، ويتعلموا المهارات واكتساب الخبرات التي يتطلبها ذلك. على الجميع أن يستعد للارتحال، لكن سيكون هناك صنفان من المرتحلين: صنف الأقوياء

والأثرياء والخبراء الذين يحمل الواحد منهم معه (جواله) وحاسبه الشخصي باحثاً عن سوق مناسب لتسويق منتج جديد، أو عن مكان مناسب لفتح فرع جديد لشركته... وصنف الفقراء ذوي الظروف القاسية جداً، ورحيل هؤلاء سيكون للبحث عن لقمة لسد الرمق، أو قطرة من ماء من أجل الاستمرار على قيد الحياة!

٧- العالم القادم هو عالم الكبار والأقوياء، وعلى كل مدرك لطبيعة التواصل الكوني وعقابيله أن يحاول أن يكون بمعنىً ما قوياً، وأن يؤهل نفسه للعمل ضمن فريق، وعلى الدول أن تسعى إلى التعاون والتوحد إذا ما أرادت المحافظة على مكاسب شعوبها.

إن مسلم العالم الواحد سوف يستطيع إعطاء نموذج جديد للرقي والاستقامة إذا ما استوعب روح العصر، وملك من الوعي ما يجعله يسيطر على أهوائه، ويدير ذاته على نحو حسن.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٣٤ تربية التفكير المستقيم

يستحق عصرنا أن يسمى بجدارة عصر المشكلات والأزمات؛ والمؤشرات الحاضرة تدل على أن عالمنا الإسلامي لا يعاني على نحو أساسي من نقص في الوسائل أو الإمكانات، فما هو موجود لديه منها إن لم يكن أكثر مما لدى الآخرين لم يكن أقل، لكن المشكلة تكمن في أن فاعلية وسائله ونجاعتها تظل مرتكزة على نوعية الأساليب والطرق التي تستخدم تلك الوسائل، وفاعلية الأساليب تظل محدودة ما لم تستند إلى قاعدة فكرية صحيحة، ورؤية واضحة لما يمكن عمله، ويجب إنجازه. وحتى يحدث نهوض شامل فلا بد أن يمتلك السواد الأعظم من الناس درجةً ما من تلك القاعدة؛ وهنا يأتي دور التربية الأسرية والمدرسية في تأسيس التفكير المستقيم لدى الناشئة. ونحن نعتقد أن جوهر التربية العقلية لا يتمثل في إكساب العقل المعرفة، وإنما في إكسابه الطرق التي تمكنه من اكتساب المعرفة ومعالجتها، والانتفاع بها.

إن حاجتنا إلى التفكير الناضج تشتد في حالة وجود فراغات معرفية ومعطيات ناقصة، حيث يكون المطلوب استيلاد أفكار صحيحة من مقدمات ناقصة، من خلال إعمال الإمكانات الذهنيّة في الخبرة المخزونة. ولا ينبغي أن يظن أن التسايل السريع للمعلومات سوف يقلّل من أهمية التفكير؛ فالتقدم العلمي يثير من التساؤلات على مقدار ما يوفر من الأجوبة. وفي كثير من

الأحيان لا يكون هناك سبيل للإجابة على الأسئلة المثارة سوى الاعتماد على التفكير والخيال والملاحظات الذكية.

ومن وجه آخر فإن طاقة العقل والوعي على استيعاب المعلومات ومعالجتها، تظل محدودة، ولذا فإن كثرة المعلومات حول قضية ما لا تمثل عنصراً إيجابياً على نحو دائم؛ فالمعلومات الكثيرة تتقاطع، وتتصادم، وتعطي مؤشرات متفاوتة، وهذا يشوّش الرؤية، ويجعل الوصول إلى رأي قاطع عسيراً. ويذكرون أن إحدى المحاكم الأمريكية طلبت من شركة الحاسبات (آي بي أم) وثائق حول إحدى القضايا، فما كان من الشركة إلا أن قدمت ما يزيد على مليون وثيقة (!) فما كان من القاضي إلا أن طوى ملف القضية! وقد انتبه سلفنا إلى ضرورة تربية التفكير المستقيم، فعمدوا إلى تدريس الطلاب علم المنطق الأرسطي اليوناني، وضبطوا به حلقات النقاش وجولات الجدل والمناظرة. وقالوا في تعريفه: إنه علم يعصم الذهن من الخطأ، وما زال كثير من الأقسام الأدبية في الثانويات والجامعات يقدم لطلابه هذه المادة.

وهناك نقود كثيرة موجهة إلى هذا العلم، ويسود اعتقاد متزايد بأنه يشوّه عقول الطلاب، ويعوق نموها وتزكيتها، حيث إنه يسعى إلى نوع من الاتساق والانضباط الشكلي بعيداً عن الواقع العملي. كما أن هذا العلم أشاع روح التحزب بين طلاب التعلم، من خلال قواعده الصارمة، حيث يقسم المختلفين إلى مخطىء ومصيب (إما هذا وإما ذاك). والأخطر من كل هذا أن الركون إلى المنطق اليوناني باعتباره الوسيلة الأنجع لتقويم الفكر قد حجب كثيراً من طلاب العلم - ولا سيما في الماضي - عن رؤية ما بثّه الله- جلا و علا- في الخلق

من سنن اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية ... مما حرمهم من إدراك مجمل الترابطات التي تمكّن من رؤية كلية للأوضاع العامة.

والمنطق اليوناني مع هذا وذاك، غير عملي في تمثل المشكلات وحلها، فهو لا يُعنى برصد فهم الأسباب المتعددة للظاهرة الواحدة، كما لا يُعني بمعرفة التغذية الارتدادية والمفعول الارتجاعي.

وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمة الله– قال عن هذا العلم: إنه علم لا يحتاجه الذكي، ولا ينتفع به الغبي!

وهذا كله يعني أننا بحاجة إلى علم تفكيرجديد، يُسدِّد المحاكمة العقلية لدى الناشئة. وإن من حسن الحظ أن القواعد الكبرى التي يمكن أن ينهض عليها هذا العلم ليست كثيرة، وإن كانت تطبيقاتها لا تكاد تنتهي. وسوف نقتصر هنا على ذكر ثلاث من تلك القواعد:

١–معرفة طبائع الأشياء ومنطقها:

مما يؤسِّس للتفكير المستقيم أن نشرح دون سأم لطلابنا وجميع من نقوم على تربيتهم كل ما يمكن أن نكتشفه من سنن الله – جل وعلا– التي تحكم طبائع الأشياء ومنطق تطورها، حيث جعل – سبحانه – لكل ظاهرة من الظواهر – أياً كان نوعها – حدوداً تتحرك في إطارها ثباتاً وتطوراً.

والخبرة البشرية هي التي تمكّن من إدراك مداها الأقصى والأدنى، ومن خلال تلك المعرفة، يمكن سد الفراغات المعرفية، بل يمكن اتخاذ موقف واضح من معلومات تستند إلى الرؤية أو السماع؛ وقد روي عن علي – رضي الله عنه – قوله: «رأي الشيخ، ولا رؤية الصبي » فالشيخ حين يبدي رأياً معتمداً على خبرة

عريضة، كثيراً ما يكون أدنى إلى الصواب - مع أنه لم يرَ - من صبي لا معرفة له بطبيعة الأشياء، مع أنه يحكي عن مشاهدة.

ولتوضيح المراد من هذا نقول إن طبيعة المجتمعات تقوم على (التبادل) ولا مجتمع بدون تبادل. وطبيعة الدولة تقوم على الاستحواذ، والحاجة إلى الشرعية والإنجاز، إلى جانب استخدام القسر والإكراه. وطبيعة المال البحث عن النمو، كما أن طبيعة النظام التجاري اقتحام النظم الثقافية كافة... أما منطق الأشياء، فهو القوانين التي تحكم تطور الظواهر والنظم والحضارات. وهذه القوانين يمكن إيقافها أو تأجيل عملها إلى أمد معيّن، ولكن بتكاليف باهظة، فالظلم يعطي قوة في البداية لكن منطقه يقود إلى الخراب في النهاية. والجسم الفاره يتحمل الأمراض إلى أجل لكنه ينهار في آخر الأمر. والنظم تسير نحو التعقيد كلما تراكمت الخبرة. وسوء التدبير مؤداه الإفلاس ولو بعد حين...

وانطلاقاً من معرفة طبائع الأشياء حكم المحدِّثون على بعض الأحاديث المنسوبة إلى النبي - ﷺ - بالوضع، من: «من صام يوماً كان له كأجر ألف حاج، أو ألف معتمر، وكان له ثواب أيوب». ونحو «خُلِق الوَرْدُ من عَرَقي». ونحو : «تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر». ونحو: «إذا عطس الرجل عند الحديث، فهو دليل صدقه».

ومن هذا المنطلق أنحى ابن خلدون في مقدمته باللائمة على ما ذكره أمثال الطبري والثعالبي في قوله - سبحانه-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[1] من أن (إرم) اسم المدينة وصفت بأنها ذات العماد، وأن شداد بن عاد سمع

(١) سورة الفجر: ٦-٧

وصف الجنة، فقال: لأبنين مثلها، فبنى مدينة في صحارى عَدَن في (٣٠٠) سنة، وكان عمره (٩٠٠) سنة، وأنها مدينة، قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد... وحجة ابن خلدون أن من طبائع الأشياء أن يُعرف شيء عن هذه المدينة، ولا سيما أن هذه المدينة بنيت في وسط اليمن، والركّاب والأدلاّء قد نفضوا طرقه من كل وجه ولوكان ما ذُكر صحيحاً لنقل إخباريو الأمم ذلك.

وانطلاقاً من معرفة منطق الأشياء وإمكانات تطورها ردّ ابن خلدون أيضاً ما ذكره المسعودي من أن موسى - عليه السلام- أحصى من يطيق حمل السلاح من بنى إسرائيل في التيه، فوجدهم (٦٠٠) ألف. ويرى أن هذا من خرافات العوام؛ لأن يعقوب -عليه السلام- ومن معه كانوا حين وفودوا على مصر نحواً من (٧٠) نَفْساً، وكان مقامهم بمصر إلى خروجهم منها مع موسى مدة (٢٢٠) سنة، ويبعد أن يكثر النسل إلى هذا الرقم الكبير خلال هذه المدة.

إن استخدامنا لهذه القاعدة هو الذي يحول دون الجري وراء الشائعات والخرافات والمبالغات والغرائب التي تعوَّد بعض الناس إطلاقها.

٢-التفريق بين القطيعات والظنيات:

إن صلابة أي رأي تنبع من صلابة المقدمات التي أفضت إليه، وقد شنَّع الله - تعالى- على الذين يتصلّبون في معتقداتهم ومواقفهم، مع أنه ليس عندهم سوى الظنون والأوهام، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۖ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۚ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [1] ونهانا أن نسلك مسالكهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ

(١) سورة النساء:١٥٧

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] حين تكون الأدلة قطعية، فإن على المرء أن يتصلب، ويتمسك بمعتقده ومبادئه، ولو خالفه السواد الأعظم من الناس. وحين تكون الأدلة ظنية أو محالة لوجهات نظر متعددة، فإن ما يذهب إليه الجمهور، يؤخذ بعين الاعتبار، ويكون المنفرد عن الجماعة أقرب إلى التفرد والشذوذ، فلو أن أهل قرية تركوا الصلاة إلا واحداً منهم، فإن الواحد هو الجماعة، وهو الجمهور، وعلى الآخرين أن يعودوا إليه؛ وهذا معنى قول ابن مسعود -رضي الله عنه-: «الجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك»، أي الحق القطعي الذي لا يقبل الاجتهاد.

إن كثيراً مما يعتقد الناس أنه لا يقبل الخلاف قد اختلف فيه السابقون، وعلموا أنه مما يقبل الاجتهاد، فتعاذروا فيه، وكانوا يقولون: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

ويختلف كثير من الناس اليوم في قضايا، هي موضع إجماع عند السلف، مما يدل على أن معايير التفريق بين القطعي والظني لم تعد في الثقافة العامة واضحة.

إن أصولنا في هذا الشأن محكمة، وعلى المربين أن يوجدوا التطبيقات العملية لذلك، وأن يشيعوها في ثقافة الناشئة.

٣-لكل قاعدة شواذ:

تميل القوانين المتعلقة بمظاهر الطبيعة إلى الصرامة والدقة، أما على الصعيد الإنساني، فإن القوانين تكون أقرب إلى المرونة، وذلك تابع إلى ليونة الظواهر الإنسانية وكثرة العوامل التي تسهم في تشكيل الواحدة منه، وصعوبة وضعها في قوالب محددة.

---

(١) سورة الحجرات :١٢

ومن هنا كانت القاعدة الجميلة: «لكل قاعدة شواذ» فنحن نعلم يقيناً أنه ليس كل من عاش في بيت يتشاجر فيه الأبوان، سيكون في المستقبل معقَّداً أو نزاعاً إلى الانتقام أو يائساً. كما نعلم أن أهل بلدة لا يكونون جميعاً من الجبناء أو الكرماء أو النبهاء.. والسبب في ذلك أن العوامل التي تتحكم في إبراز ظاهرة اجتماعية كثيرة جداً، وبعضها مرئي، وبعضها غير مرئي، وبعضها وراثي، وبعضها بيئي، ومنها الهامشي، ومنها الأساسي... ولذا فإن ما نراه من شذوذات خارجة عن الأصول، لا يجرح القاعدة، وإنما يؤكّدها.

بعض الناس يرتبك في الحكم على هذا، ويقف موقفاً مغايراً، ولذا فإنه «يسقط القاعدة بالمثال الشاذ» فإذا قلت له: إن الحروب يعقبها موجة من التحلل الخلقي، قال لك هذا غير صحيح؛ لأن فلاناً من الناس فقد أهله وماله في الحرب، ومع ذلك فإن أخلاقه لم تتغير!!

وإذا قلت له: إن انشغال الأب عن أولاده يسبب قصوراً في تربيتهم قال: هذا غير صحيح؛ ففلان مشغول جداً عن أسرته، ومع ذلك فسلوك أولاده ممتاز!!

وطالما سمعنا من يُضفي على أهل مدينة سمات العبقرية، لأنه خرج من بينهم العلم الفذ الفلاني وهكذا...

في ذهني أشياء كثيرة يمكن أن تكون قواعد للتفكير المستقيم، مثل إدراك العلاقة بين المطلق والنسبي، وإدراك أن المستحيل درجات عديدة، ومثل رؤية الأشياء من خلال ذاتها، ومن خلال علاقتها، لكن المساحة المتاحة، لا تسمح بأكثر مما قلنا، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. إنَّ تقرير مادة لتعليم

رؤى ثقافية .....

التفكير المستقيم في الصف الثالث الثانوي وفي الجامعة يعدّ أمراً ملحاً إذا ما أردنا للأجيال القادمة أن تفكر على نحو أفضل من تفكيرنا!

بيئة خطرة ٣٥

مهمة الفكر أن يدلنا على الطرق المسدودة والمفتوحة، وأن يدلنا على أفضل الأساليب والأدوات التي تحقق أفضل النتائج، لكنه يظل عاجزاً عن تشكيل البيئة الثقافية والاجتماعية التي ننمو، وننمّي فيها أطفالنا وطلابنا، فذاك من نصيب مجمل القوى التي تُحدث التغييرات في أساليب العيش، وتوازن المصالح، وفي أسس العلاقات الداخلية والدولية... وتلك البيئة هي التي توجه التفكير، وتنظيم ردود الأفعال، وتحدد خيارات الحركة.

وأعتقد أنه لن يكون هناك أهم من التفكير في طبيعة هذه البيئة، والخيوط التي تشكّل نسيجها، وماذا ينبغي عمله من أجل جعلها أكثر ملاءمة للحياة الطيبة النقية المنتجة.

الإنسان لا يحيا إلا من خلال توازنات: توازنات بين العقل والخُلُق وبين الحاضر والمستقبل، والذات والآخر... ولأن المعطيات المتوفرة لدينا حول كل ذلك مشوبة بالنقص دائماً، فإن توازناتنا تناهز الكمال، ولا تبلغه، وحين يكتشف الإنسان خللاً في أحد توازناته، فإن أمامه فرصة للتصحيح والتراجع بسبب بطء التغيرات التي تنتاب أحواله الشخصية وبيئته العامة. ومهما يكن الأمر، فإن الخطأ في أي توازن، لم يكن يؤدي إلى كوارث كبرى، بسبب ضعف الإنسان ومحدودية وسائله، وضيق مجاله الحيوي. وهكذا فقد ظل الإنسان قادراً على الاستمرار بسبب قصوره الذاتي، وظل ضعفه نعمة عليه.

اليوم تنكسر كل التوازنات البيئية، وتختل كل التركيبات الأخلاقية والاجتماعية حيث تطرأ تطورات خطيرة على المعادلات التي تتشكل منها النظم والأنساق المتعلقة بالناس، والمتعلقة بالأوساط التي يحيون فيها، بسبب التواصل العالمي الهائل الذي وضع الناس فيما يشبه الخلاطة الكبيرة؛ وعلى شدة التنافر بين تلك الأشياء المختلطة صار التمييز بينها عسيراً.

أكبر مشكلة في هذا الاختلاط الكوني أنه لم يقم على أسس إنسانية، كما أنه لم يكن بسبب دوافع نبيلة أو شريفة؛ فالعقلية الكامنة وراء هذا الحراك الواسع للقادرين والمتفوقين، تقوم على مبدأ أنه ليس في هذه الأرض ما يكفي الجميع، وبات على كل واحد أن يبحث عن خلاصة الشخصي، حيث لا خيار، فإما أن تكون آكلاً أو مأكولاً، غازياً أو مغزواً. وهذا فتح أبواب التنافس الرهيب على كل ما هو لا عقلاني ولا إنساني!

إن الأدبيات والمفاهيم والأنماط التي يبثها أكثر من خمسمائة قمر صناعي تدور حول الأرض، تعمل مجتمعة على إضعاف أخلاق الناس وإرادتهم، وكشف الغطاء الثقافي عنهم، وجعلهم يشعرون بالتفاهة والاغتراب، حيث يُوحى إليهم أنه لا بديل عن الاستسلام لما تأتي به موجات التحديث وحتميات التطور العلمي والتجاري...

وإذا أردنا أن نرصد أهم المفاهيم والآليات التي أحدثت الخلل في الجانب الإنساني، فسنجد التالي:

- انتشار حالة من القلق والاضطراب بسبب ما يجري من تحطيم منتظم لكل الأنساق والنظريات الثقافية الكبرى التي كانت سائدة والتي كانت

- بقطع النظر عن صوابها- تؤمّن للوعي بعض الأسس والتأطيرات التي تساعده على التعامل مع ماهيات الوجود، وليس أدل على ذلك من ولوجنا في عصر (المابعديات)، فالحديث اليوم منصبٌ على شرح (ما بعد الحداثة) و(ما بعد الصناعة) و(ما بعد الماركسية) و(ما بعد الرأسمالية) و(ما بعد الدولة) ... وذلك كله ينذر بانفتاح تام على الغامض والمجهول، مع أن البشر ظلوا على مدار التاريخ يكافحون من أجل الخروج من مآزق (العماء) و(اللاتكوّن). والأدوات المستخدمة في كل هذا عبارة عن مفاهيم يجري ترميزها من جديد، وذلك من نحو الخصوصية والنسبية والتعددية والانفتاح والتسامح والحق في الاختلاف، وعجز الناس عن إدراك الحقيقة المطلقة... وهي مفاهيم نقية في ظاهرها، مغشوشة في تفاصيلها.

تهميش تام ومتتابع لكل ما كان يشكّل مصدراً لكبح الرغبات المجنونة، والخوف من الله - جل وعلا- من كل ما هو من قبيل العقدي والروحي والتراثي والتقليدي والمحلي، وشن حملات منظمة على كل ما يعد (مقدساً) حتى الموت الذي كان مصدر رهبة وخضوع للبارئ - جل وعلا- صار اليوم موضع تساؤل - لدى بعض الطامحين - من خلال تجميد الأجنة والحيوانات المنوية، وما يؤمَّل من وراء الفتوحات التي يمكن أن يأتي بها الاستنساخ الحيوي. وحل محل كل ذلك ما هو ملموس من المكتسبات الحضارية الراهنة بوصفه إطاراً مرجعياً للمعايير والتنظيمات المختلفة؛ مع أن الذي تثبته الشواهد اليومية أن كل ما أنجزه الإنسان من ارتقاء مدني ونعومة في التصرفات وأناقة في العلاقات لا يعدو أن يكون في الحساب النهائي أكثر من قشرة رقيقة، خلفها وحش ينتظر، وما أن تسنح الفرصة حتى ينطلق الوحش، وتظهر بدائية إنسانية كالبداية

السابقة، لكنها مزودة هذ المرة بأسلحة أشد فتكاً ومضاءً.

إلى جانب كل هذا هناك ممارسة ممنهجة لخلع المرء من أسرته، والأسرة من مجتمعها، والمجتمع من أمته الكبرى؛ مما جعل الوعي الإنساني يشعر باليتم، وأشاع حالة من الذعر والخوف مما تأتي به الأيام.

ضمور سلطة الدولة، وانحسار الهامش الذي كانت تقيم من خلاله التوازنات بين الفئات الاجتماعية المختلفة، وتآكل المؤسسات الوسيطة، وما كان يسمى بـ(الطبقة الوسطى) وصار لزاماً على الحَمَل الوديع أن يجد طريقة للعيش مع الذئب في حظيرة واحدة، وأنى له ذلك؟!

كل هذا يجري في ظل تنامي إمكانات الإنسان، وتقدم التقنية على نحو مذهل. ومع ذلك التقدم تحدث إمكانات كبيرة للغش في الأطعمة والأدوية والآلات، مع ازدياد فرص الإفلات من الملاحقة القانونية؛ حيث إن أدوات ملاحقة الغش، تظل متخلفة عن أدوات ممارسته.

والخطير حقاً الآن ما يتم في حقل (التقانة الحيوية) حيث تفتح كل يوم آفاق جديدة في اتجاه الاستنساخ وجراحة الجينات بغية تبديل الإمكانات الوراثية للكائن الحي ... وبتنا نسمع الآن عما يسمى بـ(القنبلة العنصرية) التي تستهدف شعباً، يحمل خصائص جينية معينة. ودعونا نتخيل توصل دولة الى استنساخ بدون مشكلات، فماذا يمكن أن يحدث؟ إنها سوف تسعى إلى أن تستنسخ بكثافة من العباقرة والأصحاء في مجتمعها؛ مما يعني أن (البيولوجيا المستقبلية) ستخرج علينا بجنس بشري من طراز جديد، تجتمع له الإمكانات لسحق ما تبقى من الجنس البشري الحالي، بوصفه من مخلفات الماضي البالية! مسكين هذا

الإنسان فهو لا يعرف هل سيفنى بسبب المعرفة التي حصل عليها، أم بسبب المعرفة التي لم يحصل عليها!

إن البشرية أضحت اليوم بمنزلة هيكل له محرك طائرة وكوابح دراجة، وصار ما يمكن حدوثه من الانهيارات أمراً مخيفاً ومرعباً.

وقد آن أوان الفزع، وبات علينا أن نتعلم كيف نناصر العقل في مواجهة الذكاء، والحكمة في مواجه القوة، والخُلُق في مواجهة الهيمنة، والروحي في مواجهة المادي، وإلا فإن علينا أن نتساءل عن نوع البيئة الثقافية والاجتماعية التي سنتركها للجيل القادم؟

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

حول الاختلاط ٣٦

لابد قبل أن نحدد موقفنا من أي أمر من أن نحدد أولاً الإطار المرجعي الذي ننطلق منه، لأننا إذا لم نفعل ذلك فسوف تختلط علينا الأمور، ومن الممكن آنذاك أن يصبح كل ما يقال صحيحاً. بعض الناس يتخذ من هواه سنداً لمواقفه. وبعضهم يتخذ من مصالحه منطلقاً في كل أعماله. أما المؤمن فهو يحتكم إلى أمر الله ويصدر عنه، ويجاهد في سبيل الالتزام به قدر استطاعته. ومسألة الاختلاط والعلاقة بين الرجال والنساء ليست من المسائل التي لم يقل فيها الشرع المطهر كلمته حتى يقول فيها من شاء ما شاء، فالنصوص التي تتحدث عن هذه المسألة كثيرة، وعمل الصحابة - رضوان الله عليهم - تطبيق عملي لتلك النصوص يقول الله - جل وعلا - مبيناً ضرورة امتثال المؤمنين لأمر الله في المنشط والمكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[1] وقال سبحانه آمراً المؤمنين والمؤمنات بغض البصر تجنباً للفتنة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[2] وقال سبحانه في أمهات المؤمنين الطاهرات: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[3]

(١) سورة الأحزاب: ٣٦

(٢) سورة النور: ٣١، ٣٠.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٣

إن القرآن يرشد الصحابة الكرام إلى أن يسألوا أمهات المؤمنين إذا احتاجوا إلى سؤالهن من وراء ستر وحجاب، وعلل ذلك بأنه أكثر تطهيراً للقلوب من الريبة، وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء. وللنساء في أمر الرجال فماذا يقول أولئك الذين يدعون أن الاختلاط لا يغير قلوبهم ولا يؤثر في حياتهم الشخصية مع الفارق الكبير بين نقاء الصحابة ونقاء الناس اليوم وتربيتهم وتربيتنا؟!

أود هنا أن أسلط الضوء في هذه المسألة المهمة على النقاط التالية:

١- أعتقد أن ما تلقيناه من أشكال الخديعة كاف، ولم نعد بحاجة إلى أن نزيد الطين بلَّة ونخدع أنفسنا بالقول إن اختلاط الرجال بالنساء في دوائر العمل وفي البيوت سيؤدي إلى إنضاج المرأة واستفادتها من خبرات الرجل واستفادة الرجل من خبراتها فالجهات التي سمحت بالاختلاط ليست مهتمة كثيراً بالحكم الشرعي ولا بانتقال الخبرات، والناس الذين يختلطون لا يهتمون كثيراً أيضاً بهذه المسائل. والمدخل الأساسي شهواني قبل أي شيء آخر.

٢- إن ما نتميز به على أمم الأرض بحسب واقعنا المعيشي هو المنهج الرباني الأقوم، وإن التخلي عن ثوابت هذا وأدبياته سيعرضنا لأوخم العواقب على الصعيد الداخلي وعلى صعيد وجودنا العالمي، ويمكن القول إن نظامنا الاجتماعي هو النظام الأكثر إشراقاً في حياتنا اليوم وفيه تكمن نقطة التعادل بيننا وبين الأمم الأخرى. وإن الأسرة هي نواة هذا النظام والعولمة اليوم تحاول من خلال وسائل شتى تفكيك الأسرة وخلع أفرادها منها، والاختلاط وسيلة من تلك الوسائل حيث يبهت كل من الزوجين في نظر الآخر نتيجة المقارنات التي يتيحها الاختلاط ونتيجة العلاقات الجانبية التي تنشأ عنه. وليس سراً أن

نسب الطلاق آخذة في الازدياد في كثير من المجتمعات الإسلامية بسبب عوامل شتى ليس الاختلاط أقلها شأناً. ولنا في الغرب عبرة وأي عبرة فقد انتشرت الفاحشة في الغرب وكادت الأسرة تندرس هناك حيث تفيد بعض الدراسات أن نحو من ٤٠٪ من مواليد بريطانيا اليوم جاؤوا من خارج مؤسسات الزواج أي أولاد زنا. ويمكن لهذه الكارثة أن تحل بنا إذا لم نستيقظ قبل فوات الأوان.

٣-لست أدري كيف سيكون الوضع في المستقبل بالنسبة لأطفال يتربَّون في بيت يرون فيه الرجال الأجانب والنساء الأجنبيات يهرجون ويمزحون فيما يجوز وما لا يجوز، وكيف ستكون صورة أبيهم المربي في أعينهم وصورة الأم الفاضلة التي تلقنهم الآداب؟!

لا ريب أن الأطفال سيتعلمون من أجواء الاختلاط التساهل تجاه المحرمات. وسيتدرجون رويداً رويداً نحو بناء علاقات مع من هو في سنهم من أولاد أصحاب أهليهم وذويهم وكأننا بذلك نفسد البذرة الطاهرة في وقت مبكر.

٤-العلاقة بين الرجل والمرأة لا تقوم على المشابه وإنما على المخالفة وهذا هو الذي أدى إلى إيجاد خصوصية لكل منهما ووجود الخصوصية هو الذي يمكن في النهاية من وجود الائتلاف والتعاون على مبدأ (نختلف لنأتلف) والاختلاط عدوان على كل من خصوصية المرأة والرجل. وهناك اليوم العديد من الدراسات التي تشير إلى حنين المرأة في الغرب إلى ما فقدته من خصوصيتها وتحييذها لأمكنة عمل ليس فيها رجال. فهل يمكن القول: إن المسلمين تعرفوا على محاسن الاختلاط حين اكتشف الآخرون مصائبه؟!

٥-كثيرون من الرجال والنساء لا يعيرون اهتماماً لمشاعر الأزواج والزوجات، وما يمكن أن تتعرض له العلاقات بينهم من اهتزاز وتدمير اعتماداً على الثقة المتبادلة، ويصرح كثيرون بأنهم يثقون في زوجاتهم ولو اختلطن بالرجال الأجانب أو سافرن معهن - كما في بعض الحالات- وتفعل بعض الزوجات نحواً من ذلك .

حتى إذا ما وقعت فاجعةٌ ما ندم أولئك الواثقون لكن بعد فوات الأوان! وهم يجهلون على ما يبدو أن الثقة بين الأزواج يتم بناؤها على نحو تدريجي، وهي تظل معرضة للشكوك والظنون، وهدمها سهل جداً، وكم هدمت شائعات مغرضة بيوتاً كان يظن أنها راسخة البنيان. إن من الواضح أنه في حالات الاجتماع والاختلاط يتم الكثير من التصنع والتزيين، من جميع الأطراف. وذلك يمهد الطريق إلى الكثير من التلطف بين الجنسين والذي يقود من جهته إلى ما لا تحمد عقباه، وأثناء ذلك تهدم الثقة وتخرب بيوت، وتحدث كوارث ولكن الغارقين في الشهوات لا يحرصون كثيراً على تفهم مثل هذه المعاني.

٦-إذا اضطر مسلم أو مسلمة إلى الاختلاط فليحاول جعله في أضيق الحدود وليحاول جعله عابراً لا مستمراً وإذا دعت الحاجة الملحة إلية فليلتزم كل من الرجال والمرأة الآداب الشرعية في الكلام واللباس والتصرفات وقد وجَّه الله تعالى نساء النبي ﷺ إلى شيء من ذلك حين قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.[1]

(١) الأحزاب ٣٢،٣٣.

والمسلمات اليوم أحوج إلى هذا التوجيه ولا سيما في زمان فاسد كزماننا.

٧-إننا اليوم نواجه تياراً شهوانياً عاتياً يجرف كل ما يقف في طريقه وإن هذا التيار تصعب مقاومته بالمزيد من الفكر أو المعرفة وإنما يجب أن نجابهه بإحداث تيار روحي تعبدي يقربنا من الله زلفى، ويسد الفراغ الروحي الذي أمسينا نعاني منه نتيجة الحياة المادية الصاخبة وسيتعيّن علينا أن نعطي المسألة الروحية اهتماماً متزايداً في إطار الآداب الشرعية المعروفة إذا أردنا الاحتفاظ بالحيوية المطلوبة للعيش في زمان صعب كزماننا.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

٣٧ لم الخوف من العولمة؟

يثور سؤال في أذهان بعض المثقفين حول الضجة الكبرى حول العولمة في هذه الأيام، وهل فعلاً تستحق هذه الظاهرة كل هذا القلق على الصعيد العالمي؟

وأعتقد أن الأسباب الداعية إلى الخوف من (العولمة) أسباب جدية وقوية، وهذه الأسباب تشكّل منابع قوة العولمة، كما تشكّل معالم صعوبة السيطرة عليها والتعامل معها. وفي ظني أنه يمكن أن نعدَّ من تلك الأسباب الآتي:

١-إن معظم عمليات العولمة لا تخضع لإدارة مركزية، والقوى المحركة لأنشطتها وإن كانت تلعب على قواعد واحدة، وتنقل مضامين ثقافية ذات خلفيات متقاربة إلا أن المستفيدين من العولمة ليسوا - في معظم الأمر- متعاونين وإنما هم متنافسون فيما بينهم، وأظهر مثال على ما نقول سياسات الإخراج من السوق التي تتبعها الشركتان الأمريكيتان العملاقتان (بيبسي كولا) و (كوكا كولا) ضد بعضهما. وعدم تنظيم هذه الظاهرة هو من أسرار قوتها؛ إذ إنها لو كانت منظمة لأمكن اختراقها والتأثير فيها على عين القواعد والأسس التي قامت عليها تنظيمها، وهي من الوجه -فقط- تشبه الصحوة الإسلامية المباركة.

٢-ارتباط العولمة بالتقدم العلمي؛ إذ لولا الثورة التي حدثت في عالم الاتصالات والبث الفضائي ومجال المعلوماتية.. لما أمكن للعولمة أن تهيمن على

شؤون العالم على هذا النحو المخيف.

وهذا التقدم المتسارع مدين لملايين العقول التي تشتغل في مجالات البحث والتطوير، كما أنه مدين لمئات المليارات من الدولارات التي تُنفق سنوياً على مراكز البحوث في العالم. وتلك الأموال لا تنفق الحكومات منها إلا القليل؛ حيث تفيد بعض الدراسات أن الشركات المتعددة الجنسية تتحمل وحدها ٧٥٪ من نفقات البحث والتطوير في العالم. ثم إن هناك بعض أنشطة البحث العلمي تجري في دهاليز ومختبرات تحت الأرض (كما هو الشأن في بحوث الاستنساخ) مما يجعل مراقبتها والسيطرة عليها عسيرة جداً.

٣-إن العولمة قائمة على (نظام التجارة) وهو نظام غلاّب بطبعه، ما غالب نظاماً ثقافياً آخر إلا غلبه. فإذا كان المرء طبيباً وتاجراً فإنه ينتهي لأن يكون تاجراً. وإذا كان مزارعاً وتاجراً أو مدرساً وتاجراً فإن ما ينتهي إليه هو العمل في التجارة... ولذا فإن كل المهاجمين للعولمة والمحذرين منها، يمكن للواحد منهم أن يغدو في جملة المروجين للعولمة في لحظة ما؛ حين تنفتح أمامه آفاق الربح غير المحدود، ويقود النجاح الباهر من قارة إلى أخرى فاتحاً للفروع وغازياً للأسواق. وسنجد ذلك الشخص آنذاك - مهما كان متحفظاً - يتكلم بلغة المستفيدين من العولمة، ويسلك بعض مسالكهم!!

٤-إن العولمة تعبير عن فائض ثقافي واقتصادي وسياسي، فالدول المعلومة ذات إنتاج فائض، ولا بد لها من تصريف ذلك الفائض وتوظيفه في أي مجال ولدى أي أمة يستطيعون الوصول إليها، ومن الذي يمنع الكأس إذا امتلأت أن تفيض؟ ومن الذي يحول بين المزارع الذي أنتج أكثر من حاجته من أن يبيع

ما فاض عن حاجته؟ ومن الذي يمنع صاحب مطعم من أن يفتح فرعاً آخر لمطعمه الناجح؟

وهذا ما تقوم عليه أنشطة العولمة.

لهذه الأسباب - وربما غيرها- يخشى عقلاء العالم من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تحيق بالعالم نتيجة انتشار ظاهرة العولمة.

إن الرد على ظاهرة العولمة لا ينبغي أن يتجسَّد في تشقيق الكلام وبيان المحاسن والمساوىء، وإنما في إنشاء أنشطة ذات صبغة عالمية تستهدف الاستفادة من كل الإمكانات في نشر أفكار وأنماط معيشية قائمة على أسس ومبادىء أخلاقية وإنسانية مغايرة لما قامت عليه العولمة.

والخطوة الأولى في هذه السبيل، تتمثل في تحليل عميق لهذه الظاهرة وسبر أغوارها، والوقوف على أسرار قوتها ونقاط ضعفها.

والله المستعان.

٣٨ جوهر التقدم العقلي

في أي شيء يتموضع التقدم العقلي؟ ومتى يصح وصف الشخص بأنه عقلاني؟ وهل هناك ضمانات أكيدة لتحقيق تقدم عقلي مطرد...؟ أسئلة ملحة، تطرح نفسها، كلما مخرت أمة عباب أزمة خانقة، أو وجدت نفسها في لجة تجديدات لا عهد لها بمثلها. لا نقصد بالعقل ملكة التفكير المجرد، ولا المنهج العقلاني. والتقدم العقلي لا يتمفصل على فرط الذكاء، كما لا يتمفصل على غزارة المعلومات والمحفوظات، ولا على كثرة الرؤى والأفكار، وإن كان يستفيد من كل ذلك.

العقل هو جملة المفاهيم الراسخة والمترابطة التي يحاول المجتمع، وتحاول الثقافة من خلالها استيعاب الواقع الموضوعي، وتنظيم ردود الفعل على طروحاته المختلفة والتقدم العقلي هو نسق من حالات التوازن والتكامل والدمج بين تلك المفاهيم المتعلقة بالمحاور الأساسية للحياة المعنوية والمادية، كتلك المنوطة باستيعاب الأجل والعاجل، والمحوري والهامشي، والذات والموضوع والحاضر والمستقبل، والخصوصية والعالمية، والوحدة والتنوع، والتطوير والتقليد.. وعلى مقدار كمال تلك الحالات، وفاعليتها في تحسين الواقع، وتحقيق الانسجام بينه وبين معتقدات المجتمع وحاجاته - تكون قوة التقدم العقلي وتماسكه.

سيظل التقدم العقلي يشكّل حجر الزاوية في أي نهضة حضارية، ولدى كل أمة، فعلى مدار التاريخ كان التطور العلمي والتقني مديناً للاختراقات التي

تحدث على صعيد المفاهيم وطرق التفكير البالية، والتي كانت تحول دون تجاوز المعطيات العلمية والتقنية السائدة.

نستطيع أن نقول جازمين: إن أزمة (التقدم العقلي) لدى الشعوب النامية، لا تعود إلى مشكلات فنية أو تقنية، فالإمكانات الذهنية موزعَّة على مستوى الأمم والشعوب بالتساوي، وإنما تعود إلى مشكلات ثقافية بحتة.

عقول البشر جميعاً تعمل بمنطق واحد، وتعتمد مبادىء عقلية واحدة، لكن الخصوصية الثقافية بما هي انعكاس للشروط والسياقات التاريخية والاجتماعية، هي التي تمنح كل أمة تركيبتها العقلية المتميزة والتي تنشِّط حركة التقدم العقلي، أو تعوقها. وقد انتهت مقولات التفوق في الدماء والأعراق، وصار يُنظر اليوم إلى الشروط الثقافية والظروف العامة على أنها الفضاءات التي تحدد مدى فاعلية المواهب والقوى العقلية الكامنة، فالمنهج العلمي، والحماسة للعمل، وقوة الصبر على تحمل مشاق الاستمرار والمتابعة، والصقل الدائم لقواعد التفكير، ومدى مناسبة الوسط البيئي والاجتماعي لتفتح الإمكانات والقدرات المتاحة... كل ذلك معدود اليوم في جملة المنتجات الثقافية، والتي هي - بالطبع - متفاوتة بين أمة وأخرى.

سمات العقل المتقدم:

للعقل المتقدم سمات عديدة، نذكر أهمها في المفردات التالية:

١-النجاحات المتتابعة تجعل أصحابها يعتقدون أنهم خُلقوا؛ ليكونوا ناجحين، كما أن الإخفاقات المستمرة تجعل أصحابها يعتقدون أنهم لا يصلحون إلا للإخفاق. وفي كلتا الحالتين تبدو الصورة التي نكونها عن أنفسنا كأنها الصورة الوحيدة الصحيحة. ومع الأيام نصبح أسرى لتلك الصورة، ونتصرف

في نطاق إيحاءاتها مع أن النجاح قد يكون على حساب مبدأ نؤمن به، أو على حساب علاقة أسرية أضعناها.. كما أن من أخفق في بعض مشروعات حياته، قد يكون أباً جيداً، أو كاتباً ذائع الصيت.. العقل المتقدم يتجاوز المعطيات السائدة، إلى ما يمكن أن يكون، ويؤمن أن هناك دائماً أكثر من طريقة للنظر للأشياء، وأن هناك دائماً منظورات مختلفة. وهو لا يكتفي بذلك، بل يطوّر لذاته عادة البحث عن المنظورات الأكثر رحابة والأوسع مدى، فذلك هو الذي يتمشى مع الحقيقة القائلة: عندما تنشأ مصاعب وأزمات جديدة، فإنها تتيح لنا المزيد من الفرص والاختيارات. وتأمل معي قول الله - جل وعلا- :﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] إننا نجد في جميع سير الرجال العظام شيئاً مشتركاً، هو أنهم لا يخضعون للمقولات الشائعة، إلى جانب أنهم يتخذون من الإمكانات القليلة المتاحة خميرة ورأس جسر لتحقيق الإنجازات العظيمة.

٢- من سمات العقل المتقدم عدم الاستسلام للومضات الذهنية المدهشة، وعدم الانخداع بالعبارات ذات الصياغة المحكمة، وتلك المحمَّلة بالبلاغة اللفظية، لأنه يدرك أن صدق الأفكار، لا يتبلور إلا من خلال إدخالها مضمار التجربة والتطبيق العملي؛ وما من فكرة يتم إخضاعها لذلك، تستطيع المحافظة على ما كانت عليه من تحديد وتماسك، بل يعاد إنتاجها من جديد على نحو يحرفها عن معطياتها الأولى. وحين أخذ المسلمون بالمنهج التجريبي الذي أرسى دعائمه القرآن الكريم صاروا بناة (العقلانية) في العالم ورعاتها. وصاروا إلى ما هم فيه الآن حين تمثلوا مشكلاتهم ذهنياً، بعيداً عن الواقع، وحلوها أيضاً ذهنياً وبمنهج خطابي!

(١) سورة الشرح: ٥-٦

٣-المرونة الذهنية مؤشر من أهم المؤشرات على وجود التقدم العقلي، وتجليات المرونة الذهنية كثيرة، منها : إدراك الفروق الدقيقة بين المتشابهات والمراوحة المستمرة بين الأسس والأصول، وبين المسائل الفرعية المتخصصة والقدرة على تعرية الألفاظ والمصطلحات مما علق بها شوائب الاستعمال والتقليد، بالإضافة إلى إدراك العلاقات الخفية بين الأشياء، والوقوف على الإيجابيات التي لا يفطن لها أصحاب المواهب العادية. العقل المرن يملك قدرة هائلة على التأبي على (القولبة) والنماذج الجاهزة.

حُسن التعامل مع طبقات الحقائق والمعلومات والأشياء من أهم تجليات المرونة الذهنية، إذ إن كثيراً من الأمور ذات أوساط متدرجة، وعلى أحكامنا العقلية أن تتدرج معها؛ فالفرق - مثلاً- بين التفكير الإيجابي وبين الاندفاع الأحمق كالفرق بين التدبير والبخل، وبين المبالغة والكذب -لا يعدو أن يكون هامشاً ضيقاً، كثيراً ما يغيب عن النظر، ويتم بالتالي تجاوزه.

العقل المرن يدرك مثل هذا، ويوقن أن وضع الموس على المفصل لا يكون إلا أمراً اجتهادياً تقديرياً، حيث الفواصل وهمية ومائعة، فمن العسير في لوحة زيتية ذات ألوان متداخلة أن نقول: هنا ينتهي اللون الأصفر، وهنا يبدأ اللون الأصفر، وهنا يبدأ اللون البرتقالي.

٤-نحن لا ندرك الأشياء على نحو مباشر، وإنما عبر وسائط فكرية وثقافية ونفسية أيضاً، وهذه الوسائط تتحول مع الأيام من عادات تسهل عمل العقل إلى قيود تحد من حركته. والتقدم العقلي يفرض دائماً التحرر من تلك العادات من خلال إدامة التفحص، وتوسيع المنظورات، ورؤية البدائل. إنه يفضح ممارسته، وينقض بعض الخيوط التي نسجها؛ ليعيد استخدامها من جديد في

نسيج أبهى وأقوى. وبذلك وحده يمكن ضمان استمرار التقدم العقلي، والحفاظ على مكاسبه.

إن المتأمل للمنهج الرباني الذي ندين لله - تعالى- به يجد أنه وضع لنا الأصول؛ ومنحنا الرؤية التي تسمح لنا بتقدم عقلي هائل، لكنه في النهاية مؤطر ومتمحور؛ وهذا ما نلاحظه في البنية العامة للتشريع على نحو خاص، حيث إن ما لا يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة جاء في الشريعة مفصلاً، ليمثل الثوابت والمحاور الأساسية في حركة النمو، على نحو ما نجده في العقائد والعبادات. وما كان يتغير الزمان والمكان اكتفى فيه ببعض الخطوط التوجيهية، وظل مجملاً، ليشكل الحقل الأساسي للاجتهاد والإبداع، كما هو الشأن في معظم الأمور التي تتعلق بتصريف شؤون الحياة. وهذا كله يعني أن التقدم الحقيقي لا يكون أبداً مطلقاً من القيود وإنما يظل باستمرار متحرراً من القيود، ومشدوداً إلى الأصول والثوابت التي تمنحه المعقولية، وتحول بينه وبين تدمير التوازن العام لحياة البشرية.

والله ولي التوفيق.